رواية

إبراهيم عبد المجيد



المسافات

المسافات

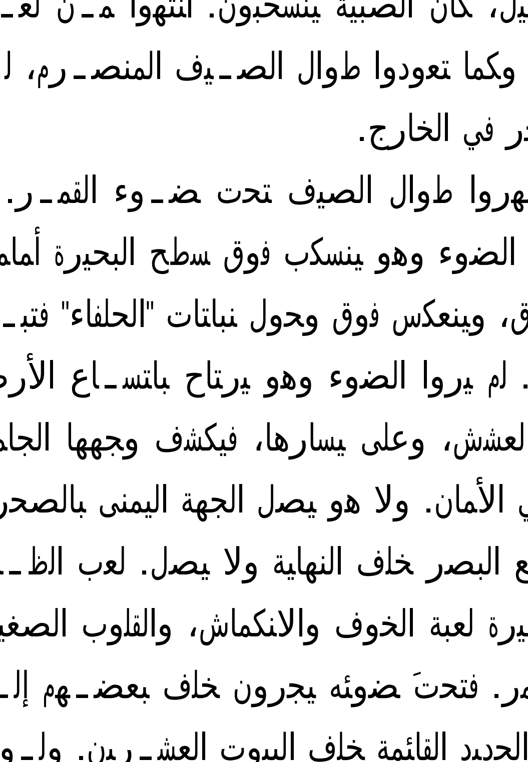
رواية

إبراهيم عبد المجيد

فهرس

الاحتفال

الأطفال



أمام البيوت العشرين، بالضبط أمام العشش الصفيح التي تتقدم البيوت العشرين، والوقت مغرب تعجلت فيه شمس الخريف الرحيل، كان الصبية ينسحبون. انتهوا من لعب البِلْي والنحل، وكما تعودوا طوال الصيف المنصرم، لم يستطعوا التأخر في الخارج.

لم يسهروا طوال الصيف تحت ضوء القمر. أو يستمتعوا بهذا الضوء وهو ينسكب فوق سطح البحيرة أمامهم فتشتعل بالبريق، وينعكس فوق وحول نباتات "الحلفاء" فتبدو كرماح لامعة. لم يروا الضوء وهو يرتاح باتساع الأرض الفضاء أمام العشش، وعلى يسارها، فيكشف وجهها الجامد، ويوسع لهم في الأمان. ولا هو يصل الجهة اليمنى بالصحراء البعيدة، فيتقطع البصر خلف النهاية ولا يصل. لعب الظلام بالقلوب الصغيرة لعبة الخوف والانكماش، والقلوب الصغيرة هنا تعشق القمر. فتحتَ ضوئه يجرون خلف بعضهم إلى محطة السكة الحديد القائمة خلف البيوت العشرين. ولولاه

تبدو المحطة كالعفريت، ويبدو "البلوك" شحيح الضوء، كمياه البحيرة في الليالي المعتمة، غامضا ومخيفًا. أما أعمدة النور الشاحب، الممتدة مع القضبان شرقًا وغربا، وأعمدة أسـلاك التليفونات الكثيفة، فهي بدون ضوء القمر، أشباح ومردة.

لم يتعودوا أن يروا شيئًا بالليل غير مقرون بضـوء القمر. لكن الصيف المنصرم، لم يلعب فيه الأطفال ألعـابهم. لم يصطادوا القنافذ الملتصقة بالقضبان، ولا سـمك البحيـرة الجميل. لم يبلغ فيه صبي، لم يعض على وسـادة أو يـرتج سرير. لم ترقص جِنـيات البحر لأحد. ولم تأت عصـافير الغرب أو تنصب فخاخ.

لم يبق إلا لعب البلي والنحل حتى المغيب. في لعبـة البلي ينحنون فوق الأرض في منطقة صغيرة، فلا يرون كل الأرض، ولا شيئًا من السماء. في لعبة النحل تضرب النحلة الأخرى وتدور فوق الأرض. يرفعها الصـبي علـى كفـه بحركة رشيقة بالأصبعين الوسطى والسبابة. تـدور النحلـة فوق الكف، تظل عيناه معلقتين بها وهي تدور، تدور عيناه، يدور رأسه، يدور الزمن فيدهش كيف مـر الصـيف بـلا

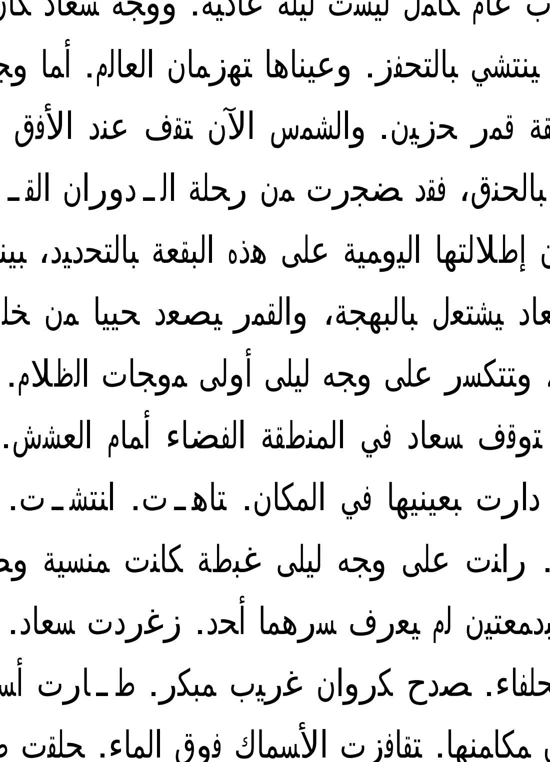
صيف!، ويتساءل متى يأتي القطار فينزاح الكرب كما قـال الكبار.

لكن الشمس كانت تسقط في الغرب وتمـوت. ينـام الظلام الكون ثقيلاً كالرصاص. يغرق القمر في جوف ميـاه البحيرة. وكل الأمهات، بلا سابق اتفاق، قلن للأطفال "نـاموا مع المغيب، وإلا فاضت البحيرة وأغرقتنا، فمياههـا بالليـل تصل للعتب".

وفجأة كف الصبية عن الانسـحاب. رأوا الأمهـات خارجات من الدور، مقبلات نحوهم.

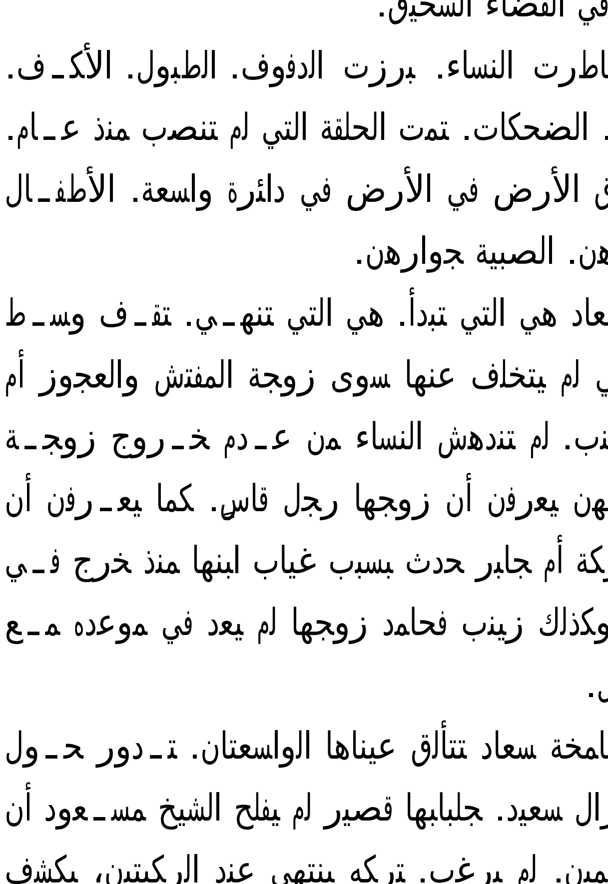
* * * * * *

ليلى وسعاد



كانت النساء قد قررن الاحتفال، فليلة مجيء القطار بعد غياب عام كامل ليست ليلة عادية. ووجه سعاد كان يتألق بالفرح، ينتشي بالتحفز. وعيناها تهزمان العالم. أما وجه ليلى فكان فلقة قمر حزين. والشمس الآن تقف عند الأفق الغربي مشتعلة بالحنق، فقد ضجرت من رحلة الدوران القديم، أو ربما من إطلالتها اليومية على هذه البقعة بالتحديد، بينما كان وجه سعاد يشتعل بالبهجة، والقمر يصعد حييا من خلف ماء البحيرة، وتتكسر على وجه ليلى أولى موجات الظلام.

توقف سعاد في المنطقة الفضاء أمام العشش. تركت يد ليلى دارت بعينيها في المكان. تاهت. انتشت. اهتز عطفاها. رانت على وجه ليلى غبطة كانت منسية وضحكت عيناها بدمعتين لم يعرف سرهما أحد. زغردت سعاد. اهتز نبات الحلفاء. صدح كروان غريب مبكر. طارت أسراب الغُر من مكامنها. تقافزت الأسماك فوق الماء. حلقت طيور



النورس فملأت الفضاء، وبدت كما لو كانت تسرع لتلحق بالكروان في الفضاء السحيق.

تقاطرت النساء. برزت الدفوف. الطبول. الأكف. الأصوات. الضحكات. تمت الحلقة التي لم تنصب منذ عام. جلسن فوق الأرض في دائرة واسعة. الأطفال بين أفخاذهن. الصبية جوارهن.

سعاد هي التي تبدأ. هي التي تنهي. تقف وسط الحلقة التي لم يتخلف عنها سوى زوجة المفتش والعجوز أم جابر وزينب. لم تندهش النساء من عدم خروج زوجة المفتش، فهن يعرفن أن زوجها رجل قاسٍ. كما يعرفن أن عدم مشاركة أم جابر حدث بسبب غياب ابنها منذ خرج في الصباح، وكذلك زينب فحامد زوجها لم يعد في موعده مع بقية العمال.

شامخة سعاد تتألق عيناها الواسعتان. تدور حول نفسها كغزال سعيد. جلبابها قصير لم يفلح الشيخ مسعود أن يصله للقدمين. لم يرغب. تركه ينتهي عند الركبتين، يكشف عن ساقين لدنتين، تلمع ربلتاهما عند الحركة بأضواء

هامسة، بينما ينطق العقبان المدوران، والقدمان الحافيتـان، اللتان انسلتا من خفهما الرقيق الملون، بالدعوة والنار.

ابتسمت سعاد ليـرى النـورس أسـنانها البيضـاء النضيدة. دارت بإبهامها من داخل طوق جلبابهـا الواسـع، الذي ينطلق منه النحر السامق، يحمل الوجه المستدير، والذي تحته يكاد يقفز النهدان، إذ يتلمظان ...!

- كأنها لم تمر بالصيف...!
- ولم يضايقها غياب القطار......!
- وتضحك طول الليل والنهار.....!
- وتقابل فريد فوق السطح.....!
- وزوجها هارب من الموت..!
- لماذا تقفين يا سعاد ...؟!
- إنها تبكي من الفرح..!
- ندق الطبل تتحرك......!

رشقتها ليلى نظرة غير واضحة بعد أن جلست. اهتز عطفا سعاد. تهدل غطاء الرأس الأبيض. سقط إلـى كتفيهـا وإلى الأرض في نعومة. انسدل شعرها. انسكب على جانبي

وجهها. كتفيها. ظهرها. كاد يصل إلى قدميها. بـدا وجههـا كشمسٍ استقرت وسط مياه البحيرة بليل شديد الظلام.

اتسع طوق صدرها أكثر. طارت ذراعاها البيضاوان في كل اتجاه. والشمس غابت تماما، بينما ظل القمر يصاعد واهنًا مبتعدا عن مياه البحيرة إلى السماء. وكـان مصـباح شحيح الضوء أمام بيت المفتش يبدد الظلمة قليلاً.

طارت سعاد كالفراشة. انتظم الإيقاع. قوي. التهبـت الأكف بالتصفيق مع دقات الدفوف والطبـول. دارت سـعاد بقوة. تقافز العرق من مسام الوجه. برزت حمالـة قميصـها الباهت الزرقة من طوق الجلباب. طار ذيـل الجلبـاب مـع دورانها.

- ليلى. ليلى. ليلى.

غلفها الخجل. أمها جوارها تبتسم. أول مرة تبتسـم منذ غياب القطار. انقضت سعاد عليها تنهضها. انسحب طفل ناحية البحيرة يتبول. لن يغرق الماء العتب كما قالت : أمه. لن تخرج الجنية كما قال أبوه. انسحب صبي إلى البيت يفتش عن فخاخه القديمة. غدا سيصطاد طائر "أبو ذيـل". الطـائر الأحمق الغريب. سيصفر له يغريه. سيضع فخاخه في دائرة

واسعة. سيجذبه بصفيره داخل الدائرة. وسيصحو من النجمة إلى البحيرة يحفر طينها ليستخرج حشرة "الحفـار"، الطعـم الذي لا يقاومه طير. وانسحب ثالث ليصلح شِصـه القـديم. ابتسم واتسعت عيناه. وهو يرى السمك الملون يتقافز فزعـا وحزينًا، وهو معلق بسنارته لحظة جذبها من الماء. وأكلـت الغيرة قلوب النساء جميعا. حتى أم ليلـى تـذكرت صـباها وتحسرت. تشابكت أيدي سعاد وليلى.

- كأنهما أختان!

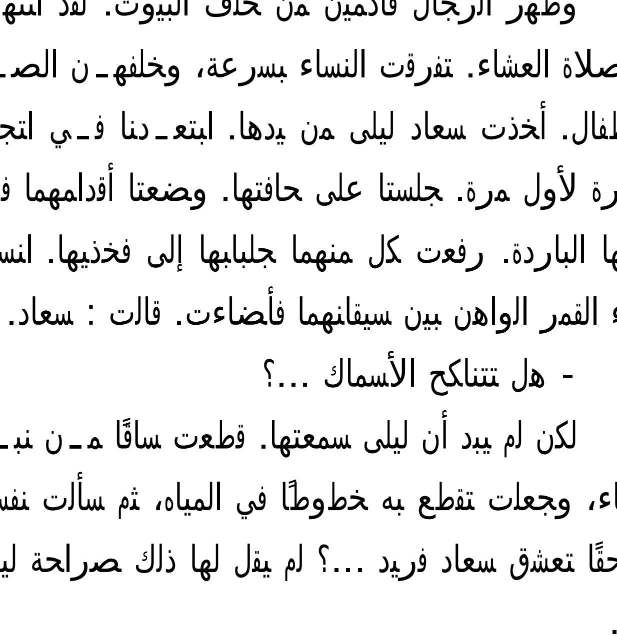
لكن عيني سعاد سوداوان، وعنيي ليلـى زرقـاوان. وجه سعاد مستدير، ووجه ليلى مستطيل قليلاً. شعر سـعاد أسود، وشعر ليلى أصفر كالكهرمان. ليلى جلبابهـا أطـول، عاشت عاشقة للجلباب القصير وما ارتدتـه. يـوم هبطـت المدينة مع أمها، انفصلت عنها عيناها. طافتـا تلهثـان وراء بنات المدينة. فراشات المدينة الطائرات. سيقانهن المرتعشـة السريعة. عيونهن النارية. رؤوسهن المكشـوفة. أثـداؤهن المتبدية. وقرأت، فهي لم تزل تعـرف القـراءة القديمـة!، "صائدة الرجال"، وامرأة ممتلئة، مكشوفة الصدر والسـاقين، كانت تستلقي على ظهرها، ويرتفع نهدها بـدعوة صـاخبة،

وأسفل الصورة كان اسم السينما. دارت النار في صدرها. ارتعش ثدياها. أحست أن ساقيها تلتصقان. ضحكت. مما تخاف ...؟

زغردت النساء. انفصلت الراقصتان. عادت سعاد ضاحكة متهالكة إلى النساء الجالسات، تشعر بحبات العرق تجري هابطة بين نهديها وساقيها، وتتجمع في سرتها تحرقها، ويحرق الدفء إبطيها. "ويلي وويلك الليلة يا شيخ مسعود". وضحكت بقوة. لم تفهم النساء سر الضحكة. وسقطت ليلى في الحزن.

غدا ستقفز بين العربات. فوقها. تنبش وسط الكَنَسة كالجرذ. سيطاردها العسكر. وهي تعرف أن فريد لا يكرهها إلا لذلك. لكن هل هو بالفعل يكرهها ...؟

حدثها ليلة أمس حديثًا طويلاً. ستقابله الليلة قبل انطلاق آذان الفجر، وتعطيه نفسها. تعرف الآن أنه يريدها، ولن تخاف. سوف يكون لها وحدها أو ستجعله كذلك. لكنها على يقين أنه لن يقبلها، إلا إذا كانت يداها في نصاعة ثديها، وقدماها جزأين من أعلى الساقين. لكن كيف ...؟ يأتي القطار غدا فينقضي حزن، ويبدأ حزن.



وظهر الرجال قادمين من خلاف البيوت. لقد انتهوا من صلاة العشاء. تفرقت النساء بسرعة، وخلفهن الصبية والأطفال. أخذت سعاد ليلى من يدها. ابتعدنا في اتجاه البحيرة لأول مرة. جلستا على حافتها. وضعتا أقدامهما في مياهها الباردة. رفعت كل منهما جلبابها إلى فخذيها. انسكب ضوء القمر الواهن بين سيقانهما فأضاءت. قالت : سعاد.

- هل تتناكح الأسماك ...؟

لكن لم يبد أن ليلى سمعتها. قطعت ساقًا من نبات الحلفاء، وجعلت تقطع به خطوطًا في المياه، ثم سألت نفسها، هل حقًا تعشق سعاد فريد ...؟ لم يقل لها ذلك صراحة ليلة أمس.

زيدان

كانت نعمة زوجة زيدان، قد انسلت من بين النسـاء في الحفل، وذبحت ديكًا، حين أقبل زيدان، بعد صلاة العشاء، ابتسم وزام سعادةً. بعد ساعة كانوا أربعة حول الطبلية. هما وابنهما مصطفى وابنتها أحلام.

وضعت نعمة اللمبة الغازية على جانب الطبلية. لابد أن يظهر الديك واضحا. قال زيدان في نفسه "طبلية واسـعة عريضة، وديك صغير وحيد، تتربص به ثمان أيادٍ، وأكثـر من مائة من الأسنان والأضراس والأنياب" وظهـر وجهـه الأسود الخشن، ممتلئًا بالحفرة الصغيرة.

زيدان يقول دائما "كانت الكوليرا تجتاح مصر كلها، والجدري ينفرد بقريتنا. والنتيجة كانت فوز الجدري بالجولة" ويضحك زيدان ويزوم سعادةً بعد كل قول.

ينظر إلى وجه ابنه الحسن، الذي يشبه وجه نعمـة، فيضحك ويزوم سعادة. ينظر إلى وجه ابنته القبـيح، الـذي يشبه وجهه، فيضحك ويزوم سعادة.

حين تشكر له زوجته، يضحك ويزوم سـعادة. مـا أكثر ما قالت : له "أنت رجل عـديم الـدم" فضـحك وزام سعادة. حين غاب القطار تشـاجرت معـه، فضـحك وزام. تركت له البيت، فتعلق الطفلان بزيل جلبابها يبكيان، تعلـق هو بذراعها، فطرحته على عتبة العِشة فوق ظهره، رغم أنه يزنها مرتين. ضجت النساء بالضحك والرجال، وصرخ هو كالأطفال "لا تتركيني يا نعمة". وبالليل ضحك وزام سـعادة حين كانت تتمنع عليه، وكان هو يتذكر ما جرى.

قالت نعمة :

- هذه الطبلية من نعم القطار.

زام زيدان. مد يده ليمسك بالديك يقسمه. مدت يدها. تراجع زائما.

قالت :

- هل رأيت قطار الجيش ...؟

هز رأسه فلم تفهم ما يعني.

- لماذا كان هناك قطار يتجه إلى الغـرب، وآخـر يتجه إلى الشرق ......؟

لم يرد.

- هل رأيت الجنود والسلاح فوق القطارين .....؟

لم يرد.

- أنت لا تعرف شيئًا أبدا.

- أنا جائع. ثم إنك تشغلين نفسك بالقطارات كثيرا، نحن لم نمت بدون القطار.

لاحظ أنها أعطته نصيبا كبيرا من الديك، وقال بوداعة:

- كُلْ يا زيدان، بالهناء.

قال :

- لا أعرف فيم يفكر الولد جابر. إنه حزين هذه الأيام أكثر من أي وقت.

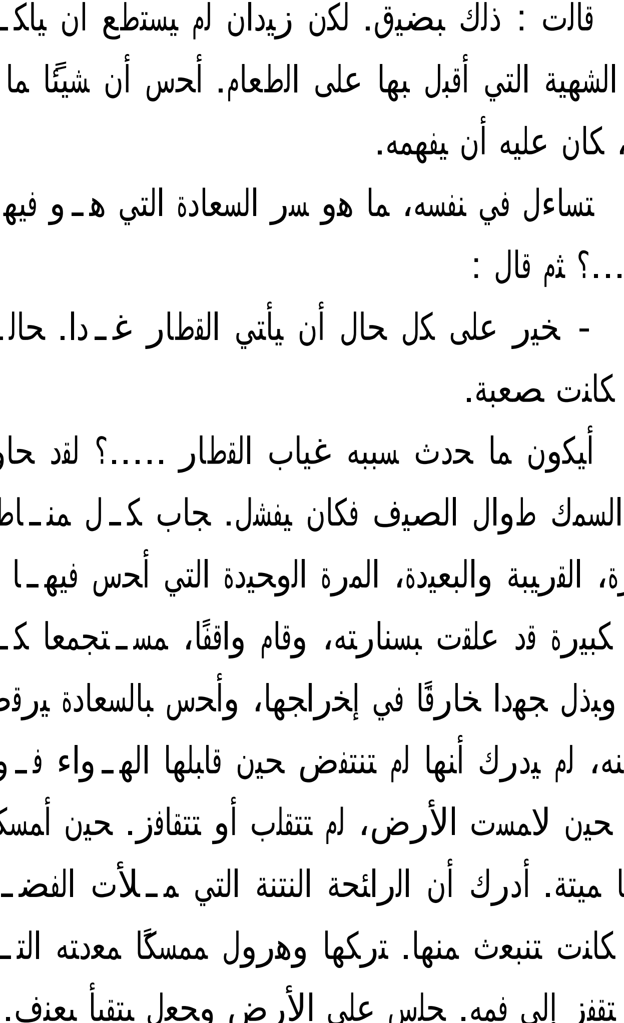
لم ترد. لم تأبه.

- ينفرد كثيرا بحامد زوج زينب. يتهامسان. حين يقترب منهما أحد، يتفرقان أو يصمتان.

- لا شأن لنا بأحد.

- سمعتهما يعلنان الشيخ مسعود أمس. أما اليوم فلم أرهما.

- كُلْ يا زيدان. لا تتحدث كثيرا.



قالت : ذلك بضيق. لكن زيدان لم يستطع أن يأكـل بنفس الشهية التي أقبل بها على الطعام. أحس أن شيئًا ما لا يفهمه، كان عليه أن يفهمه.

تساءل في نفسه، ما هو سر السعادة التي هـو فيهـا دائما ...؟ ثم قال :

- خير على كل حال أن يأتي القطار غـدا. حالـة الناس كانت صعبة.

أيكون ما حدث سببه غياب القطار .....؟ لقد حاول صيد السمك طوال الصيف فكان يفشل. جاب كـل منـاطق البحيرة، القريبة والبعيدة، المرة الوحيدة التي أحس فيهـا أن سمكة كبيرة قد علقت بسنارته، وقام واقفًا، مسـتجمعا كـل قوته، وبذل جهدا خارقًا في إخراجها، وأحس بالسعادة يرقص لها بدنه، لم يدرك أنها لم تنتفض حين قابلها الهـواء فـوق الماء. حين لامست الأرض، لم تتقلب أو تتقافز. حين أمسكها وجدها ميتة. أدرك أن الرائحة النتنة التي مـلأت الفضـاء فجأة، كانت تنبعث منها. تركها وهرول ممسكًا معدته التـي كادت تقفز إلى فمه. جلس على الأرض وجعل يتقيأ بعنف.

في ذلك اليوم، استخدم أجود أنواع الطعم. ذلك الدود الثعباني الرفيع الذي يعيش تحت طين الشـاطئ. الـدود ذو الجلد البني اللامع، الذي يبرق تحت الماء، فتأتيه الأسـماك من الأعماق السحيقة. لم يعد بعد ذلك يخرج للصيد عصـر كل يوم، ولا في صباح الأجازات. أمضـى بقيـة الصـيف يخرج في الأصيل يسير بين مزارع التين في الصحراء، ولا يعود إلى حين ينهره أصحابها. ثم يقطع رحلة أخـرى إلـى مزرعة حكومية مهجورة، يتأمل فيها طواحين الهواء العالية. ويظل واقفًا تحتها، رافعا بصره إليها لأوقات طويلة. تبدو له الطواحين وهي تدور، فيدور حولهـا حتـى يسـقط فـوق الأرض. يقول "دوري دوري يا طاحونـة وابعثـي قطـار المؤونة". ويفهم معنى ذلك، إنه ليس هو. إنه هم". أجل، هم، هم، هم.

- ما هي "هم" هذه يا زيدان ...؟ إنك لا تأكل قالت : نعمة بدهشة، فاشتبك مع الصدر بسرعة. نزع منـه قطعـة لاكها في فمه. كانت مرة. بصقها. قام وجلس فوق الأريكة. كانت نعمة قد انتهت من إطعام الطفلين. انهضتهما ليناما في الحوش.!

أحضرت بعد ذلك "الفواريكة" من أمام العِشة في الخارج. دخلت بها مسرعة تلفح النيران وجهها. وضعتها وسط الحجرة. خرجت إلى المرحاض. غسلت اليدين والقدمين. مسدت شعرها بالماء والعِطر الرخيص. توقفت قليلاً وسط الحوش المعتم، حيث نام الطفلان فوق فراش على الأرض.

غدا ستقفز فوق القطار. ستطاردها الشرطة من عربة إلى عربة. ستضع في يد الشرطة قطعة نقود. سيتركها. لا، لن يحدث ذلك. سيحميها عرفة. ستنهش قلب العربات. هل ستجد شيئًا في السبنسة ...؟ فيها تخبئ الشرطة قطعا ضخمة من السبائك المعدنية. سمعت مصطفى يقول "اسقيني". إنه لم ينم بعد. ملأت كوزا وناولته. كانت تود لو شابه أباه وشابهتها البنت.

كان مصطفى ينظر إليها من فوق حافة الكوز وهو يشرب. أعاد لها الكوز. مسحت له فمه. قبلته. غطته وهي تبكي. هل يفهم مصطفى ...؟ إذا كان لا يفهم، فلماذا يكره حضور عرفة ...؟

فاجأها وهي تتسلل إلى السبنسة. أغلق بابها قبـل أن تهرب. كان الباب الثاني مغلقًا من قبل. لقد أعد كل شـيء. قال لها لن تستطيعي الهروب من النافذة. وقفت متنمرة. كـم ودت ساعتها لو وجدت قطعة واحدة من الحديد، وشجت بها رأسه. تقدم منها. حرك تترباس بندقيته إلى الخارج والخلف. قالت : "سأصرخ" قال : "أسكتك والحق معي، أنتم لصوص". قالت : "إنه قطار كَنَسة". قال : "القانون هو القانون". توسلت إليه مرة واحدة، ثم قالت لنفسها : "ولو". مالت نحوه بسرعة حتى أنه ظنها ستخدعه. تراجع وقال اخلعـي ثيابـك أولاً. وجدها طيعة. رفعت له جلبابها من الأمام. لـم يكـن تحتـه شيء. قال لها لم أعرف مثلك على طول ما سـافرت مـع القطارات. ضحكت سخريةً. أخـذ يحـدثها عـن شـفتيها المكتنزتين. ردفيها المكورين. ساقيها المخروطيتين. ثـدييها الغاضبين. قدرتها العالية على التحكم في أعضائها. ووعدها بالقطار القادم كله. هبطت من السبنسة وهي تسوي شعرها. وجدت مصطفى تحت السلم واقفًا يبكي. لم يأت القطار بعـد ذلك. استقر عرفة في المنطقة وصار صديقًا لزيدان.

كان مصطفى قد نام. أقبل زيدان يغسل يديه. تـذكر أنه يفعل هذا رغم أنه لم يأكل. حين عاد إلى الحجرة كانـت قد سبقته واستقلت فوق السرير عارية تماما مندوفة العانه. لم يخلع زيدان ثيابه. صعد جوارها. لم يشعر بالنار تحته وهـو يجاورها إلى الداخل على غير عادته. ولاها ظهره.

- زيدان.

لم يرد. رفعت جلبابه إلى أعلى. التفت حوله.

- زيدان. الليلة عيد. القطار غدا.

كانت عيناه مركزتين على السقف.

- زيدان ماذا جرى ....؟

كانت قد بدأت تمطر في الخارج. خافـت. غطاهـا بالحِرام الصوفي حتى عنقها. قال وهو ينظر إلـى وجههـا بإمعان.

- اتركيني يا نعمة. أنا لست أنا. والقطار لن يأتي.

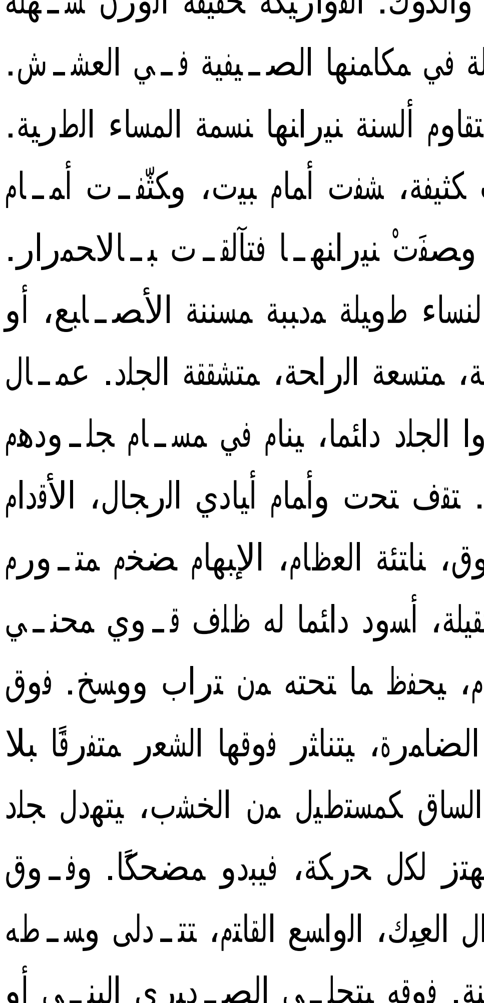
* * * * * *

عبد ا

الليلة يحتفلون بوصول القطار غـدا. عشـرون دارا متقاربة، ملتصقة، تكاد تكون متكومة فوق وجوار بعضـها. الناظر إليها من بعيد، يقول أن ودا عظيما يجمعها، والخائض فيها قد يلعن الدور ومن بها. قد يبكي أو يصـاب بـالجنون. عشرون دارا على هامش المدينة، يحـدوها مـاء البحيـرة والصحراء، تمر خلفها قطارات وقطارات، ومن بينها جميعا كان لهم، مع قطار واحد، شئون وشجون كما يقال ...!

يهيئون الليلة أنفسهم للاستقبال. والمطر صار شديدا. الليل يتباطأ. ومضت ساعات على احتفـال النسـاء. نامـت بعض حجرات على آمال غامضة، لكن حجرات بعينها كـان فيها عصف ريح مكتوم.

في هذه الليلة كانـت "الفواريكـة" جـوار الآمـال والأحلام، هي القاسم المشترك بينهم. الفواريكـة اسـطوانة الصفيح سميكة الجدران، متسعة الحلق واطئة الارتفاع، التي يركبون لها أذنين من شرائط الصفيح السميك، ويقسمونها إلى نصفين، يملأ جدار النصف السفلي بالثقوب، ويبطن جـدار النصف العلوي من الداخل بـالطمي الأصـفر فهـو الـذي



سيوضع فيه الخشب والكوك. الفواريكة خفيفة الوزن سهلة الانتقال، خرجت الليلة في مكامنها الصيفية في العشش. ظهرت أمام البيوت تقاوم ألسنة نيرانها نسمة المساء الطرية. صنع دخانها موجات كثيفة، شفت أمام بيت، وكثّفت أمام آخر، ثم شفت كلها، وصفَتْ نيرانها فتألقت بالاحمرار. وخرجت لها أيادي النساء طويلة مدببة مسننة الأصابع، أو أيادي الرجال المربعة، متسعة الراحة، متشققة الجلد. عمال السكة الحديد مشققوا الجلد دائما، ينام في مسام جلودهم بقايا المازوت اللعين. تقف تحت وأمام أيادي الرجال، الأقدام العريضة نافرة العروق، ناتئة العظام، الإبهام ضخم متورم من ضيق الأحذية الثقيلة، أسود دائما له ظلف قوي محني على الأصبع من أمام، يحفظ ما تحته من تراب ووسخ. فوق الأقدام تقف السيقان الضامرة، يتناثر فوقها الشعر متفرقًا بلا اتساق، تبرز قصبة الساق كمستطيل من الخشب، يتهدل جلد الربلة إلى الخلف، يهتز لكل حركة، فيبدو مضحكًا. وفوق الركبتين يبدو السروال العِك، الواسع القاتم، تتدلى وسطه تكة من الحبال الخشنة. فوقه يتجلى الصديري البني أو الأسود، المقصب بخطوط رأسية بيضاء، تبرز من تحته

الفانلة الصفراء أو البنية، طويلة الأكمام. وحين انتصف الليل كانت الجمرات انطفأت في بيت عبد ا . وكان يسأل نفسـه "لماذا لا نتزوج الأرانب ...؟".

عبد ا لا ينام إلا بعد أن تنطفئ الجمرات. لا يفكر أن يطفئها بالماء إذا غلبه النوم، أو يلقي بها فـي الخـارج. يظل يقاوم النوم حتى تنطفئ. فمنذ عشر سنوات ماتوا، قـام يتثاءب كالعادة، توضأ خارج المخـزن، ثـم عـاد ليصـلي الصبح، بعد أن سفح هواء الشتاء وجهه بإبر رفيعة. جعـل وقفته أمام النائمين الخمسة من زملائه. في الركعة الثانية لم يستطع أن يرفع وسطه. قطع الصلاة مستغفرا. استدار. لـم يسمع همسا ولا نفسا. استدار. كانوا بالفعـل مـوتى. فسـر الموت بعد ذلك أنه جاء نتيجة للاختناق الناتج عن اسـتمرار الكوك مشتعلاً طول الليل في الفواريكة. من يومها لا ينام إلا بعد أن تخمد الجمرات تماما. وحين خمدت الليلـة، أخـرج الفواريكة إلى العِشة وهو يسمع صوت دقات المطـر فـوق السقف. عاد ليجد زوجته لا تزال ترتق مقطفًا كبيـرا مـن الحبال، بالحبال.

- لقد انتهيت من ثلاثة مقاطف. ألا تكفي ...؟

- إنها عودة بعد غيبة يا عبد ا .

رأى صغيرتين نائمتين فوق الأريكتين بلا حركـة. تذكر أن هناك أربع أخريات نائمات في الحوش. ردد السؤال في نفسه "لماذا لا نتزوج الأرانب ...؟" ثم مال رأسه بحـزن طافح.

- لا تغتَم يا ولدي.

- إنه الولد يا شيخ مسعود. الولـد وقـد تجـاوزت الخمسين.

وسمع العجوز أم جابر تقول:

- القطار القطار، في عودته النجـاة، وفـي غيبتـه البلاء.

وكان القطار قد انقطع عن المجيء منذ شهر، وفشلوا أن يعرفوا سر انقطاعه، بالضبط كما لا يعرف أحد منهم سر حضوره. وأخذ الشيخ مسعود إلى الجامع الصـغير خلـف البيوت. توافد العمال. حكى كل رجل مـنهم حكايـة عـن زوجته، وكيف أنها أجهضت، وفي ولد بالذات! شجعوه بـأن الصحة موجودة. وكان هو يشعر بتسرب الصـحة. صـلى

معهم. سقطت دمعة على الحصير. رآها تنزلق بين عيـدانها الصفراء والخضراء.

تطلع إلى وجه زوجته الضخم. الوشم فوق جبهتهـا مستدير كبير مزركش المحيط، على ذقنها مسـتدير مسـتوٍ، صغير، على أنفها نقطة خضراء صغيرة جوارها خالٌ ضخم ناتئ متدلٍ. سألها.

- ستأخذين سميرة معك ...؟

- ربما. أنها لم تتكلم اليوم. وفي الحفل كانت مغتمة رغم أن الجميع رقصوا وهللوا.

قال :

- لو كنا سألنا عن أسرته. لو عرفنا أين أهله. أنـت يا امرأة ...؟!

سكتت قليلاً ثم قالت :

- أقول لك الحق يا عبد ا . مرسي قال إنه مقطوع من شجرة. وأنه يعمل "مسافرا" على القطارات، والقطـارات منزله وأهله وبلاده.

وضحكت.

- لماذا تضحكين ...؟

- إني أبكي وأضحك معا. كان يحضر كل أسـبوع مع القطار. لابد سيحضر غدا ومعه هدايا كثيرة لسميرة.

قال :

- أريد أن أسألك عن النساء والشرطة.

نظرت إليه في عجب. قالت :

- لا أحد يقترب منا. وحكاية نعمة وعرفة كذب في كذب.

- ومن أيضا ...؟

- إذا كان لابد، فهي سعاد، إنهـا لا تخـرج إلـى القطار، لكن الكل يعرف ماذا تفعل مع ابـن المفـتش فـوق السطح.

قال مطرقًا :

- لا تأخذي سميرة معك غدا.

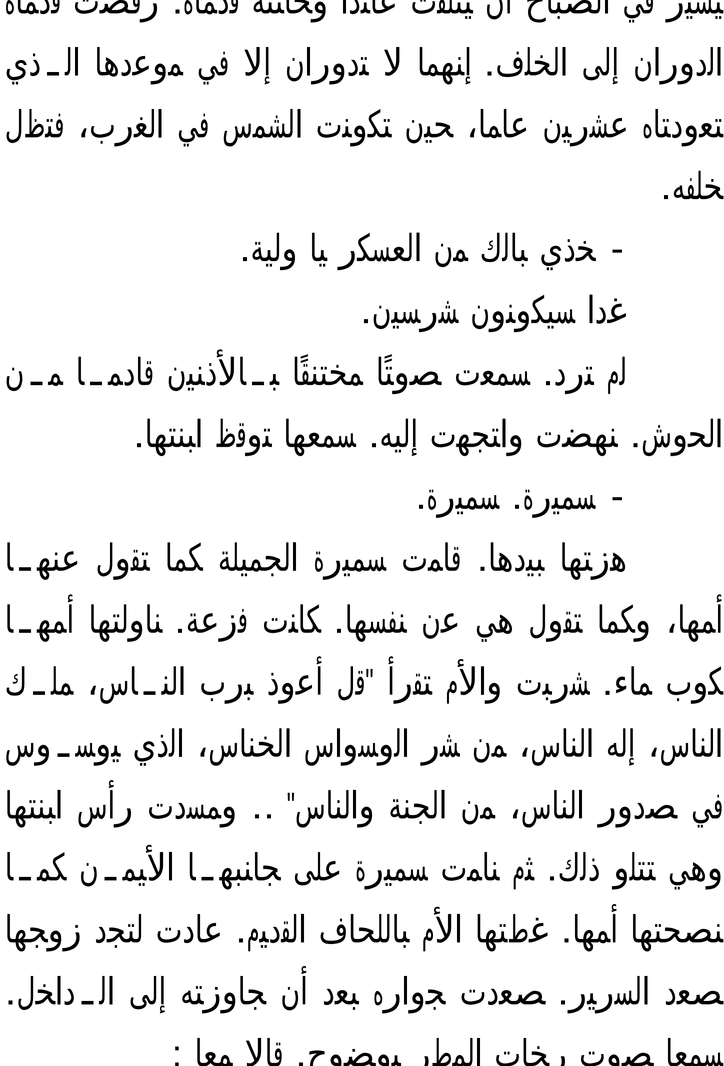
لا يعرف لماذا قال ذلك. لكنه على كل حال تحسـس عنقه، فوجده رفيعا يكاد ينكسر. قال :

- هل تعرفين حزني وبلواي ...؟

قالت :

- إنك سوف تقتل نفسك، هذا كون منظمه صاحبه.

إنه يسير وراء القضبان، التي تمتد إلـى لا نهايـة، يحمل فوق كتفه مقطفًا معلقًا خلفه على عتَلة، فـي المقطـف جاكوش وبعض مسامير ومفتاح فرنسـاوي، يلـف ذراعـه اليمنى على العتلة من أمام، يوازن بها ثقل المقطف المعلـق خلفه، ويمضي وراء القضبان. يسير دائما من الشـرق إلـى الغرب صباحا بحثًا عن أعطابٍ بالسكك. الأعطاب الصغيرة يقوم بإصلاحها بنفسه. الكبيرة يضع فوقها علامة بالطباشير وحين يعود آخر النهـار يخبـر العمـال أو المفـتش بهـا فيصلحونها في اليوم التالي مسترشدين بعلامـة الطباشـير. قرص الشمس دائما خلفه. حين يعود فـي المسـاء، يكـون قرص الشمس مرة واحدة. يعرف أن الشمس تخـرج مـن الشرق إلى الغرب، وهو أيضا يفعل ذلك، فهل هـو أسـرع منها حتى تظل خلفه دائما ...؟ لو استطاع أن يمسك بها يفتح قلبها ليرى أي نار فيه. مرسي خطيب سميرة الغائب، لا شك يلحق بها. إنه يسير بالقطارات، قد يصـطدم بهـا أو يمـر عليها ...! عشرون عاما والشمس تطارده. عشـرون عامـا يتساءل لماذا تدور الشمس وتعود ...؟ لماذا لا تموت مثلنـا وتأتي غيرها قد تخرج من جهة أخرى ...؟ وكم حاول وهو



يسير في الصباح أن يتلفت عائدا وخانته قدماه. رفضت قدماه الدوران إلى الخلف. إنهما لا تدوران إلا في موعدها الذي تعودتاه عشرين عاما، حين تكونت الشمس في الغرب، فتظل خلفه.

- خذي بالك من العسكر يا ولية.

غدا سيكونون شرسين.

لم ترد. سمعت صوتًا مختنقًا بالأذنين قادما من الحوش. نهضت واتجهت إليه. سمعها توقظ ابنتها.

- سميرة. سميرة.

هزتها بيدها. قامت سميرة الجميلة كما تقول عنها أمها، وكما تقول هي عن نفسها. كانت فزعة. ناولتها أمها كوب ماء. شربت والأم تقرأ "قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس" .. ومسدت رأس ابنتها وهي تتلو ذلك. ثم نامت سميرة على جانبها الأيمن كما نصحتها أمها. غطتها الأم باللحاف القديم. عادت لتجد زوجها صعد السرير. صعدت جواره بعد أن جاوزته إلى الداخل. سمعا صوت رخات المطر بوضوح. قالا معا :

- المياه تنساب على الجدران.

نزلا. حركا الأريكتين بعيدا عن الحائط. أحكما لف الطفلتين. عادا إلى السرير. قال عبد ا :

- حسبت أن نظري ضعف، لكنها اللمبة نمرة خمسة. لماذا لا تشتري نمرة عشرة ...؟

وقف الكلام على شفتي الزوجة. إن اللمبة نمرة عشرة. استدارت على جانبها الأيمن. استدار على جانبه الأيسر. جذبا فوقهما الحرام الصوفي الخشن. وضعت ذراعها حول وسطه. جذبته إليها. وضع ذراعه حول وسطها. جذبها امتدت يدها تحت جلبابه تنزع سرواله. امتدت يده. قالت : فجأة :

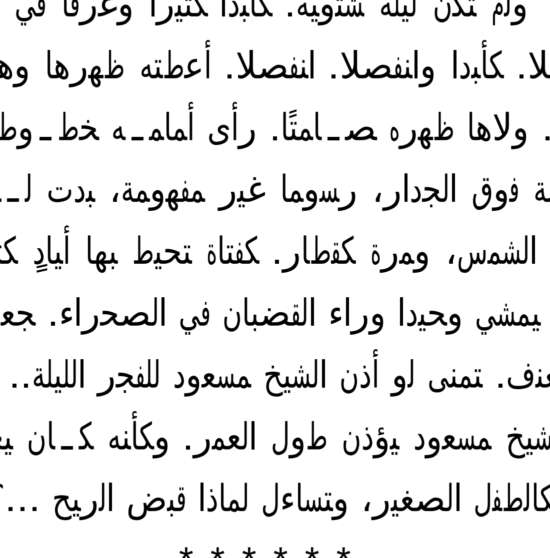
- ما هي حكاية قطارات الخواجات التي تمر كل يوم ...؟

لم يرد.

- اليوم قالوا أنهم رأوا خواجة يقبل امرأة خلف النافذة.

- الولد يا رقية.

- الولد يا عبد ا .



ولم تكن ليلة شتوية. كأبدا كثيرا وغرقا في العـرق وانفصلا. كأبدا وانفصلا. انفصلا. أعطته ظهرها وهي تبكي بحرقة. ولاها ظهره صـامتًا. رأى أمامـه خطـوط المـاء المنسابة فوق الجدار، رسوما غير مفهومة، بدت لـه مـرة كأشعة الشمس، ومرة كقطار. كفتاة تحيط بها أيادٍ كثيرة، أو كرجل يمشي وحيدا وراء القضبان في الصحراء. جعل قلبـه يدق بعنف. تمنى لو أذن الشيخ مسعود للفجر الليلة.. تمنى لو ظل الشيخ مسعود يؤذن طول العمر. وكأنه كـان يعـرف، خاف كالطفل الصغير، وتساءل لماذا قبض الريح ...؟

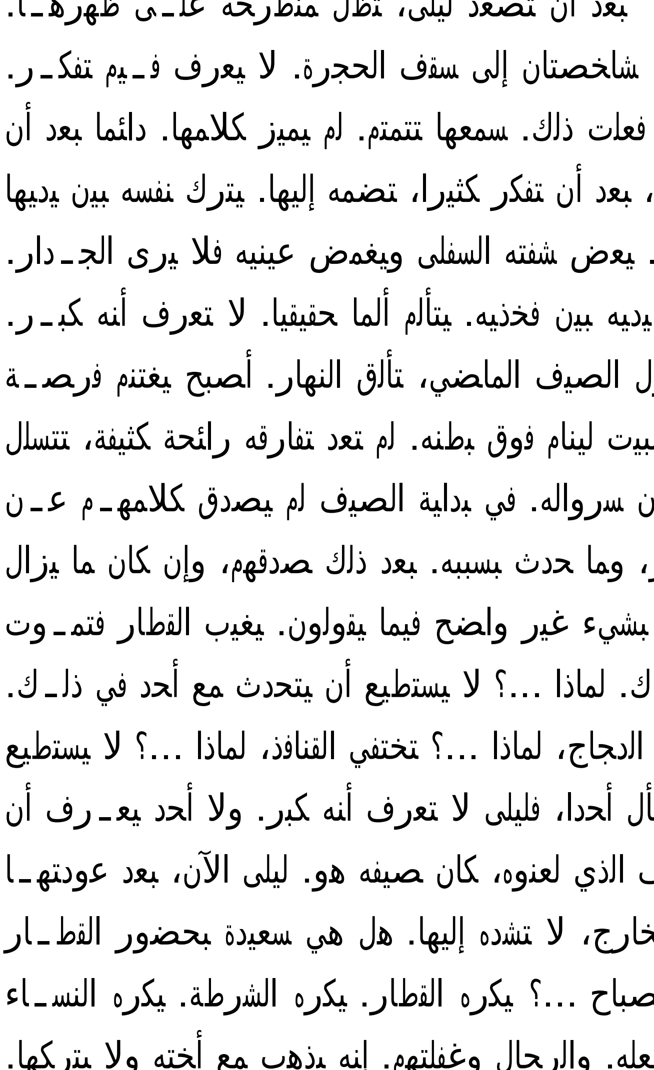
* * * * * *

علي

كانت ليلى قد عادت، في الوقت الذي كان علي يسأل نفسه، لماذا تخرج حين يقترب الفجر، وأين تذهب ...؟ ...؟ لماذا خرجت الليلة وأمس قبل ذلك بكثير ...؟ ولماذا عـادت متأخرة ...؟ لم يفكر أن يسأل أخته من قبل، ولن يسألها الآن أيضا. لكنه يشعر منذ زمن أنها تعاني شيئًا ما. يشعر بـذلك حين تخرج دائما، ولا تعرف أنه يقظ. وهو نفسه لا يعرف، لماذا حين يقترب الفجر يستيقظ. والآن استيقظ مثـل أمـس، قبل الفجر، وشعر بخروجها الذي اختلف موعده. وبعد قليـل سيسمع آذان الشيخ مسعود يتسرب رفيعا مختنقًـا. أبـوه لا يخرج لصلاة الفجر. إنه يغط دائما بصـوت عـال، ويمـلأ غطيطه الحجرة، وقد ينفذ إلى الفضاء الخارجي. ربما كـان ذلك سبب استيقاظه. حين يسمع الآذان، ينتهي غطيط الأب. يجثم سكون ثقيل على الحجرة. يشم علـى رائحـة الأثـاث والفراش القديم. تنقلب الأم فيطرقع السرير تحت ثقلها. ربما تزوم أن تغط بأنفها مرة أو مرتين، ثم تعود إلـى الصـمت. والجدار دائما أمامه خطوط وصور كثيـرة، وليلـى توليـه

ظهرها. سريرهما ضيق لا يترك مسـافة معقولـة بينهمـا. يقرفص ويضم ركبتيه إلى صدره. لا يبتعد عـن الجـدار. ركبتاه تلامسانه دائما. لا يصدق أن الغطاء الصوفي، الـذي يلفه أبوه حول ركبته كل مساء، يداوي آثار جدار قـديم ...! لن يحتاج لهذا الرباط حين يكبر. لن يؤثر في الجـدار، ولا أي شيء. هم الذين جعلوه ينام الصيف مبكرا بالقوة. يـذكر دائما الصيف الأسبق. كان يسهر تحت المصباح الوحيد، أمام بيت المفتش، يجهز الشص لصيد الأسماك صباحا، والفخـاخ لصيد العصافير عصرا في المساء كان يذهب إلى البحيـرة غير وجل يستخرج دودها، ويضعه في "حق" مع نفس قطـع الطين السوداء حتى الصباح. يعود إلى المنزل فيغتسل. يعود إلى أترابه فيلعب، ويشارك في فصولهم المضحكة.

انقلبت أخته الصغيرة من فوق الأريكة. هبطت ليلى لترفعها. لم تنم بعد. كل ليلة تهبط، لا يهبط أبـوه ولا أمـه. ينتظر سقوط أخته الصغيرة، وهبوط ليلى إليها. فـي هـذه اللحظة يتقلب إلى الناحية الأخرى بسرعة، ثـم يعـود إلـى وضعه الأول. يشعر بسعادة لأنه أراح جانبه ...!



بعد أن تصعد ليلى، تظل منطرحة على ظهرها. عيناها شاخصتان إلى سقف الحجرة. لا يعرف فيم تفكر. والآن فعلت ذلك. سمعها تتمتم. لم يميز كلامها. دائما بعد أن تصعد، بعد أن تفكر كثيرا، تضمه إليها. يترك نفسه بين يديها كميت. يعض شفته السفلى ويغمض عينيه فلا يرى الجدار. يضع يديه بين فخذيه. يتألم ألما حقيقيا. لا تعرف أنه كبر. في أول الصيف الماضي، تألق النهار. أصبح يغتنم فرصة خلو البيت لينام فوق بطنه. لم تعد تفارقه رائحة كثيفة، تتسلل إليه من سرواله. في بداية الصيف لم يصدق كلامهم عن القطار، وما حدث بسببه. بعد ذلك صدقهم، وإن كان ما يزال يشعر بشيء غير واضح فيما يقولون. يغيب القطار فتموت الأسماك. لماذا ...؟ لا يستطيع أن يتحدث مع أحد في ذلك. يموت الدجاج، لماذا ...؟ تختفي القنافذ، لماذا ...؟ لا يستطيع أن يسأل أحدا، فليلى لا تعرف أنه كبر. ولا أحد يعرف أن الصيف الذي لعنوه، كان صيفه هو. ليلى الآن، بعد عودتها من الخارج، لا تشده إليها. هل هي سعيدة بحضور القطار في الصباح ...؟ يكره القطار. يكره الشرطة. يكره النساء وما تفعله. والرجال وغفلتهم. إنه يذهب مع أخته ولا يتركها.

يقفز فوق العربات كالقط. يظل فوقها قابعا كالقنفذ. القنفذ الذي لم يصده طوال الصيف الماضي. لا ينسى أنه اشترى بطارية، ليسبق أترابه في الكشف عن القنافذ. دائما يكون القنفذ تحت التحويلة. تحت عامودها الحديدي الممتد بين القضيبين. أو بين قضيبي التحويلة المتجاورين. ويدهش كيف لا يخاف أن ينطبق عليه القضيبان فيموت. ذات مرة سأله أحد الصبية عن ذلك. وجد نفسه يجيب بسرعة :

- هذه التحويلات أرضية يا غبي، وكي تتحول لابد أن يأتي من يحولها.

فيشعر به القنفذ ويهرب.

تعجب من نفسه كيف أدرك ذلك، وهو ما كان يسأل نفسه عنه. لقد كان يعرف الإجابة ولا يدري بها. أحس بالزهور. إن التحويلات التي يجدون القنافذ بينها، كلها لا تعمل إلا باليد. لم يجدوا مرة قنفذا بين تحويلة تتحرك من البلوك. في هذه الحالة يجدونه تحت العامود الممتد بين القضيبين. حين يتحرك العامود، يتحرك فوق القنفذ فلا يؤذيه. أما تحويلات اليد فتحتاج لمن يحولها كما قال، وأقدام

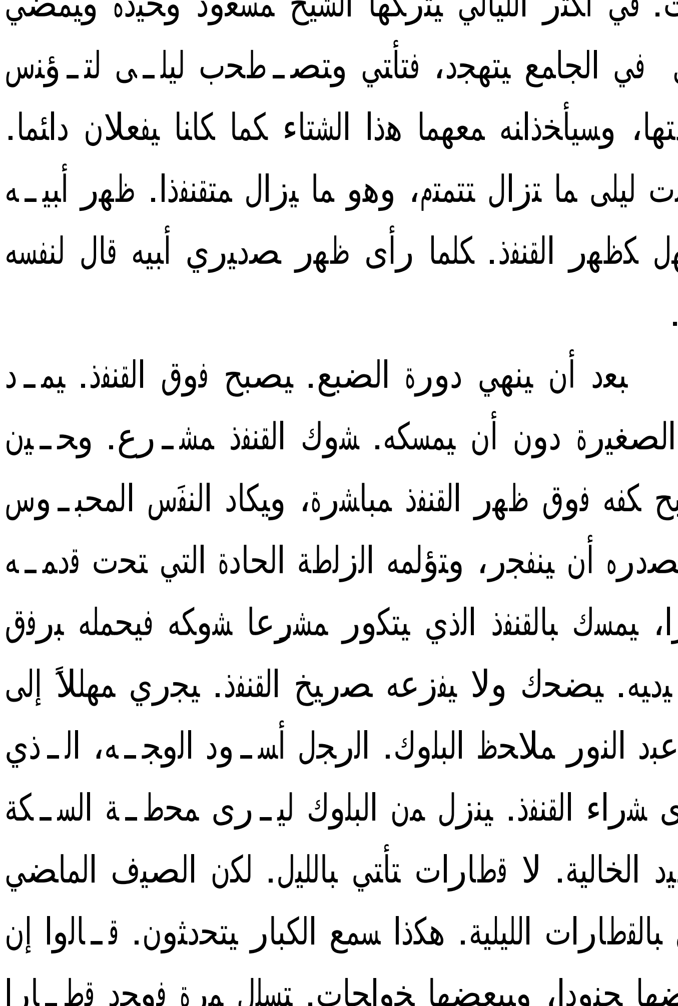
عمال السكة الحديد أحذية ثقيلة كبيـرة ملطخـة بالمـازوت والتعب، والرجال معوجون في مشيتهم كأبيه.

"علي يعرف أنه مميز عن أقرانه".

إنه بالكاد في الثانية عشرة. لكنه طويل. أطول منهم جميعا. وقوي. أقوى منهم جميعا. وذكي رغم أن أباه منعـه عن التعليم. وأبوه متدين جدا، رغم أنـه لا يخـرج لصـلاة الفجر. يظل أكثر الليالي يقرأ القرآن ويسبح. يقول دائما يـا لطيف يا لطيف يا لطيف. أمه تخاف من تسابيح أبيه. قالت : إنه في ليلة، هبط عليهم ملاك ضخم، شـق السـقف وفـرد جناحيه على أبيه، وصرخ علي النائم جواره في ذلك الوقت. وهو لا يذكر أنه رأى الملاك أو صرخ. وأمه تؤكد أنـه رآه وإلا ما كان صرخ، ولا تعرف أنه لا يحـب الصـراخ ولا الحزن. فهو لا يحزن وهو يرى أباه حزينًا من شدة المذلـة والفقر كما يقول. يحزن فقط حين يرى ليلى حزينـة. حـين يحس دموعها فيحبس دموعه. لكنها الليلة لم تفعل ذلك. ولـم تلتف حوله رغم أنه متقنفذ حول نفسه ...!

إنه يسلط ضوء البطارية على التحويلة من بعيد للحظة سريعة، فالقنفذ يحس بالضوء. يطفئ ضوء البطارية. يبتعد عن القضيب. يدور كالضبع، في دائرة واسعة. أبوه قال أن الضبع يدور كذلك. وهو لم ير الضبع. لكنه يصدق ما يقوله أبوه عن الشوكة التي في عنقه، والتي تدفعه إلى ذلك الدوران الواسع. ويسير على أطراف أصابعه. إنه حافي، لكنه ينظف قدميه قبل النوم. قدما أبيه نظيفتان دائما. أبوه يتوضأ كثيرا. هو لا يتوضأ. توضأ مرة وذهب إلى الجامع. انقطعت جلدة القُباب في الطريق. أخذ القُباب في يده وسار حافيا كان الشيخ مسعود يؤذن أمام الباب. قطع الآذان وشتمه. علي لا ينسى أبدا أن الشيخ مسعود قال "حي على الصلاة امشي يا بن الكلاب يا نجس. حي على الفلاح". ولى هاربا إلى المنزل يبكي. قالت : أمه "قطيعة تقطع الشيخ مسعود واللبؤة زوجته معا. صل في البيت يا ولدي". لكنه لم يصل ولم يتوضأ بعد ذلك.

في أول الصيف الماضي حين تألق النهـار أراد أن يرى اللبؤة هذه كما لم يرها من قبل. حلم بها. رضع حلمـة ثديها في المنام، وبكى على صدرها. هدهدته. وظل طـوال



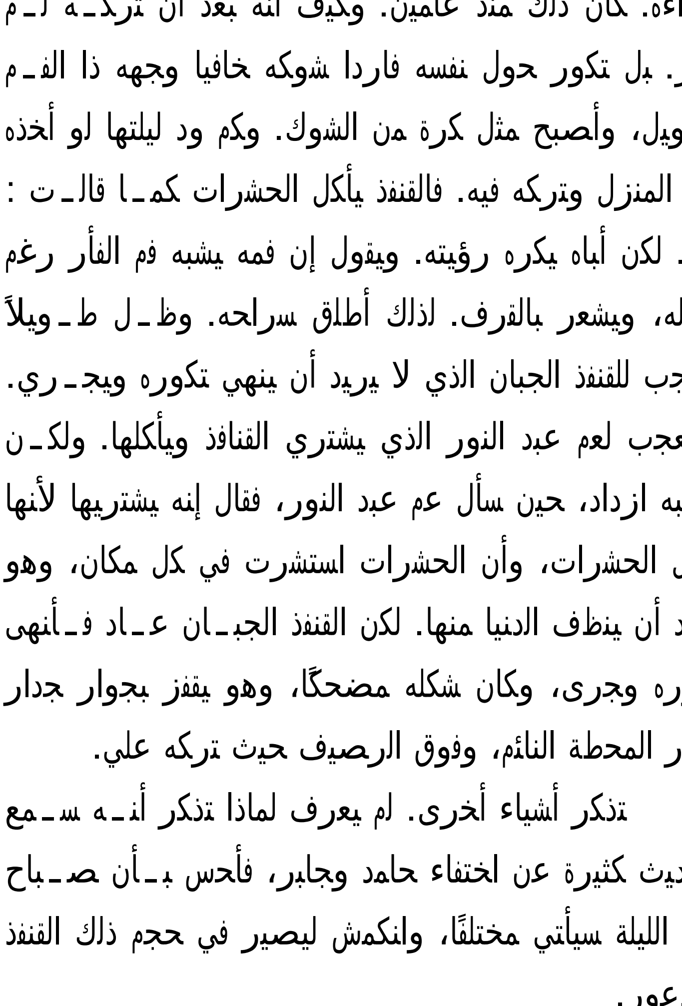
الصيف ينتظر الشتاء، فسعاد فيه لا تستطيع النوم وحدها في البيت. في أكثر الليالي يتركها الشيخ مسعود وحيدة ويمضي الليل في الجامع يتهجد، فتأتي وتصطحب ليلى لتؤنس وحدتها، وسيأخذانه معهما هذا الشتاء كما كانا يفعلان دائما. وكانت ليلى ما تزال تتمتم، وهو ما يزال متقنفذا. ظهر أبيه مهلهل كظهر القنفذ. كلما رأى ظهر صديري أبيه قال لنفسه ذلك.

بعد أن ينهي دورة الضبع. يصبح فوق القنفذ. يمد يده الصغيرة دون أن يمسكه. شوك القنفذ مشرع. وحين تصبح كفه فوق ظهر القنفذ مباشرة، ويكاد النفَس المحبوس في صدره أن ينفجر، وتؤلمه الزلطة الحادة التي تحت قدمه كثيرا، يمسك بالقنفذ الذي يتكور مشرعا شوكه فيحمله برفق بين يديه. يضحك ولا يفزعه صريخ القنفذ. يجري مهللاً إلى عم عبد النور ملاحظ البلوك. الرجل أسود الوجه، الذي يهوى شراء القنفذ. ينزل من البلوك ليرى محطة السكة الحديد الخالية. لا قطارات تأتي بالليل. لكن الصيف الماضي حفل بالقطارات الليلية. هكذا سمع الكبار يتحدثون. قالوا إن ببعضها جنودا، وببعضها خواجات. تسلل مرة فوجد قطارا

به أناس حمر الوجوه. رجالاً ونساء. اقترب من القطار أكثر مختفيا وراء حجرة ناظر المحطة. سمع كلامهم. لم يفهمـه. قال إنهم فعلاً خواجات ...! ورأى خلف النافذة رجلاً يضحك بفم واسع، وخلف نافذة أخرى امرأة عارية، تخرج ثديها من فوق الزجاج. وفي ليلة أخرى، تسلل ليرى الخواجـات. رأى قطارا أسود مزدحما بالمعدات الضخمة والجنود. لم يسـمع شيئًا هذه المرة يفهمه أو لا يفهمه.

وهو الآن لا يفهم تمتمة أخته. في البدايـة حسـبها صوت حبات المطر الهزيلة فوق السقف. لكن المطر اشـتد. واستدارت ليلى فانكمش أكثر. قبلته فوق كتفه بحنو. عـادت فاستدارت وولته ظهرها. نامت. قال لنفسـه لا داعـي لأن ينكمش أكثر من ذلك. فرد جسمه. لكنه سمعها تقول لنفسها، "كان خطأ كل ما فكرت فيه. سيحفظه ا لي. لن يقرأ أوراقه أحد غيري. وسأفهم".

لم يفهم شيئًا مما سمعه. ازداد دهشة. عن من تـتكلم ليلى ...؟ ودوى رعد عاصف زلزل الجدران، وسطع ضوء ملأ الحجرة قادما من خلف الكوة الزجاجية الصغيرة العالية. وظل الرعد مدويا كأنما السموات تقع فوق بعضـها وفـوق



الأرض، تذكر أصغر قنفذ اصطاده ورفـض عبـد النـور شراءه. كان ذلك منذ عامين. وكيف أنه بعد أن تركـه لـم يجر. بل تكور حول نفسه فاردا شوكه خافيا وجهه ذا الفـم الطويل، وأصبح مثل كرة من الشوك. وكم ود ليلتها لو أخذه إلى المنزل وتركه فيه. فالقنفذ يأكل الحشرات كمـا قالـت : أمه. لكن أباه يكره رؤيته. ويقول إن فمه يشبه فم الفأر رغم طوله، ويشعر بالقرف. لذلك أطلق سراحه. وظـل طـويلاً يتعجب للقنفذ الجبان الذي لا يريد أن ينهي تكوره ويجـري. ويتعجب لعم عبد النور الذي يشتري القنافذ ويأكلها. ولكـن عجبه ازداد، حين سأل عم عبد النور، فقال إنه يشتريها لأنها تأكل الحشرات، وأن الحشرات استشرت في كل مكان، وهو يريد أن ينظف الدنيا منها. لكن القنفذ الجبـان عـاد فـأنهى تكوره وجرى، وكان شكله مضحكًا، وهو يقفز بجوار جدار ناظر المحطة النائم، وفوق الرصيف حيث تركه علي.

تذكر أشياء أخرى. لم يعرف لماذا تذكر أنـه سـمع أحاديث كثيرة عن اختفاء حامد وجابر، فأحس بـأن صـباح هذه الليلة سيأتي مختلفًا، وانكمش ليصير في حجم ذلك القنفذ المذعور.

الشيخ مسعود

حين بدا أن الليلة توشك على الانتهاء. أن السـموات تقع فوق الأرض من قوة الرعد، تبددت الآمال، أو كـادت، في أكثر من منزل. شعر الجميع أن نيران الفواريكة، تبـدد دفأها، ولزم البرد الحجرات كعدو مكتسح. التفـت الأجسـاد حول بعضها، انسحقت الرغبات. وبدا أن البحيـرة فاضـت بمياهها، وأن الصحراء ماجت بالرياح، وتذكر كـل واحـد خطاياه. وصرخ الأطفال من فزع مهول. نـادت أم جـابر العجوز ربها "ارفع مقتك عن عبادك الخلصـاء"، وصـارت ترددها بلا توقف وهي تبكي بحرقة لغيبة ابنها الذي لم يعـد منذ الصباح. قامت زينب واحتضنت أطفالها الثلاثـة وهـي تبكي لغيبة حامد الذي لم يعد منذ الصباح أيضـا، تـذكرت حضور جابر في منتصف ليل أمس وخروجه بسرعة بعد أن أسر ببعض كلمات لم تسمعها لحامد في العِشة، كيف خافـت حين سمعت الطرقات فوق باب العِشة وكيف أمسـكت بيـد حامد بضراعة وهي لا تدري لماذا تفعـل ذلـك. قالـت : والحزن يطبق عليها، "لماذا فعلتها يا حامد ...؟" وكأنها كانت تعرف كل شيء. وقام زيـدان مهـرولاً إلـى المرحـاض.

وصرخت أم سميرة بدعوة أن يعود مرسي لابنتهـا، بحـق البرق والرعد والزلزال والطير السابح في الفضاء. انفجرت دموع سميرة ساخنة مرة. استدارت ليلى لتأخـذ علـي فـي حضنها بقوة، وهو لأول مرة يخاف وينكمش أكثر من القنفذ الصغير. أما عبد ا ، فقد ابتهل إلى ا أن يكـف الشـمس عنه، وأن يرزقه بالولد، وأن يصل دعاؤه من بـين أبـواب السماء، التي انتفحت بالغضب. وقال يا ربي ليس لي خطيئة واحدة تأخذها على. ودعت نعمة علـى عرفـة أن يمـوت، وعلى مصطفى أن ينسى. فزعت سعاد، فهرولت من فـوق سريرها، فاصطدمت بالطبلية، التي يقـرأ زوجهـا عليهـا القرآن، وسقطت على الأرض، فأصيبت جبهتها. سال الـدم وهي تزيد ضوء المصباح الغازي وتهتف في نفسها "أين أنت يا شيخ مسعود ...؟". ابتهلت أن يحفظه، وهي تدور فـي الغرفة مرتعشة مزعورة، تقول "اللهم اجعله خيرا، لا أم ولا أب لي ولا ولد". أدركت أنها أفاقت من حلـم جميـل كـان يرافقها فيه الغلام علي. وأيقن الجميع أن الحفل غضب.

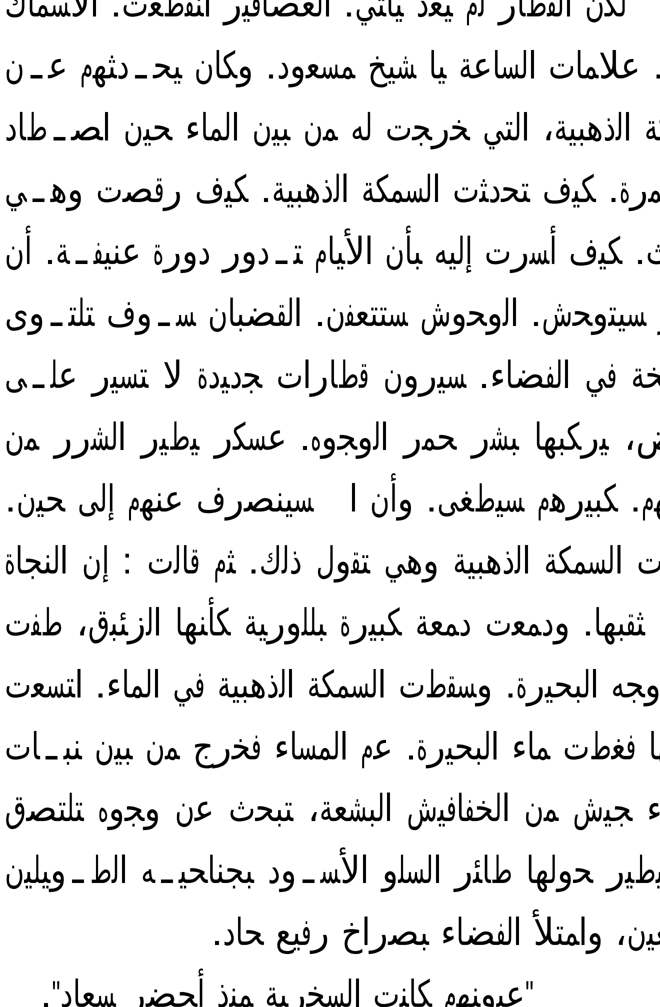
لكن أشواك البرد، كانت قد انهمـرت فـي الجـامع الصغير. وكان الدفء يملأ المكان، حتى أن الجـامع صـار صغيرا جدا حول الشيخ مسعود.

"يا نار كوني بردا وسلاما على المؤمنين".

هكذا كان يردد. اللهم أدفء قلوب عبيدك بالإيمـان. ونهض بعد أن أغلق كتابه بيمينه. يعلم السر وما أخفى، وهو علام الغيوب. وضع الكتاب في مخلاة قديمة، وعلقها علـى مسمار في الحائط. استعد ليؤذن الفجر.

دار في الجامع الصغير، شيخًا منحنيا تتهدل لحيتـه البيضاء، وتقاوم عيناه الضيقتان، النوم الثقيل. الوحل يا شيخ مسعود سيسد عليك الطرق. أنت ما تعودت أن تؤذن الفجـر في المسجد. دائما كنت تؤذن وأن تدور حول البيوت. ترجع الآذان أكثر من مرة. خيوط النهار كانت تقوى مع ترجيعك. آه. إنه الصيف. لكن أين هو ...؟ الشتاء هذا له طعم شرس. أقبل مبكرا فبدا كأنه يريد أن يغتصب الدنيا مـن الفصـول. وهذا الليل الثقيل، لن تتفتح أستاره عن كُوى الإشراق. حـين كانت روحك تبلغ أعلى عليين. تتعدى المقامـات. تتجـاوز البرازخ. تفنى. تأكل النار فلا تحرقك. لا يسـيل دم. يسـيل

رضابك باللبن والعسل. لا تـرى البيـوت ولا البحيـرة. لا الأرض ولا السماء. ولا ذلك الصياد الذي كنت تـراه كـل مساء في الأصيل، بعيدا بعيدا وسط الماء على زورق رفيع، فيبدو كعصفور وحيد. لا حركة القوارب المسائية حين يغيب الصيادون خلف النباتات، ينصبون شباكهم وأكياسهم السلكية، التي يتركونها حتى الصباح. ولا محطة السكة الحديد، ومـا أكثر ما رأيت من محطات في حياتك، ولا البلـوك شـحيح الضوء. يصبح الكون نورا على نـور. ينخطـف البصـر. يتركز في بعد سحيق باهر. يغمـرك النـور. تلحـق بسـر الأسرار. تنهار باكيا معفرا وجهك بالتراب. ضارعا، يا ولي النعم، خذني على جناح جبريل. أحبك يا سيدي. وترى سيدنا الخِضر يخاصمك. ينهرك. تسأله إلى أين تنتهـي الأمـور. يصرخ صهٍ. تصرخ يا أهل الحي صهٍ. يا حامد يا ولـدي لا تقنط من رحمة ا . يا عرفة يا ملعـون، أيغـرك شـاربك الأصفر، شعرك الأشقر، عيناك الخضروان، ارفع يدك عـن زيدان، إنني معك وحدي الآن، وا يراك دائمـا. اتركـوا الأولاد لا تخيفوهم. لا تجعلوهم مثلنا. وما عيبنا يا شيخ ...؟ أولاد زنا. جميعا أولاد زنا. إخص عليك شيخ ....



لكن القطار لم يعد يأتي. العصافير انقطعت. الأسماك ماتت. علامات الساعة يا شيخ مسعود. وكان يحدثهم عن السمكة الذهبية، التي خرجت له من بين الماء حين اصطاد آخر مرة. كيف تحدثت السمكة الذهبية. كيف رقصت وهي تتحدث. كيف أسرت إليه بأن الأيام تدور دورة عنيفة. أن الطير سيتوحش. الوحوش ستتعفن. القضبان سوف تلتوى صارخة في الفضاء. سيرون قطارات جديدة لا تسير على الأرض، يركبها بشر حمر الوجوه. عسكر يطير الشرر من عيونهم. كبيرهم سيطغى. وأن ا سينصرف عنهم إلى حين. رقصت السمكة الذهبية وهي تقول ذلك. ثم قالت : إن النجاة ضيقة ثقبها. ودمعت دمعة كبيرة بللورية كأنها الزئبق، طفت على وجه البحيرة. وسقطت السمكة الذهبية في الماء. اتسعت دمعتها فغطت ماء البحيرة. عم المساء فخرج من بين نبات الحلفاء جيش من الخفافيش البشعة، تبحث عن وجوه تلتصق بها، يطير حولها طائر السلو الأسود بجناحيه الطويلين الرفيعين، وامتلأ الفضاء بصراخ رفيع حاد.

"عيونهم كانت السخرية منذ أحضر سعاد".

ينقمون عليه زواجه بفتاة تصغره بكثير. وظلت عيونهم نهمة لزوجته الجميلة التي ملأت لياليه بالدفء والمتعة، يتضوع جسدها الأملس بعبير سرمدي الشذى. تدخل في صدره ناعمة كالمخمل. تتلوى. تسقيه شرابا طهورا بلسان عصفور صغير.

كم مرة وهو فوقها أحس بعيونهم حول الفراش. تحت الفراش. حتى حين يسري الدفء من بين فخذيه نارا إلى رأسه. حين يهتز طربا وجنونًا، وهو الشيخ العجوز، كان يرى عيونهم. لكن القدر صعب. كأنما تعلم الدين وتفقه، مرت عليه السنون، نضج، شاب، اكتهل، شاخ، عاش تجارب مرة وقوية، ليقع في النهار بين قوم كفار. قتلوه طوال الصيف المنصرم. قاوم كثيرا. لم يلفح.

- لقد تشردنا يا سيدنا.
- نحن نجوع.
- هل فينا بذرة نتنة لا نعرفها ...؟
- نحن بشر يا سيدنا.
- مؤمنون.
- نساؤنا عرايا.

- الأرض أكلت أقدامنا.

- القضبان شرخت أيدينا.

- الشمس أحرقت عيوننا.

- النساء أكلت أجسادنا.

- الأطفال أكلت أكبادنا.

صرخ :

- استغفروا ا . اذكروه يذكركم. قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا، يا اولاد الكلاب يا رمم، من رحمة ا !

صرخوا :

- إنهم يسرفون علينا.

رأى الدم يخرج من عيني أم جابر. عرف أنها تعد الأحجبة للنساء كي يعود القطار. قال في نفسه إنها البسوس ولا مزيد.

اتته نعمة تشكو انقطاع زوجها عن الطعام. قال :

- القلب يعرف وإن لم تر العين أحيانًا. عودي إلى زوجك ...!

نظرت إليه في دهشة. أفزعتها عيناه. قامت بعـد أن فهمت مغزى كلامه.

بعد أن خطت خطوتين راوغـت. التفتـت. قالـت باكية :

- أتطردني يا شيخ مسعود وأنا ابنتك ...؟

لم يتمالك نفسه. صرخ.

- أنت تفهمين يا قحبة، وهذا رأي ا فيك.

طأطأت رأسها. قالت :

- سامحك ا يا شيخ.

انصرفت. كان يشعر أنهـا تبتسـم. لعـن الزمـان الأخير.

جاءته زينب تشكو حامد. قالت : إنه يـنهض فـي منتصف كل ليلة ويخرج لا تعرف إلى أين ويعود مع الفجر أو بعده. قال :

- وما تفسيرك يا طيبة ...؟

قالت :

- أخشى أن يكون أصابه شيء. يقولون أن النـاس بعد انقطاع القطار صارت تمشي وهي نائمة.

ضحك. قالت :

- حلمت أن القطار سيخطفه. أخشـى عليـه مـن الخروج.

ربت على كتفها يدعو لها. قال :

- حين ينهض حامد انهضي. اسأليه إلى أين ...؟

انصرفت مكسورة الخاطر. هل جاءت ليقـول لهـا ذلك ...؟ كان يعرف أنها تقول لنفسها هذا. ود لو خاض مع حامد في تفصيل الأمر، لكنه كان يعرف أنه لا فائدة معـه. يراه كل يوم يتضاءل شيئًا فشيئًا. تهرب منه القوة. ينظر إلى عينيه نظرة تأنيب وحامد يزوغ ببصره في الفضـاء حتـى اختفى اليوم ولم يقل لأحد.

ود الشيخ مسعود لو يخرج إلى المنزل. لـن يـؤذن الفجر، وأجدى له أن يعود إلى سعاد. لابد أنها خائفة. لكـن الوحل صار بركًا في الخارج. الماء حاصر الجامع. الرعـد قوي. المطر غزير. تساءل هل كانت السمكة الذهبية حقيقـة أم وهما ...؟ أي قطار هذا الذي يسبب كل هذا الشـقاء ...؟ يقولون إنه قديم منذ أيام إسماعيل باشـا. لكنـه لا يصـدق. السمكة الذهبية قالت : إن الذي صنع القطار هو الحداد الذي

صنع صليب المسيح. القطار كان يأتي كل يوم جمعة. وغدا يوم جمعة. لكن المسيح لم يصلب. هل هي نقمة الحداد بعد اكتشاف الخدعة ...؟ أم نقمة اليهود ...؟! ورفع بعض الحصر. وضعها فوق بعضها. فتح صندوقًا قديما أخرج منه بعض أغطية. جعل يعد لنفسه فراشًا لينام الوقت القليل الباقي. استغفر ا لأنه لم يؤذن لأول مرة منذ وفد إلى هنا. بدأ النوم يزحف على جسده الضعيف.

تذكر عشرات الكتب الصفراء التي قرأها. كتب الدين والشعر والجِن والخيال. وأحباءه الذين خرج بهم من بين الموتى من البشر. لم يشأ أن يتذكر أحدا من الجن. إنه لا يحب من الأحياء الآن غير سعاد. ابنة أمير مكة التي عشقها الصابئ ابن عربي. تمنى لو عاش في عصر الرسول. لو كان سيفًا في صفوف الحسين العطشى. إنه يعيش في عصر السمكة الذهبية التي تتحدث. وأخذه فواق خفيف ثم سعل بقوة. ماذا كان العشاء. ...؟ قطعة من الجبن القريش. كوب من لبن الماعز. آخر شربة هي شربة لبن. ليتها قالت ذلك السمكة الذهبية. لكنها تحدثت عن شمس يجري خلفها الرجال

فلا يلحقون بها. صحراء واسعة تطويهم في بطنها. نيـران ومياه لا تطفئها. مدينة من زجاج.

- اسمعوا، آخر ما عندي لكـم. أنـتم لا تعرفـون الصبر ولا الجلد. اذهبوا إلى المفتش. ثم لماذا تعلقتم بالقطار هكذا ...؟

لم يرد أحد. في اليوم التالي سمع الأطفال يغنون "قال المفتش قاعد يفتش، على إيه يا حسرة ويهمه إيه!".

- إنه قطار كَنَسة!
- ولو. إنه لم يعد يأتي.
- ماذا تريدون بالضبط ...؟
- أن نعرف ما لهم ولم يفعلون هذا بنا.

إنه يعرف سِحنات أولاد الحرام. علمته السنون ذلك. هل يعقل أن عشرين دارا يسكنها أبناء الزنا ...؟!

في الأيام الأخيرة، سـألوا عـن معنـى قطـارات الخواجات. معنى القبلات خلف النوافذ. حكم ا فيهم. عـن الجيش الذي يمر في كل اتجاه. وكثـرت شـكاوى انقطـاع الدفق. امتناع الطمث. موت الدجاج. بكت بين يديه أم سميرة تسترحمه أن يعِد لها تعويذة تعيد خطيب ابنتها المسفر فـوق

القطارات بالليل والنهار. رق لحالها ولذلك المسفر كـالطير الغريب. قال لها التعويذة هي أن تنتظره عاما، وإن لم يعـد تتزوج غيره. قالت المرأة بانكسار :

- نحن أولاد أصل يا شيخ مسعود.

- الدنيا لا ترحم، ودوام الحال مـن المحـال، وا يغفر الذنوب جميعا، ثم إنه لا جناح عليكم.

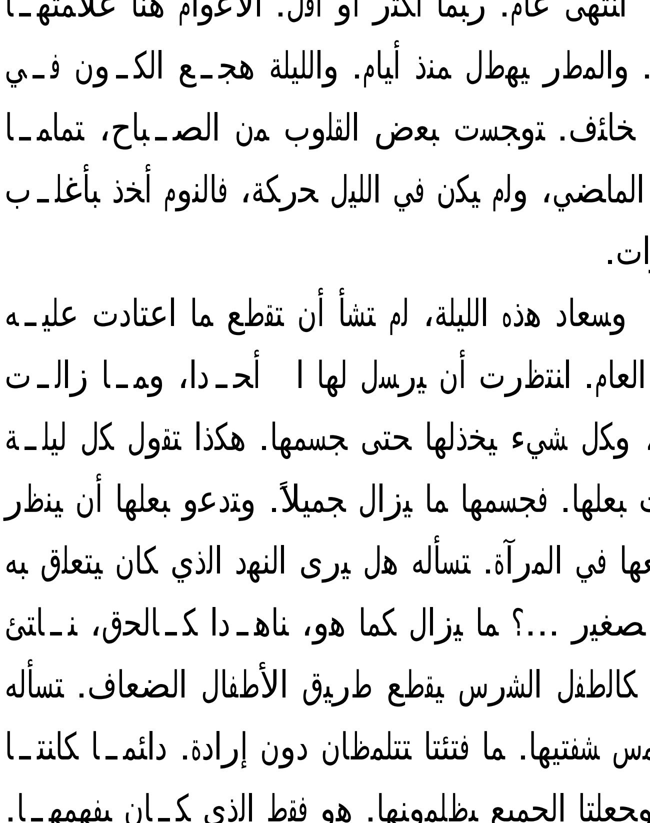
انصرفت وهو يعرف أنها لن تفعل ذلك. قـال فـي نفسه، آه من الذئاب ....! وتذكر أنه ترك المصباح مضـيئًا. قام ليخفض ضوءه. أحس بالعطش. حين كان يحس العطـش في منزله، كانت سعاد تسقيه الشراب الطهور. سينام ظمـآن الليلة. اخفض ضوء المصباح الغازي. عاد لينام. بعد أن لف نفسه بالغطاء بأحكام، تسللت إليه شفتا سعاد تحـت الغطـاء ابتسم في دعة. رأى دمعة على خدها. أفعى ترقص حولهـا. استعاذ با . قال : "يا ربي ألا أستحق منك غلامـا يحمـي ملاكي الصغير ...؟ يا ربي لماذا صار أبناؤك أشرارا ...؟" وحين تسلل ضوء الفجر منهكًا بعد رحلة طويلة في الظـلام الثقيل، كان الشيخ مسعود في نوم عميق. وكان قد رآه قبـل النوم، أسود سد باب الجامع وملأ الفضاء، أقبل وقد جحظت

عيناه بالدماء، وأغلق كفيه على عزم. وفي نفس اللحظة تذكر الشيخ مسعود أنه حدث زيدان عن السمكة الذهبية، قال فـي نفسه : "لماذا اخترت زيدان من بين الناس جميعا ...؟ ويـل لي وويل له". وركز عينيه بلا خوف على القـادم الأسـود. وبعد أن نام النوم العميق، الذي لم يكن يعرف أنه سيكون، لا هو ولا أحد، خرج القادم الأسود من الجامع وأغلق البـاب. أنهى ليلة، وابتدأ صباحا. وفي الصباح عرفوا جميعا، كيـف انتهت الليلة، وكيف بدأ يوم عودة القطار ....!

* * * *

التحولات

سعاد



انتهى عام. ربما أكثر أو أقل. الأعوام هنا علامتها المطر. والمطر يهطل منذ أيام. والليلة هجع الكون في صمت خائف. توجست بعض القلوب من الصباح، تماما كالعام الماضي، ولم يكن في الليل حركة، فالنوم أخذ بأغلب الحجرات.

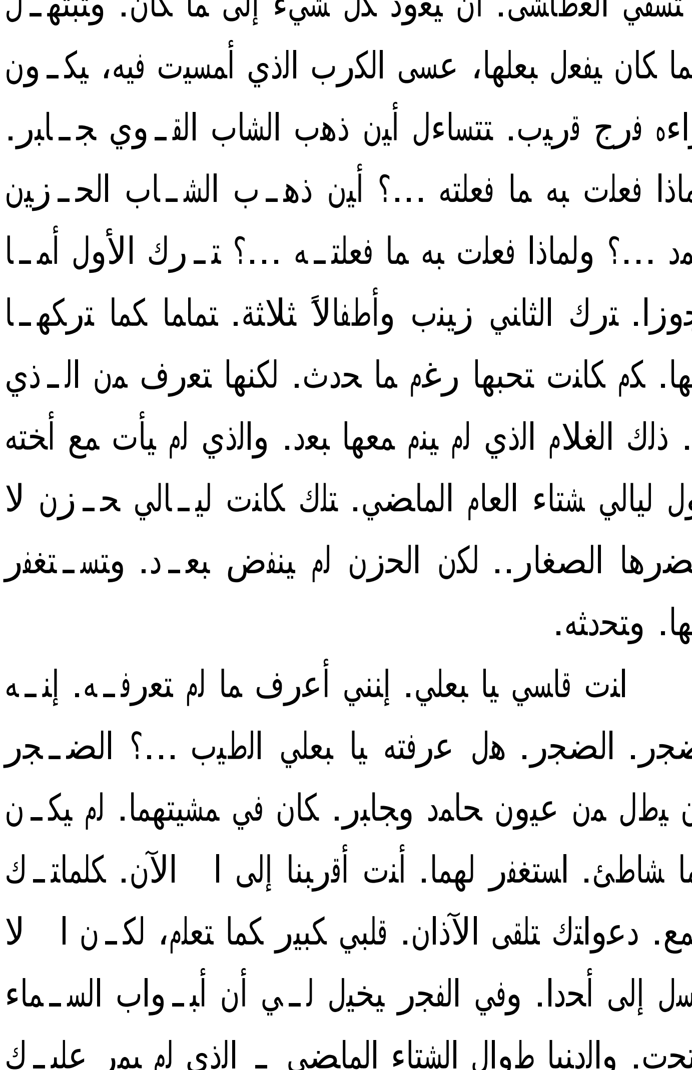
وسعاد هذه الليلة، لم تشأ أن تقطع ما اعتادت عليه طوال العام. انتظرت أن يرسل لها ا أحدا، وما زالت تنتظر، وكل شيء يخذلها حتى جسمها. هكذا تقول كل ليلة وتحدث بعلها. فجسمها ما يزال جميلاً. وتدعو بعلها أن ينظر إليه معها في المرآة. تسأله هل يرى النهد الذي كان يتعلق به كطفل صغير ...؟ ما يزال كما هو، ناهدا كالحق، ناتئ الحلمة كالطفل الشرس يقطع طريق الأطفال الضعاف. تسأله أن يتلمس شفتيها. ما فتئتا تتلمظان دون إرادة. دائما كانتا كذلك وجعلتا الجميع يظلمونها. هو فقط الذي كان يفهمها. لطالما قال لها، إنها جذوة العشق التي لا سبيل إلى إخمادها،

ولا سبيل لها على نفسها. جذوة العشـق لـم تـزل بطنهـا ضامرة. لم يزل ردفاها مكوران.

وها هي عارية تماما كما يحب منها أن تفعل. وهـو لا ينظر إليها الآن.

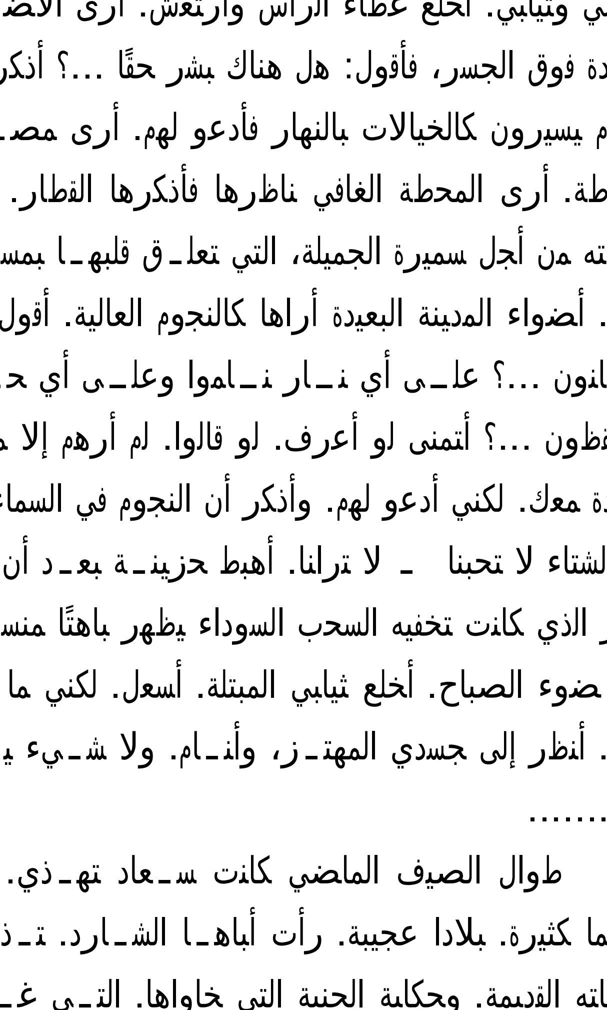
كل ليلة تتعرى سعاد وتقبل عليه. لكن السرير لم يعد عليه أحد. وهو لا شك يعرف ذلك. والجميع يعرفون ذلـك. وازداد خوفهم منها. لكنها تقيم طقوس الحب معه وحده. هكذا كانت. وهكذا هي. شاء أم لم يشأ.

أراد منها أن تكون كذلك. ولم يحاول مرة واحدة أن يعلمها آية من القرآن، الذي كان يحمله على صدره. كانـت تسمعه يقول، لو نزل القرآن على جبل لجعلـه دكـا ...! إن حمل القرآن ليس ميسرا للجميع. وهكذا حال الـدنيا، نـاس تحمل القرآن، وآخرون يحملون الأوزار. ولم تشك في لحظة أنه يقول ذلك بصدق. لكنها عينيها، لا يجب أن يلومها بعلها أبدا، صارتا متعبتين. جفنيها صارا أكثر وسنًا. ليس الوسـن الذي كان يحبه، إنما وسن الحزن المكين. ومنـذ مـات، ولا يدري أحد كيف مات، ولا كيف نام ذلك النوم العميق في تلك الليلة، وهي تصعد كل فجر ساعة الآذان، تبتهل إلى السماء،



أن تسقي العطاشى. أن يعود كل شيء إلى ما كان. وتبتهل مثلما كان يفعل بعلها، عسى الكرب الذي أمسيت فيه، يكون وراءه فرج قريب. تتساءل أين ذهب الشاب القوي جابر. ولماذا فعلت به ما فعلته ...؟ أين ذهب الشاب الحزين حامد ...؟ ولماذا فعلت به ما فعلته ...؟ ترك الأول أما عجوزا. ترك الثاني زينب وأطفالاً ثلاثة. تماما كما تركها بعلها. كم كانت تحبها رغم ما حدث. لكنها تعرف من الذي لها. ذاك الغلام الذي لم ينم معها بعد. والذي لم يأت مع أخته طول ليالي شتاء العام الماضي. تلك كانت ليالي حزن لا يحضرها الصغار.. لكن الحزن لم ينفض بعد. وتستغفر بعلها. وتحدثه.

انت قاسي يا بعلي. إنني أعرف ما لم تعرفه. إنه الضجر. الضجر. هل عرفته يا بعلي الطيب ...؟ الضجر كان يطل من عيون حامد وجابر. كان في مشيتهما. لم يكن لهما شاطئ. استغفر لهما. أنت أقربنا إلى ا الآن. كلماتك تُسمع. دعواتك تلقى الآذان. قلبي كبير كما تعلم، لكن ا لا يرسل إلى أحدا. وفي الفجر يخيل لي أن أبواب السماء انفتحت. والدنيا طوال الشتاء الماضي - الذي لم يمر عليك



ـ كانت تمطر على وحدي، ساعة كل فجـر، يبتـل فيهـا جسمي وثيابي. أخلع غطاء الرأس وأرتعش. أرى الأضـواء البعيدة فوق الجسر، فأقول: هل هناك بشر حقًا ...؟ أذكر أني أراهم يسيرون كالخيالات بالنهار فأدعو لهم. أرى مصـابيح المحطة. أرى المحطة الغافي ناظرها فأذكرها القطار. أدعو بعودته من أجل سميرة الجميلة، التي تعلـق قلبهـا بمسـافر فوقه. أضواء المدينة البعيدة أراها كالنجوم العالية. أقول ماذا يعـانون ...؟ علـى أي نـار نـاموا وعلـى أي حـزن يستيقظون ...؟ أتمنى لو أعرف. لو قالوا. لم أرهم إلا مـرة واحدة معك. لكني أدعو لهم. وأذكر أن النجوم في السماء ـ في الشتاء لا تحبنا ـ لا ترانا. أهبط حزينـة بعـد أن أرى القمر الذي كانت تخفيه السحب السوداء يظهر باهتًا منسـحبا أمام ضوء الصباح. أخلع ثيابي المبتلة. أسعل. لكني ما زلت قوية. أنظر إلى جسدي المهتـز، وأنـام. ولا شـيء يـأتي إلى ....

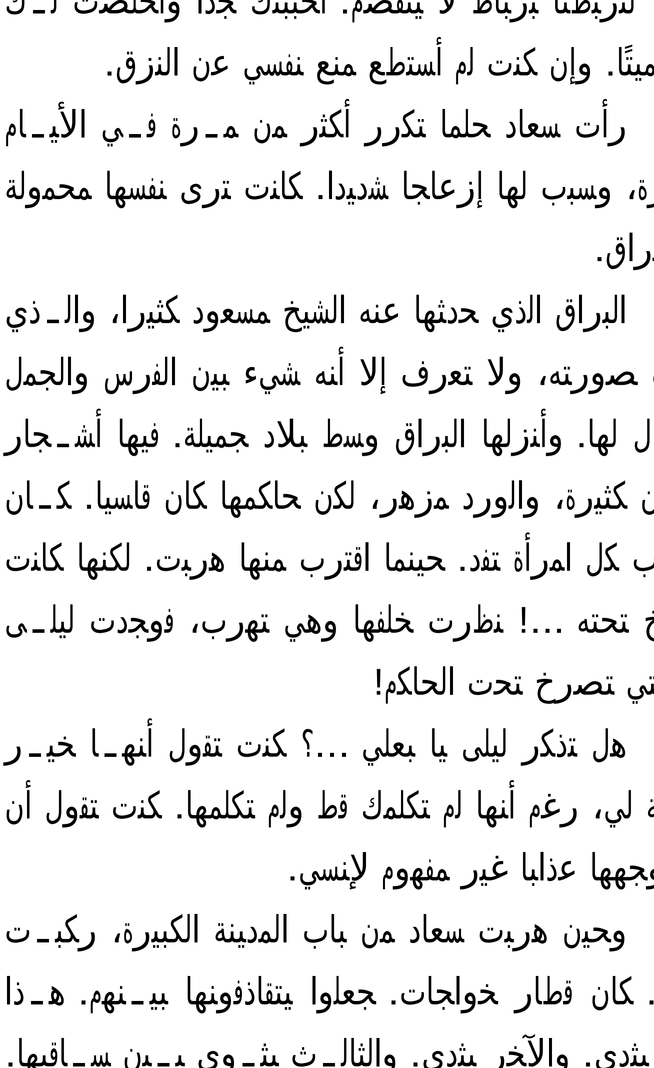
طوال الصيف الماضي كانت سـعاد تهـذي. رأت أحلاما كثيرة. بلادا عجيبة. رأت أباهـا الشـارد. تـذكرت حكاياته القديمة. وحكاية الجنية التي خاواها. التـي غـارت

منها أمها كثيرا. ورأت أباها يجوس بلادا من الطين والملح. يعاشر بشرا من الهواء والدخان. مسكين أبوها. منـذ شـرد شردت هي وأمها، التي رأتها تسير حافية فوق القضبان بين البلاد. القضبان والبلاد البعيدة. وفوق الترع وبـين القـرى تبحث عن رجل نسيت اسمه، لا تعرف عنه إلا أنه زوجهـا. وسعاد في يدها. تذكرها باسم أبيها فتنهرها. تكـذبها. حتـى التقيتا بالشيخ مسعود على رصيف محطة حزينة. تتذكر ذلك اللقاء الأول كل ليلة. كما تتذكره الآن. وتحدث بعلها :

أتذكر ...؟ إنها القضبان والبلاد البعيدة والمحطـات الغافية. كنا نائمين أنا وأمي على الأريكـة الخشـبية فـوق الرصيف. الرصيف القديم ذو البلاط المربع دائمـا. وجئـت أنت لتضع فوقنا غطاء كان لك، وأخذتنا في الصـباح إلـى دكانة الفول والشاي. دكانة مثل الدكاكين التي فوق الجسـر، التي نشتري منها أو نراها ونحن ذاهبات لشراء السمك حين لا يصطاد الرجال. الآن ومنذ غاب القطار نشتري السـمك من هناك ولا يصطاد الرجال ...! وزينـب صـارت تبيـع السمك مع امرأة اسمها أم هنية. تحكي زينب حكايات كثيـرة عن هنية وأمها. تقول : إنهما تعطفان عليها. وإنهـا حـين

ذهبت إلى الجسر حين نفدت النقود بعد اختفاء حامد، لتبحث عن عمل، نظرت هنية في عينيها وقالت لها أنهـا تعرفهـا. وزينب لم تقل حتى الآن، لماذا كانت تعرفها هنيـة. لكنهـا تعمل وتظل أم جابر تنتظر جالسة بالأطفال. لم تعد زينـب حزينة. ولم تصبح سعيدة. أصبحت كالآيات الكثيـرة التـي علقتها على الجدران، والتي لم تزل كما هي لم أنزعها.

أتذكر يا شيخ مسعود، حين اطعمتنا في دكانة الفـول والشاي ...؟ أتذكر كيف كانت نظراتـك إلـى ...؟ نظـرة واحدة، وأصبتَ مني القلب وأنت الرجل الذي كـان كهـلاً وقورا ...؟ وأخـذتني وأمـي إلـى المـأذون. تزوجتنـي وأحضرتني إلى هنا. وتركت أمـي هنـاك. لمـاذا فعلـت ذلك ...؟ أين أمي الآن ...؟ لقد أعطيتها الغطاء. قلـت لهـا سنعود إلى زيارتك. ولم نعد.. لم يكن قد بقى لأمـي مكـان ثابت.. كنا مشينا بلادا كثيرة نبحث عن أب خاوى جنية. ولم أعد أسمع شيئًا عنها. لكني رأيت وجهها كثيرا هـذا العـام. أبيض مشرقًا. كانت دائما تأتيني ميتة رغم بيـاض الوجـه وإشراقه. لكني أحببتك جدا إذ بدا أن الحياة تأخـذ كـل مـا



حولنا، لتربطنا برباط لا ينفصم. أحببتك جدا وأخلصت لك حيا وميتًا. وإن كنت لم أستطع منع نفسي عن النزق.

رأت سعاد حلما تكرر أكثر من مرة في الأيام الأخيرة، وسبب لها إزعاجا شديدا. كانت ترى نفسها محمولة على براق.

البراق الذي حدثها عنه الشيخ مسعود كثيرا، والذي تعرف صورته، ولا تعرف إلا أنه شيء بين الفرس والجمل كما قال لها. وأنزلها البراق وسط بلاد جميلة. فيها أشجار الليمون كثيرة، والورد مزهر، لكن حاكمها كان قاسيا. كان يغتصب كل امرأة تفد. حينما اقترب منها هربت. لكنها كانت تصرخ تحته ...! نظرت خلفها وهي تهرب، فوجدت ليلى هي التي تصرخ تحت الحاكم!

هل تذكر ليلى يا بعلي ...؟ كنت تقول أنها خير صديقة لي، رغم أنها لم تكلمك قط ولم تكلمها. كنت تقول أن فوق وجهها عذابا غير مفهوم لإنسي.

وحين هربت سعاد من باب المدينة الكبيرة، ركبت قطارا. كان قطار خواجات. جعلوا يتقاذفونها بينهم. هذا يتعلق بثدي. والآخر بثدي. والثالث يثوي بين ساقيها.

انتفضت من بينهم هاربة. التفتت وهي تجري فرأت ليلى هي التي ترقد مغلولة بينهم. صرخت فيها سعاد أن تحترس، فلم ترد.

"إنها حزينة يا بعلي فحبة العين مات."

فريد الذي كنتَ تقول لي أنه "في حالِه" وأنه مثقف. وأنك رأيت مرة عينيه تحت نظارته، فرأيت فيهما جذوة الذكاء. فريد الذي قلت لي أنه برغم كبرياء أبيه الكاذب، فهو متواضع رغم أنه لا يكلم أحدا. ظلت ليلى تحبه وهو لا يتكلم. قالوا عني أني عشيقته. قلت لي أنت أنك لا تصدق أحدا لأنك تعرف أني جذوة العشق التي لن يطالها أحد. وأخبرت ليلى بالحقيقة فبكت في صدري. الحقيقة التي يعرفها الجميع، أني مثلهم لا يكلمني فريد. فاطلب لي الغفران إن كنت أخطأت أو كذبت. إنك أقربنا إلى ا وتجد حولك آذانا تسمعك! واطلب من فريد أن يغفر لي إذا كان الموت قد جاء بسببي. أنا لا زلت أذكر السؤال الذي سألك. حين قال لك : "ألا يوحي إليك هذا المكان بشيء ...؟" ولم ترد. ثم قال لك : "ما معنى أن نعيش هنا بين مياه البحيرة والصحراء والقطارات تمر علينا فلا نختار من بينها إلا قطار

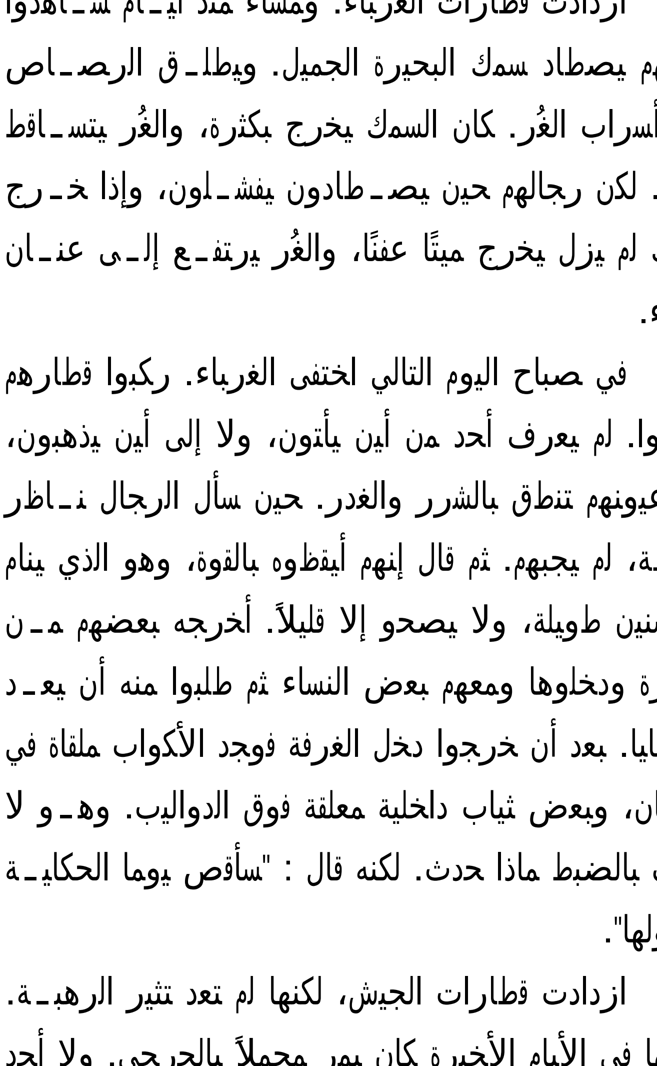
الكَنَسة ...؟" وقال لك : "تخيل أن الصحراء بشمسها عقـدت اتفاقًا مع البحيرة بمائها العفـن الثقيـل. أي نـار وطوفـان سيكونان ...؟ "وقال لك : "أنا يا عمي لذلك لا أحدث أحـدا". ولم تفهم أنت كما قلت لي. لكنك عدت فرحا لأنه قال لـك : "يا عمي..!". وبت تسألني إن كنت أفهم معنى لهذا الكـلام، فقلت لك أن العِلم أحيانًا يجِن، فطلبت مني يومها أن أقـص عليك آخر حكايات النساء والرجال. كنت تعرف أني أدخـل كل بيت. إن كل بيت ينفتح لي على خوف، وينغلـق خلفـي على حسد أو شجار. وتقول لي "لا تتصوري أبدا أني سأغار عليك. إني أعرف معدنك وأثق فيك. لقد قـال لـي سـيدنا الخضر أن أتركك كما تبتغين لأنك جذوة العشق التـي لـن ينالها".

ها أنذا على العهد. لكني لم أكن أعرف أني سأسبب كل هذا العذاب لحامد وجابر وفريد.

قررت سعاد أن تترك المرآة، فدموعها وصلت إلـى قدميها، وتصعد جوار بعلها فوق السرير! تقبله وتقول له أن الحكاية بدأت منذ صباح تلك الليلة التي قالوا فيها أن القطار سيجيء في غدها ...! والتي رقصت فيه رقصا كـالنيران،

ورقصت فيها ليلى معها، وغسلتا سيقانهما في ماء البحيـرة، وجاء الغلام علي ليصطحب أخته إلى البيت. رأته في تلـك اللحظة يتجه لأن يكون رجلاً. لم تقل له، وحتى الآن لم تقل له، وهو يكبر أمام عينيها كل يوم، وترى في عينيه ضجرا، أو شراسة، أو ذكاء.

منذ تلك الليلة وذلك الصباح - حين وجدوا الشـيخ مسعود ميتا ووحيدا في الجامع وطينًا كثيرا في فمه وآثـارا سوداء على وجهه - وحتى الآن لا يعرفـون، ولا تعـرف، كيف جاء الطين إلى فمه. من الذي وضعه ولماذا ...؟ وهي منعوها أن تراه وهو مسجى تحت الملاءة البيضـاء. كانـت تريد أن تحضر الغسل. أن تُغسله بنفسها. تنام معه وتطهره. لكنهم قالوا أن غسل الرجال عمل الرجال. لطمـت خـديها ونسيت أنه قال لها أن ذلك حرام. ندبتـه كمـا لـم تنـدب الندابات. نسيت أنه قال لها أن ذلك عذاب للميت لا يحتملـه. والآن تشعر أن كل شيء خذلها. حتى المطر الذي ينسـكب كثيرا، وهي تصعد فوق السطح، لم يفتك بصدرها. ولم يعـد القطار ولا الغُياب.



ازدادت قطارات الغرباء. ومساء منذ أيام شاهدوا بعضهم يصطاد سمك البحيرة الجميل. ويطلق الرصاص على أسراب الغُر. كان السمك يخرج بكثرة، والغُر يتساقط بكثرة. لكن رجالهم حين يصطادون يفشلون، وإذا خرج السمك لم يزل يخرج ميتًا عفنًا، والغُر يرتفع إلى عنان السماء.

في صباح اليوم التالي اختفى الغرباء. ركبوا قطارهم ومضوا. لم يعرف أحد من أين يأتون، ولا إلى أين يذهبون، لكن عيونهم تنطق بالشرر والغدر. حين سأل الرجال ناظر المحطة، لم يجبهم. ثم قال إنهم أيقظوه بالقوة، وهو الذي ينام منذ سنين طويلة، ولا يصحو إلا قليلاً. أخرجه بعضهم من الحجرة ودخلوها ومعهم بعض النساء ثم طلبوا منه أن يعد لهم شايا. بعد أن خرجوا دخل الغرفة فوجد الأكواب ملقاة في الأركان، وبعض ثياب داخلية معلقة فوق الدواليب. وهو لا يعرف بالضبط ماذا حدث. لكنه قال : "سأقص يوما الحكاية من أولها".

ازدادت قطارات الجيش، لكنها لم تعد تثير الرهبة. بعضها في الأيام الأخيرة كان يمر محملاً بالجرحى. ولا أحد

يخرج إليها إلا الولد على، الذي جاء منذ يومين ليقول لسعاد، وكانت ليلى معها، أنه صعد القطار، وشاهد الجرحى. وأنهم فرحوا به كثيرا. وقالوا له "يا علي لا تندهش. نحن نعـرف اسمك. قل للأطفال إننا عائدون من أركان الأرض الأربعة. إننا حاربنا في بلاد السود والبيض والحمر والصفر، وضـد كل المال والأديان والحكومات والشعوب حتى كرهنا الجميع لأننا عجزنا عن أن نقول لأحد لماذا نحارب ...؟"

حفظ على العبارة الطويلة. وسـأله الجنـد إذا كـان يستطيع أن يعيدها عليهم فرددها أمامهم، وعاد ليقولها لسعاد وليلى ثم الأطفال كأغنية منظمة. لكنه كان يضـرب جبهتـه بكفه، ويقول لماذا لا أفهم معنى هذا الكلام ...؟ سأل سـعاد وليلى إن كانتا تفهمانه، لكنهما لم تفهماه. قبلته ليلى، ثم قبلته سعاد. حين قبلته وجدت خده دافئًا. اضطرب الغلام، أما هي فقد تزلزلت.

كانت سعاد قد صعدت فوق السرير. وقالت لبعلهـا أنها ستسقيه من شرابها الطهور الآن. ثم قالت له باختصـار ما مرت به الأيام..

قد وجدوا الجندي عرفة بعد موت فريد جالسا فـوق مقعد المحطة، وفأس في رأسه شقته نصفين، وثُبتَتْ بينهمـا، والدم قد أغرق وجهه وثيابه. وقالوا وهم يضـحكون : "إنـه كان جالسا جلسة معلم..!"

أما المفتش فقد رحل بعد موت فريـد. رأوه يمـزق ملابسه الرسمية ويبكي صارخًا ويقول : "الحكومـة قتلـت ابني" ولم يندهش أحد لكلامه. بل كانت الدهشة كبيرة حـين رأى الناس أثاث منزله وهو فوق عربة صغيرة. كان هنـاك سرير وأريكة ومنضدة مكسورة وحصـير ومقعـد بـثلاث أرجل. قال الناس أنه كان يضيع نقوده على الأفيون. وسارت العربة يجرها حمار مريض، يقوده حوذِي أبلَه، خلفها المفتش يجري ويجرجر زوجته زائغة العينين.

وآخر ما حدث كان حضور خواجة طويل عـريض بالمساء، له شارب أصفر خفيف، قال كمن بيـده الأمـر "لا تحزنوا سيأتي القطار غدا الجمعة. وسيأتي معه كـل شـيء حتى مرسي خطيب سميرة" ... قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة غريبة. وتعجب الناس كيف عرف ذلك. لكن ليلى قالت له : "أنت كذاب. فريد قال أن القطار لن يعود" .. وقام الولد علي

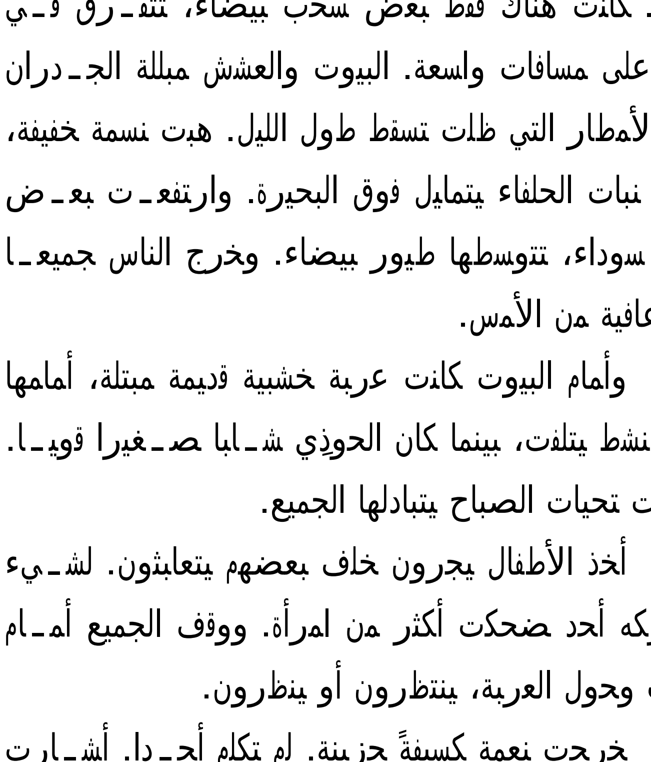
وقال له : "أنت كذاب" وهتف والأطفـال وراءه : "الكـذاب أهه" .. وطاردوا الخواجة وهم يهتفـون بـذلك، ويقذفونـه بالأحجار، حتى وصل إلى المحطة حيث كان ينتظره. لكـن بعد قليل تردد بين النساء أن الرجال علموا بمجيء القطار.

لم تستطع سعاد أن تذكر لبعلها أكثر من ذلك. قالـت له : ربما غدا تستطيع أن تحدثه أكثر. فحديثها له كل وقـت صلاة. ثم قالت بصوت مسموع : "دعني أحدثك عن شعوري الذي لا يخيب كما قلت لي دائما. إن لم يكن قبل عام، ففـي نهايته، سيرسل لي ا أحدا من عنده، لأن ا لا يمكـن أن يتأخر أكثر من عامين. أليس كذلك يا بعلي الطيـب. ألـيس كذلك يا شيخ مسعود ...؟"

استدارت تلتف حول زوجها الذي مات. دفنت وجهها في الوسادة فوق وجهه.

* * * * * *

زيدان



انجلى الليل عن نهار رائق، خلت فيه السماء من الغيوم. كانت هناك فقط بعض سحب بيضاء، تتفرق في خجل على مسافات واسعة. البيوت والعشش مبللة الجدران بفعل الأمطار التي ظلت تسقط طول الليل. هبت نسمة خفيفة، جعلت نبات الحلفاء يتمايل فوق البحيرة. وارتفعت بعض طيور سوداء، تتوسطها طيور بيضاء. وخرج الناس جميعا أكثر عافية من الأمس.

وأمام البيوت كانت عربة خشبية قديمة مبتلة، أمامها حمار نشط يتلفت، بينما كان الحوذِي شابا صغيرا قويا. وسمعت تحيات الصباح يتبادلها الجميع.

أخذ الأطفال يجرون خلف بعضهم يتعابثون. لشيء لا يدركه أحد ضحكت أكثر من امرأة. ووقف الجميع أمام البيوت وحول العربة، ينتظرون أو ينظرون.

خرجت نعمة كسيفةً حزينة. لم تكلم أحدا. أشارت إلى الحوذِي، فاتجه إليها ودخل معها إلى المنزل، ثم جعلا

ينقلان الأثاث القديم. ساعدهما عبد ا وزوجته واشـتركت مع الجميع سعاد. لم يكن أي منهم يتكلم. ولم ينتبهـوا إلـى وجود زيدان في المنزل.

كان مقعيا في ركن من الحجرة الداخلية. وبعـد أن امتلات العربة، وانتهى نقل الأثاث، وقفـت نعمـة تنتظـره وطفلاها جوارها. لم يكن أحد يعرف أن زيدان بات الليلة في منزله. إنهم يعرفون فقط أنه مهاجر إلى الصحراء والبحيرة.

قال الحوذِي :

- نتحرك ...؟

قالت نعمة :

- لحظة ليأتي الرجل.

نظر إليها عبد ا . قال :

- زيدان بالداخل ...؟

أشارت أن نعم فتوجه إلى المنزل. وحين رأى زيدان في ركن الحجرة، تعجب كيف لم يره من قبل وهـو ينقـل الأثاث.

كان زيدان شاحب الوجه، كثيف الذقن، زائغ العينين. مد إليه عبد ا يده دون كلام. لم يتحرك زيدان. تقدم عبد ا منه.

- انهض يا زيدان.

لم يرد زيدان. لم ينهض.

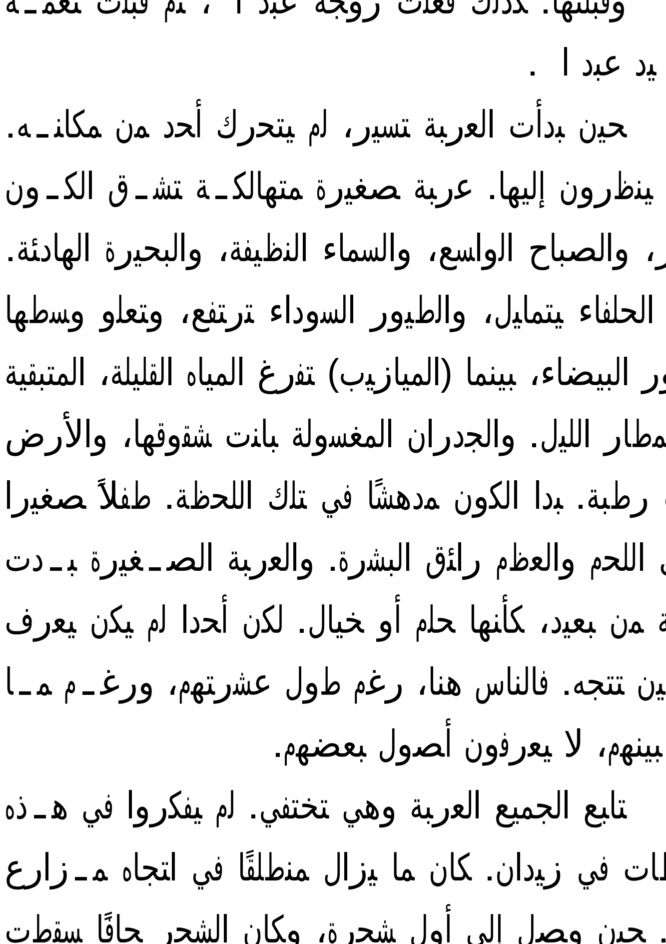
أمسك عبد ا بذراعه برفق. قام زيدان يتلفت خائفًا.

- لا حول ولا قوة إلا با . هيا يا ولدي.

خرج ويد زيدان في يده. جميع أهل البيوت ينظرون إلى زيدان في حزن. سار زيدان بينهم صامتًا. كانوا صامتين. لا يعرف أحد فيم فكروا في تلك اللحظة. لكن الذي كان واضحا على وجوههم، أنهم جميعا خائفون!

حين وصل زيدان إلى العربة، نظر خلفه للحظة، ثم نظر إلى زوجته وطفليه. نظر بعد ذلك إلى جميع الأطفال، وانطلق يعدو. جرى وراءه بعض الأطفال يقذفونه بالحجارة. سالت دموع نعمة. كانت دموعا ثقيلة ساخنة مالحة. تحفر طريقها بتأنٍ، فوق وجنتيها وخديها. قالت سعاد بألم :

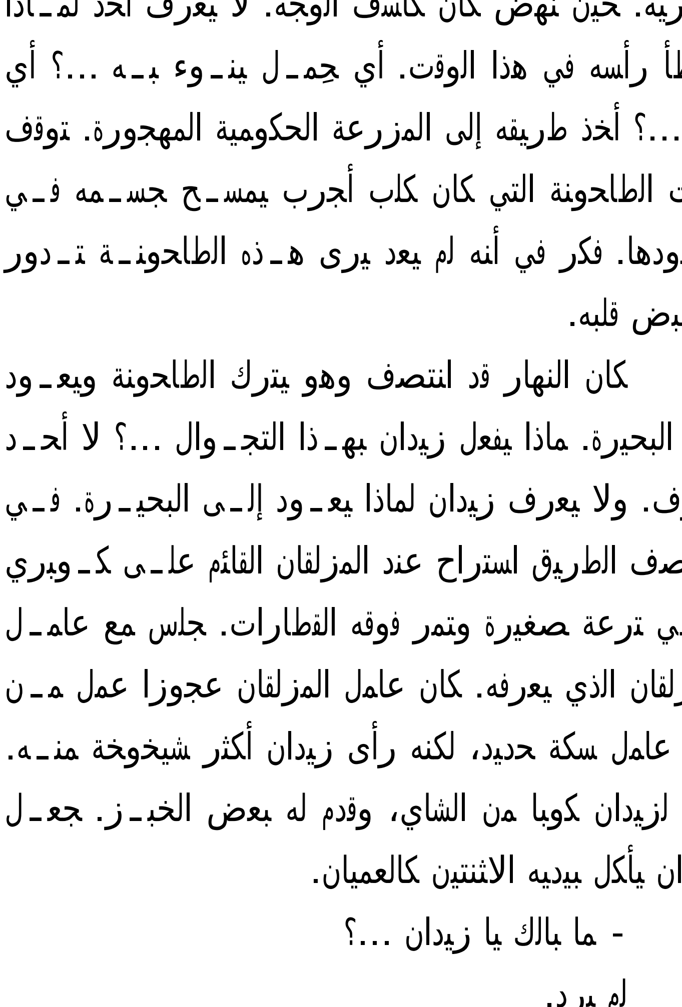
- اهتمي بالطفلين يا نعمة.



وقبلتها. كذلك فعلت زوجة عبد ا ، ثم قبلت نعمـة ظهر يد عبد ا .

حين بدأت العربة تسير، لم يتحرك أحد من مكانـه. كانوا ينظرون إليها. عربة صغيرة متهالكـة تشـق الكـون الكبير، والصباح الواسع، والسماء النظيفة، والبحيرة الهادئة. نبات الحلفاء يتمايل، والطيور السوداء ترتفع، وتعلو وسطها الطيور البيضاء، بينما (الميازيب) تفرغ المياه القليلة، المتبقية من أمطار الليل. والجدران المغسولة بانت شقوقها، والأرض كانت رطبة. بدا الكون مدهشًا في تلك اللحظة. طفلاً صغيرا طري اللحم والعظم رائق البشرة. والعربة الصـغيرة بـدت جميلة من بعيد، كأنها حلم أو خيال. لكن أحدا لم يكن يعرف إلى أين تتجه. فالناس هنا، رغم طول عشرتهم، ورغـم مـا وحد بينهم، لا يعرفون أصول بعضهم.

تابع الجميع العربة وهي تختفي. لم يفكروا في هـذه اللحظات في زيدان. كان ما يزال منطلقًا في اتجاه مـزارع التين. حين وصل إلى أول شجرة، وكان الشجر جافًا سقطت أوراقه، والأرض مبللة، أحس زيدان أن الصباح متسع لـه، وأنه الوحيد في الكون كله، وأغفى جوار الشـجرة الواطئـة



العارية. حين نهض كان كاسف الوجه. لا يعرف أحد لماذا طأطأ رأسه في هذا الوقت. أي حِمل ينوء به ...؟ أي هم ...؟ أخذ طريقه إلى المزرعة الحكومية المهجورة. توقف تحت الطاحونة التي كان كلب أجرب يمسح جسمه في عامودها. فكر في أنه لم يعد يرى هذه الطاحونة تدور وانقبض قلبه.

كان النهار قد انتصف وهو يترك الطاحونة ويعود إلى البحيرة. ماذا يفعل زيدان بهذا التجوال ...؟ لا أحد يعرف. ولا يعرف زيدان لماذا يعود إلى البحيرة. في منتصف الطريق استراح عند المزلقان القائم على كوبري يغطي ترعة صغيرة وتمر فوقه القطارات. جلس مع عامل المزلقان الذي يعرفه. كان عامل المزلقان عجوزا عمل من قبل عامل سكة حديد، لكنه رأى زيدان أكثر شيخوخة منه. أعد لزيدان كوبا من الشاي، وقدم له بعض الخبز. جعل زيدان يأكل بيديه الاثنتين كالعميان.

- ما بالك يا زيدان ...؟

لم يرد.

- أما زلتم في الغم الأزلي. لماذا يا ولـدي ربطـتم حياتكم بالقطار ...؟

لم يتكلم زيدان.

- يا ولدي هذا زمن آخر. ألا ترى القطارات التـي تمر من هنا ...؟ ألا ترى قطارات الخواجات يا ولدي. تماما كالزمن القديم، حين كنت في سِـنك، وكنـت أعمـل علـى مزلقان، تمر عليه قطارات الحلفاء أيام الحرب. إيه.. الـدنيا تلف وتلف، وتعود يا ولدي إلى أصلها.

- يقولون أن الدنيا هذه يحملها ثـور علـى قرنـه. وحين يتعب ينقلها على القرن الثاني. وحين ينقلها تتزلـزل. لكن الدنيا لم تتزلزل، والثور يعيدها إلى القـرن الأول هـذه الأيام!

ضحك العجوز. فرح العجوز، فزيدان يتكلم أخيـرا، ولم يفهم العجوز!

- يا ولدي، عقلك رأسمالك. لا قرن هناك ولا ثور. الدنيا هذه لا يفهمها أحد – فكر العجوز قليلاً وبدا كمن فهـم شيئًا – من كان يصدق أن كل شيء يعود إلـى أصـله ...؟

أستغفر ا . لم يكن الأصل هكذا قط لكنكم على كـل حـال مخطئون.

- خانتني. قتلتني.

ربت العجوز على ظهره.

- في النهاية هي امرأة. وربما لم تخنك. أنت تستمع إلى كلام الناس. طيب، أنا أعرف كل بيت وما يحدث فيـه. الشرطة كانوا يأتون هنا، يجلسون عندي، ويتحـدثون. عـد إليها يا زيدان.

- لا.. أنا مخاوي.

فوجئ الرجل. توقف عن احتساء الشاي.

- ماذا ...؟

مخاوي.

- مخاوي ماذا ...؟

- جنية. هل يخاوي الإنسان غير الجن ...؟

ابتسم الرجل. استمر زيدان.

- كنت اعتدت أن أصطاد السمك عصر كل يوم كما تعرف. منذ مغيب القطار والسمك يخـرج ميتًـا. فـي أول الشتاء الماضي كنت زهقت من أفعال الناس وكلامهم. وأنـا

قلت كلاما لم يفهموه. وقلت أن القطار لن يأتي فسخروا مني. كان عرفة يأتي إلى منزله كل ليلة. لكن مات الشيخ مسعود. ثم فريد. ثم عرفة. – وتوقف قليلاً – فقررت أن أصطاد بالليل. قلت قد يكون سمك الليل حيا. قد تحدثني السمكة الذهبية عن كيفية موت هؤلاء جميعا. السمكة الذهبية هذه سر، لم يطلع الشيخ مسعود أحد عليه غيري. لكن الذي حدث أني لم أصطد شيئًا. جعلت أحدث البحيرة ثم قمت أتبرز بعد حديث طويل. فجأة شدني شيء من أسفل الماء. غصت. رأيت تحت الماء قصرا أحمر فيه جنية جميلة. غسلتني بماء أزرق. ألبستني ثوبا أصفر. طلبت مني أن أنكحها في فمها. الجنيات ليس لهن فروج. ونكحتها. كنت أسمعها تتنفس من أنفها وتغط. صعدت إلى الماء بالثوب الأصفر. حين عدت قالوا عني مجنون. منذ ذلك اليوم وأنا هارب. بالأمس فقط عدت إلى البيت لأني حين هبطت الماء لم أجد شيئًا. رحلت الجنية. أنا في انتظار رسالة منها لأعرف مكانها الجديد. وحتى تأتيني الرسالة سأدور وراءها الدنيا كلها.

- اشرب الشاي يا ولدي..

لم يجد العجوز شيئًا يقوله غير ذلك. جعـل زيـدان يحتسي الشاي بينما قام العجوز ليغلق بوابة المزلقان، حـين رأى السيمافور البعيد منخفضا علامة على قدوم قطار:

حين عاد لم يجد زيدان. توقف لحظة متأملاً. تلتفـت حوله. رفع عينيه إلى السماء. قال في نفسه "بعـد أن كنـت أفعل هذا مرتين كل يوم، أفعل كل نصف سـاعة الآن. مـا أكثر القطارات. جيوش قديمة وجيوش جديدة. جرحى قدامي وجرحى جدد. وخواجات في كل العصـور. الرحمـة مـن عندك. ما دائم إلى وجهك. وما يبقى خلاف جلالـك. الكـل يخاوي في هذا الزمان! ...."

* * * * * *

علي

لم يحب أن يرى مشهد رحيل أسرة زيـدان. حـين رحلت أسرة المفتش في منتصف الشتاء الماضـي، أمضـت ليلى الليل باكية جواره. وهو يعرف أنها لن تبكـي اليـوم. لكنها صارت تحب الانفراد بنفسها كثيرا تقرأ فـي وريقـات مهترئة.

لا يعرف سر هذه الوريقات. حاول سرقتها أكثر من مرة. لكنها كانت دائما تضعها فوق صدرها، وتحت جلبابها. كل ما عرفه أنها وريقات أعطاها لها فريد. ومذ وجدوا فريد مقتولاً فوق القضبان، وليلى تقرأ، وحين تنفرد بنفسها تبكي. ظل ليالي طويلة يسمعها تحدث نفسها : "قتلوه. قالوا صعقته الكهرباء. قالوا سلك كهربائي سقط فوقه. لكـنهم كـذابون. كذابون".

حين خرج يتفرج على رحيل المفتش وأسرته، تذكر أن ليلى بالمنزل وجدها تبكي. ترك المنطقـة وسـار إلـى الجسر. قابلته شابة سمراء. أمسكته من خُناقه :

- ماذا جاء بك إلى هنا ...؟

- ولماذا لا آتي ...؟

وحاول التخلص منها.

- أنت من هناك ...؟

- أجل.

كانت قد أشارت إلى موقع منازلهم. قالـت : وهـي تجره إلى الخص البوص :

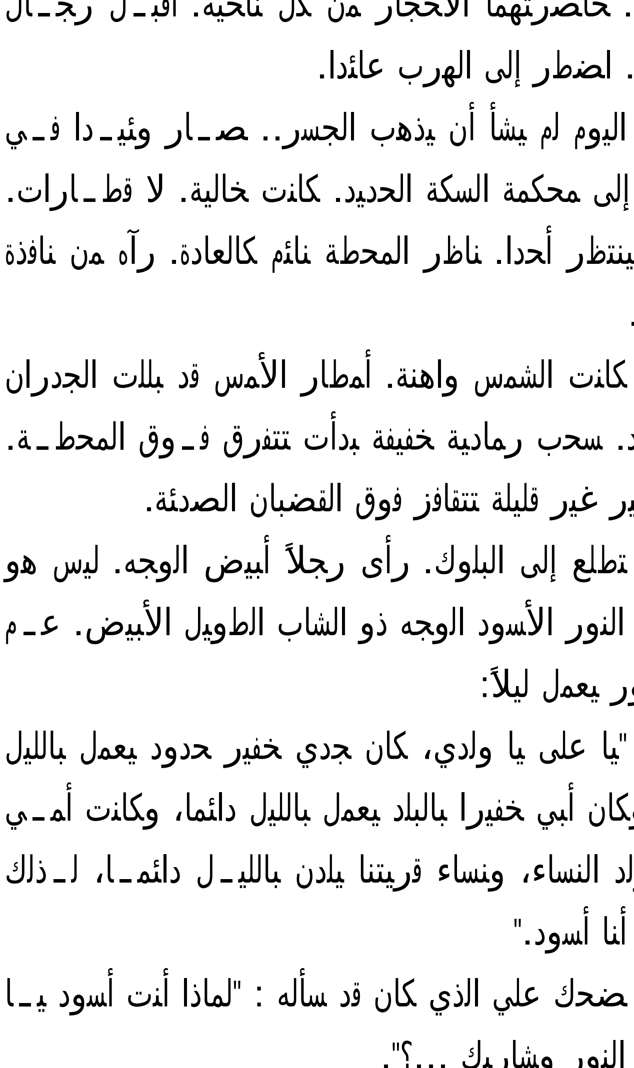
- قل لي وإلا قتلتك. أين اختفى حامد ...؟

- لا أحد يعرف.

تعجب لماذا تسأله عن حامد وهل تعرفه ...؟ تـذكر أنه سمع سعاد تحدث ليلى عن شكوى زينب للشيخ مسـعود من خروج حامد في الليل وتأخره في الخارج.

- اذهب إذن إلى أمك.

صفعته على وجهه. اشـتعلت النـار فـي جسـمه الصغير. قفز وصفعها بقوة لم يكـن يعـرف أنـه يملكهـا، فسقطت فوق الأرض. صرخت صرخة قوية، فأقبلت أمهـا في يدها عصا ضخمة. جرى من أمامها بسرعة. توقف على مسافة غير بعيدة. أمسك بالأحجار وجعل يقذفهما بها. جعلا



يولولان. حاصرتهما الأحجار من كل ناحية. أقبل رجال كثيرون. اضطر إلى الهرب عائدا.

اليوم لم يشأ أن يذهب الجسر.. صار وئيدا في الفضاء إلى محكمة السكة الحديد. كانت خالية. لا قطارات. لا أحد ينتظر أحدا. ناظر المحطة نائم كالعادة. رآه من نافذة الحجرة.

كانت الشمس واهنة. أمطار الأمس قد بللت الجدران والمقاعد. سحب رمادية خفيفة بدأت تتفرق فوق المحطة. وعصافير غير قليلة تتقافز فوق القضبان الصدئة.

تطلع إلى البلوك. رأى رجلاً أبيض الوجه. ليس هو عم عبد النور الأسود الوجه ذو الشاب الطويل الأبيض. عم عبد النور يعمل ليلاً:

"يا على يا ولدي، كان جدي خفير حدود يعمل بالليل دائما، وكان أبي خفيرا بالبلد يعمل بالليل دائما، وكانت أمي قابلة تولد النساء، ونساء قريتنا يلدن بالليل دائما، لذلك خرجت أنا أسود."

ضحك علي الذي كان قد سأله : "لماذا أنت أسود يا عم عبد النور وشاربك ...؟".

وكان ذلك منذ أربع سنوات. ضحك الأطفال الـذين معه، ولم يغضب عم عبد النور بل قال أيضا :

- "هذا عن لوني الأسود. وأبوك يحدثك عن الشارب الأبيض".

لكن علي لم يسأل أباه. نظر فقط إلى شاربه الأبيض. نظر إلى وجه الشيخ مسعود الأحمر فوجد شاربه أبيض. فكر أن يسأله، فهو يجيب الناس، لكنه لم يفعل. وضاع السؤال من ذهنه، كما ضاعت القنافذ من حياته. أصبح قـديما كالصـدأ الذي صار يعلو بطاريته الآن.

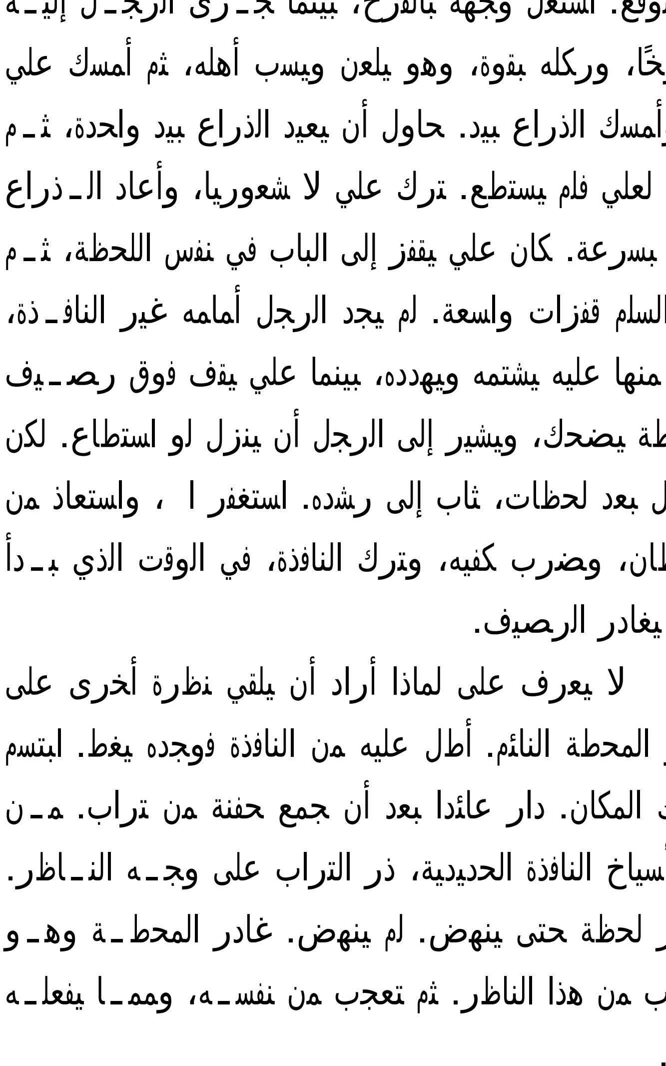
أشار إليه عامل البلوك أبـيض الوجـه أن يصـعد. تعجب علي من أنه لم يعرف واحدا مـن العـاملين نهـارا بالبلوك. لماذا وقفت معرفته حتـى الآن علـى عـم عبـد النور ...؟ صعد وهو يشعر أن هناك أشياء كثيرة لا يفهمها. رأى السلالم الخشبية حائلة اللون، مليئة بالشروخ، قطـرات الماء القذرة تتعلق بأطرافها، ويعلو رؤوس مساميرها - التي على الجوانب - صدأ قاتم. أحس ببرودة الدرابزين الحديدي وخشونته تحت كفه. رفعها فوجد فوقها صدأ. دعك كفيه في بعضهما فانتشر الصدأ وصار كالحناء ولم يختفِ.

دخل البلوك. رأى الرجل صـغير السـن وشـاربه أبيض. ابتسم. قال الرجل :

- هلا اشتريت لي شيئًا من فوق الجسر ...؟ إنهـا مسافة بعيدة لكني سأكافئك.

أشار علي برأسه موافقًا. قرر بينه وبين نفسه أن لا يأخذ المكافأة. أخذ الرجل يبحث في سـترته المعلقـة علـى الجدار عن نقوده. جعـل علـي يتأمـل أذرع التحـويلات المتجاورة في صفين متقابلين. ماذا يحدث لـو حـرك هـذه الأذرع بلا انتظام. يقولون إن القطارات سوف تخرج عـن قضبانها. لماذا لا يجعل هذا الرجل القطارات تخـرج عـن قضبانها وتقع. ...؟ "التحويلة قوية، تحتاج لقوة لتحريكهـا، الخطأ الواحد ينهي حياة عامل البلوك". هكذا قال أبـوه ذات مرة. وكان هو يتجه دون وعي إلى إحدى الأذرع ويمسـك بها. في غفلة من الرجل المشغول بالبحث عن النقود، جـذب الذراع بقوة إلى الخلف. استجمع كل قوته في هذه الجذبة.

منذ أن تشاجر مع المرأتين، في الشتاء الماضي فوق الجسر، وهو يعرف أنه قوي. لكنه لم يكن يعرف أنه سينجح في جذب الذراع الثقيلة. ولدهشته انصاعت له الذراع بأسرع



مما توقع. اشتعل وجهه بالفرح، بينما جـرى الرجـل إليـه صارخًا، وركله بقوة، وهو يلعن ويسب أهله، ثم أمسك علي بيد وأمسك الذراع بيد. حاول أن يعيد الذراع بيد واحدة، ثـم يفرغ لعلي فلم يستطع. ترك علي لا شعوريا، وأعاد الـذراع بيديه بسرعة. كان علي يقفز إلى الباب في نفس اللحظة، ثـم قفز السلم قفزات واسعة. لم يجد الرجل أمامه غير النافـذة، يطل منها عليه يشتمه ويهدده، بينما علي يقف فوق رصـيف المحطة يضحك، ويشير إلى الرجل أن ينزل لو استطاع. لكن الرجل بعد لحظات، ثاب إلى رشده. استغفر ا ، واستعاذ من الشيطان، وضرب كفيه، وترك النافذة، في الوقت الذي بـدأ علي يغادر الرصيف.

لا يعرف على لماذا أراد أن يلقي نظرة أخرى على ناظر المحطة النائم. أطل عليه من النافذة فوجده يغط. ابتسم وترك المكان. دار عائدا بعد أن جمع حفنة من تراب. مـن بين أسياخ النافذة الحديدية، ذر التراب على وجـه النـاظر. انتظر لحظة حتى ينهض. لم ينهض. غادر المحطـة وهـو يتعجب من هذا الناظر. ثم تعجب من نفسـه، وممـا يفعلـه اليوم.

سار وسط القضبان. أحس بنفسه خفيفًا، يكاد يطيـر في الفضاء الواسع. جعل يتناول أحجارا يقـذفها لمسـافات بعيدة. في كل مرة يرى المدى الذي يصل إليه الحجر، فيجده أبعد من المرة السابقة. صار إبطه يحرقه، لكنه ظل يقـذف الأحجار.

ماذا يحدث لـو قـذف حجـرا لـم يسـقط فـوق الأرض ...؟

ماذا يحدث لو ظل الحجر سابحا في الفضاء ...؟

إلى أين سيصل، ومن سيصيب في النهاية ...؟

تمنى لو استطاع أن يفعل ذلك. لو ظل الحجر يطير من مكان إلى مكان. من محطة إلى محطة. وفي كل مكـان يمر به، يشير إليه الناس ويقولون : إنه حجر علي ما يـزال سابحا في الفضاء. وتمضي الأعوام، ويظل الحجر سابحا في الفضاء. ويقول الأطفال لآبائهم، مر علينا اليوم حجر سريع، من أين جاء ومن صاحبه ...؟ ويقول الآباء : إنه حجر علي الذي قذفه منذ عشر سنوات. ويكون هـو قـد كبـر عشـر سنوات. وتمر السنون، ويسأل الأطفال أباءهم، لقد مر علينا اليوم حجر سريع، من أين جاء ومن صـاحبه ...؟ فيقـول

الآباء : إنه حجر على الذي قذفه منذ عشرين سنة من بـلاد بعيدة. ويكون هو قد كبر عشرين سنة. وتمر السنون ويسأل الأطفال آباءهم لقد مر علينا اليوم حجر سريع من أين جـاء ومن صاحبه، فيقول الأباء : إنه حجر علي الذي قذفه منـذ خمسين سنة..! ويعود الحجر بعدها أو.. لا يعـود بعـد أن يستكمل دورته.

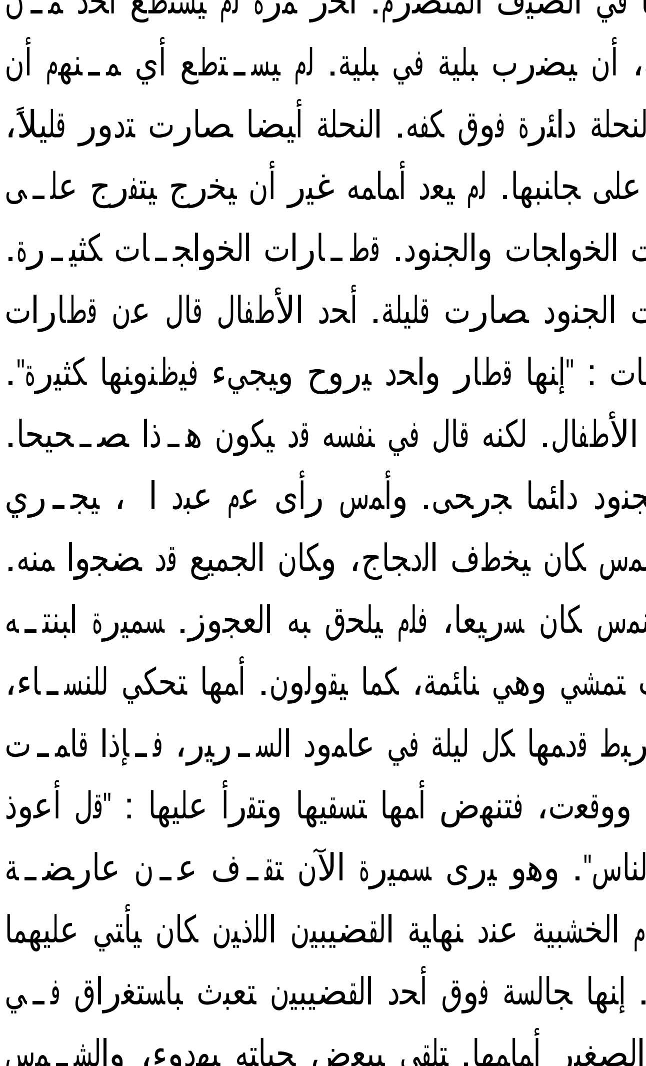
لكن قلبه ينقبض. يشعر أن الحجر سيعود. سـيكون هو يحتضر، ويسقط الحجر أمامه. ويقول لـه النـاس هـذا حجرك يا علي، قد عاد إليك. ويحتضر. تمر السنون. يكبـر الأطفال. وينسون الحجر السابح في الفضاء.

ولمعت في عينيه ألوان الهدهد الزاهية. كـان واقفًـا فوق أحد القضبان قريبا منه مباشرة، رافعا عرفه في شموخ وصدره إلى الأمام كأنه يتأمل الدنيا لأول مرة. شاء على أن يقذفه بحجر، لكن الهدهد فرد جناحيه فلمع في عينيه اللـون الأبيض الزاهي مع الدرجات المختلفة للون البني، ومع اللون الأسود القاتم اللامع. أحس علي بالبهجة تسكبها في روحـه ألوان الهدهد. وجه الحجر بحيث يطير فـوق رأسـه. ظـل الهدهد واقفًا. لم يطر. فقط نظر إليـه. اقتـرب علـي منـه

والهدهد لا يتحرك، فكر علي أنه يستطيع أن يمسكه. لكنـه حين انحنى فوقه، طار الهدهد، وحط على قضيب بعيد.

وقف كل منهما ينظر الآخر. ابتسم علي في النهاية، وقرر العودة إلى البيت. فالآن تكون أسرة زيدان قد رحلت، ويكون الناس قد دخلوا بيوتهم.

تذكر علي ما تردد أمس عن مجيء القطار اليـوم، وكيف لا يبدو أن أحدا استعد للخروج إليه. كان قـد سـمع رجلاً يقول : "دائما يقولون إنه سيأتي يوم الجمعة. لو قـالوا يوما آخر سيجيء ...!" ولم يفهم - وإن تضايق - يبـدون وقد نسوه، أو تناسوه. لكنه يعرف أنه لو عـاد سـيخرجون إليه. وهو أيضا سيخرج. لا يستطيع أن يترك ليلى وحـدها. ربما هذه المرة يستطيع أن يمنعها. لا يعرف بالضبط. لكنهم صاروا على كل حال مشغولين بأحداث أخرى. ربما أيضـا بالخوف. وهو لا يخاف إلا حين يرى ليلى تبكي. لكن والديه لا يزالان يمنعانه من الخروج ليلاً لصيد القنافذ. كما حطـم أبوه فخاخه وشصه، ومنعه على كل صيد. قال له : "العـب فقط". لكنه لا يلعب. الأطفال في الصيف الماضي لم يلعبوا. حتى البلي والنحل التي لعبوها في الصـيف الأسـبق، لـم



يلعبوها في الصيف المنصرم. آخر مرة لم يستطع أحد مـن الصبية، أن يضرب بلية في بلية. لم يسـتطع أي مـنهم أن يرفع النحلة دائرة فوق كفه. النحلة أيضا صارت تدور قليلاً، ثم تقع على جانبها. لم يعد أمامه غير أن يخرج يتفرج علـى قطارات الخواجات والجنود. قطـارات الخواجـات كثيـرة. قطارات الجنود صارت قليلة. أحد الأطفال قال عن قطارات الخواجات : "إنها قطار واحد يروح ويجيء فيظنونها كثيرة". ضربه الأطفال. لكنه قال في نفسه قد يكون هـذا صـحيحا. لكن الجنود دائما جرحى. وأمس رأى عم عبد ا ، يجـري وراء نمس كان يخطف الدجاج، وكان الجميع قد ضجوا منه. لكن النمس كان سريعا، فلم يلحق به العجوز. سميرة ابنتـه صارت تمشي وهي نائمة، كما يقولون. أمها تحكي للنسـاء، كيف تربط قدمها كل ليلة في عامود السـرير، فـإذا قامـت تعثرت ووقعت، فتنهض أمها تسقيها وتقرأ عليها : "قل أعوذ برب الناس". وهو يرى سميرة الآن تقـف عـن عارضـة التصادم الخشبية عند نهاية القضيبين اللذين كان يأتي عليهما القطار. إنها جالسة فوق أحد القضيبين تعبث باستغراق فـي الزلط الصغير أمامها. تلقي ببعض حباته بهدوء، والشـمس

الواهنة تنعكس أشعتها على الترتر الأبيض الذي يحيط غطاء رأسها. اتجه إليها. حين اقترب منها أحس أنه رجـل وأنهـا طفلة صغيرة.

- ماذا تفعلين هنا وحدك يا سميرة ...؟

ابتسمت. كانت عيناها دامعتين. عيناهـا العسـليتان المسحوبتان كعيني النمس! جعلت تمسـح جسـده ووجهـه بعينيها، ثم مسحت دمعها بسبابة يدها اليسرى. قالت بدهشـة ووداعة :

- كبرت يا علي ....!

ارتبك.

- تنتظرين القطار ...؟ إننا نقترب من الظهر.

أشار إلى الشمس التي تتصاعد إلى منتصف السـماء وقال :

- لو كان سيأتي حقًا كان جاء مبكرا.

قامت سميرة. نظـرت إلـى راحتيهـا فوجـدتهما متسختين من أثر الزلط. نفضت بظهر كفيها جلبابها من فوق مقعدتها. ووقفت في جهة من عارضة التصادم. كـان علـي يقف قبالتها. جاء عصفور صـغير سـريع وتوقـف فـوق

العارضة بينهما. حرك عينيه ناحية سميرة ثم ناحية علي. حط جواره عصفور آخر. طار الأول مسرعا يرفرف بجناحين ويسقسق. حرك العصفور الثاني عينيه كالأول ثم حط ثالث جواره. طار الثاني. كاد علي يتكلم فحط عصفور رابع وطار الثالث. كادت سميرة تتكلم لكن العصفور نظر إليها ثم إلى علي وطار حين حط جواره عصفور خامس. وتواترت العصافير تنظر إليهما وتطير. ارتبكا. ابتهجا. ضحكا. لم يعرفا لماذا تفعل العصافير ذلك. ظلا يضحكان طويلاً وقد أمسك كل منهما بناحية من عارضة التصادم المرتفعة. تجمعت العصافير التي طارت بعيدا عنهما في دائرة كبيرة، ثم تفرقت طائرة في كل اتجاه وهما لا يزالان يضحكان :

- ألا تصطاد الآن ...؟

- الطيور صارت خبيرة بالفخاخ. والأسماك صارت خبيرة بالطُعم.

لا يعرف لماذا كذب وتجاهل أنها تعرف كل ما يدور في المنطقة. قالت :

- هل جربت ...؟

ارتبك قليلاً.

- سأصطاد هذا الشتاء.

نظرت إليه مليا وقالت :

- كبرت يا علي ....!

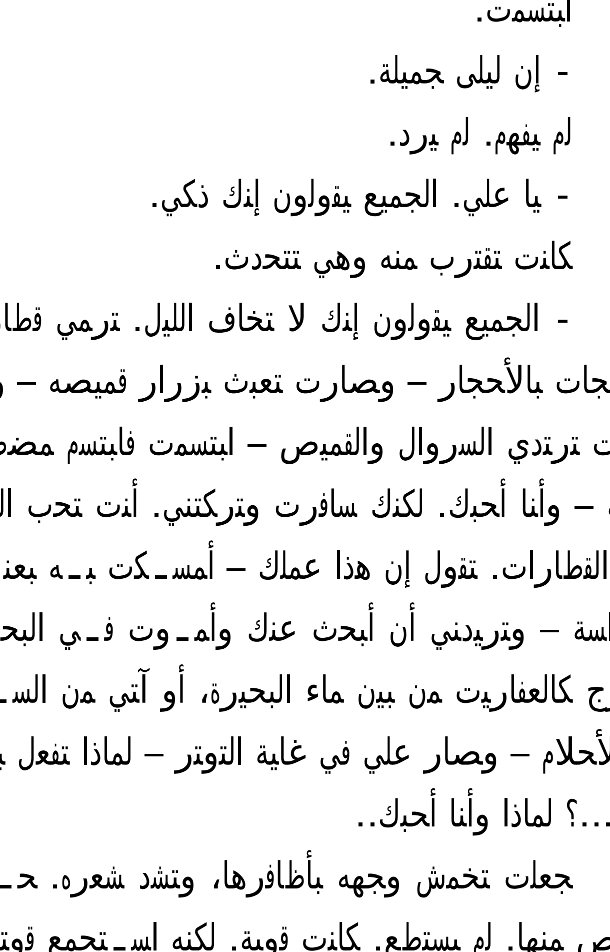
وكانت قد عادت تمسحه بعينيها مـن جديـد. ازداد ارتباكه. نظر حوله. لم يكن بالمكان غيرهما. الفضاء واسع، البيوت نائمة، عليها صمت. البلوك بعيد، المحطة وناظرهـا مرتاحان إلى النوم. لا قطارات ولا بشـر. حتـى الطيـور اختفت. والسحب كأنما حبسها حارسها اليوم في مكان بعيـد في السماء. الكون صافٍ ووجه سميرة صار متألقًا بعـد أن زالت آثار الدموع.

أحس علي أن شيئًا ساخنًا يصعد إلى حلقـه. شـيئًا كالذي شعر به أول مرة حين انفرد بالوسادة، لكنه هذه المرة أكثر بطئًا واتساعا، وبدأ حلقه يجف وعيناه تتسـعان. سـأل نفسه، هل يمكن ...؟ ومع سميرة ...؟ وهنا ...؟

- لم نعد نرى ليلى كثيرا ...؟

دار رأسه. قال متلعثما.

- صحيح.



ابتسمت.

- إن ليلى جميلة.

لم يفهم. لم يرد.

- يا علي. الجميع يقولون إنك ذكي.

كانت تقترب منه وهي تتحدث.

- الجميع يقولون إنك لا تخاف الليل. ترمي قطارات الخواجات بالأحجار – وصارت تعبث بزرار قميصه – وأنك صرت ترتدي السروال والقميص – ابتسمت فابتسم مضطربا للغاية – وأنا أحبك. لكنك سافرت وتركتني. أنت تحب السفر فوق القطارات. تقول إن هذا عملك – أمسـكت بـه بعنـف وشراسة – وتريدني أن أبحث عنك وأمـوت فـي البحـث وأخرج كالعفاريت من بين ماء البحيرة، أو آتي من السـماء في الأحلام – وصار علي في غاية التوتر – لماذا تفعل بـي ذلك ...؟ لماذا وأنا أحبك..

جعلت تخمش وجهه بأظافرها، وتشد شعره. حـاول التخلص منها. لم يستطع. كانت قوية. لكنه اسـتجمع قوتـه، وسبب له ذلك حزنًا شديدا فيما بعد، وصفعها مرة ومـرتين

وثلاث فتركته، وقفت خاشعة باكية أمامه. أمرها أن تعود إلى البيت فأذعنت ذلولاً.

ظل هو واقفًا يتنفس بسرعة. لا يعرف لماذا نظر إلى عارضة التصادم. لم تكن هناك عصافير. وغامت الدنيا إذ أطلق حارس السحب سحبه فتدافعت كثيفة تخفي الشمس والسماء بسوادها. لحق بسميرة التي كانت تسير منكسرة. أمسك بيدها. قال :

- ستمطر. فلنسرع.

وهرولا إلى البيوت العشرين.

لا يعرف علي لماذا انقبض صدره. لقد قال لسميرة وهما يجريان : "لماذا لا تذهب وتبحث عن مرسي". لكن هذا ليس سبب ذلك الانقباض. حين اقترب من البيوت اتضحت الفكرة. أدرك أن الفُرقة صعبة. وأنه سيعاني كثيرا. لقد فكر في ذلك أكثر من مرة من قبل، وكان ينصرف دائما عن الفكرة بالاستغراب. لكنها صارت ملحة الآن على ذهنه. وما انقباض صدره إلا رهبة مبكرة. لكن هل سيفعلها ...؟ هل يحدث أحدا في ذلك. ومن سيوافقه ...؟ وما معنى الفكرة أصلاً ...؟ إذن فليفاجئ الجميع. ومن يدر قد لا يفاجأون.

لكن سعاد وحدها، ومن بين الجميع، ستعصف بها المفاجـأة، ربما أكثر من أسرته. لكنه لا يستطيع أن يهرب من إلحـاح الفكرة عليه، آه ولا يستطيع أن ينفذ. إذن فليفكر في ذلك كله فيما بعد، وليدخل الآن يتقي المطر.

* * * * * *

زينب

انتهى يوم الجمعة. ما كادت نعمة زوجة زيدان ترحل، حتى دخل الجميع البيوت. حتى صلاة الجمعة لم يخرج إليها أحد، فهم منذ مات الشيخ مسعود، صباح جمعة الشتاء الماضي، لا يخرجون جماعة إلى الصلاة. لم يعد الجامع يشهد تلك المناقشات الحامية بينهم وبين الشيخ مسعود. لكن عبد ا كان يخرج إلى الجامع رغم ذلك. يجد نفسه دائما وحده. مرة واحدة وجد شخصا كان زيدان. لكن زيدان ما كاد يصل إلى منتصف الصلاة، حتى خرج جاريا!

دخل الجميع البيوت ودفعوا الأطفال أمامهم. ولم يستطعوا أن يمنعوا رقابهم أن تستدير لترى عيونهم الخلاء الواسع، الذي كان يقف في وسط القطار.. وكانوا يعرفون أن القطار لن يأتي أبدا.. كان علي في ذلك الوقت داخل البلوك متحفزا لتحريك التحويلة. وسميرة تستدير من خلف البيوت حتى لا يراها أحد، لتذهب إلى حيث يأتي القطار، وتجلس

تحت عارضة التصادم الخشبية تعبث بالزلط القذر. لكن يوم الجمعة هذا، كان مختلفًا فوق الجسر.

والجسر، هذا الطريق العريض، الذي يشق البحيرة إلى نصفين والذي يزدحم يوم الجمعة أكثر من أي يوم ويكاد الباعة بيض الوجوه قصار الجسم من شمال البلاد، أو سود الوجوه طوال الجسم عجاف من جنوبها، يتوهون فوقه بين زحام المشترين القادمين من المدينة القريبة التي يدور أمامها البحر، والتي تأتي منها النساء بملاءات سوداء ملفوفة على أجساد مكنونة، ولا تنسى أن تبرز جزءا من أسفل أو أعلى يدعو للفضائح. أو نساء بملابس قصيرة زاهية يتنقلن كالفراشات. ورجال وشباب وأطفال يرتدون كل أنواع الأزياء. الجسر الذي امتلأ بأكوام الأسماك. سمك الثعبان والقرموط والبوري والبلطي والبساريا. أسماك البحيرة الشهيرة. ورائحة الزفارة تملأ الجو فوقه. وبائعو السمك جميعا بسراويلهم السوداء الواسعة، وصديرياتهم المفتقة، وأيديهم المبتلة التي التصقت بأصابعها قشور السمك، يرشون الماء بين الحين والحين فوق الأكوام. هذا الجسر كان مرفأ زينب الأخير. وكأنما خلق كي تصبح زينب بائعة عليه لكل

شيء. عرفت كيف تنادي وتهمس. كيف ترش الماء فوق أكوام السمك. متى ترفع السمكة في الهواء. متى تفتح خيشومها أمام الشاري. ومتى تغمز الثعبان أو القرموط بيدها فيتحرك دائرا حول نفسه يعلن عن ضيقه وطزاجته. دخلته زينب، ابنة الطبيعة البكر كما قال عنها زوجها، ولم يحذرها ...! ولو كان يعرف لنطق، ولو كان يقدر لغاص وسط الماء وانسطح، لها فقط رغم كل الخطايا التي يحملها فوق ترابه.

استمرأت زينب الجحيم. وظل الجسر يعرف صامتًا، أنها تتركه في نهاية كل يوم، كما يعرف أنها تعود كل صباح.

قالت هنية التي عرفت زينب اسمها فيما بعد :

- تريد سمكًا. ...؟

ونظرت إلى عينيها. رأت كل منهما في عيني الأخرى إجابة على سؤال سري. اقتربت منها هنية. رأت في عيني زينب لهبا وحزنًا لامعين :

- من أين أنت يا أختي ...؟

رأت زينب في عيني هنية قسوة : "تعرفين كل شيء يا لبوءة" قالت ذلك في نفسها، وهي تشعر أن هنية تعريهـا تماما بنظراتها. قالت في نفسها مرة أخرى : "إنني طيبة يـا ربي فلماذا ...؟". تذكرت أنها سمعت الشيخ مسعود يقـول : "ما أعظم الإنسان الذي يعرفه نفسه، وما أبهاه" وظلت تـردد لنفسها : "أين أنت يا حامد. يا بعلي المسكين الذي ظل يجري وراء المجهول، ووراء عربة المفتش".

خانتها شفتاها وتحركتا. أدركت أن هنية فهمت حركة الشفتين. تركت لها يدها. دخلت معهـا الخُـص البـوص. جلست. بكت. عرفت كل منهما الأخرى صراحة. قالت هنية في نفسها : "كم هو جبان خسيس الذي يترك امرأة كهذه". ثم قالت بعد أن أعدت كوبين من الشاي :

- أين هو الآن ...؟

كيف بكت زينب ...؟ لم تكن تعـرف أن الضـعف سيتملكها هكذا.

مسحت دمعها وقالت بقسوة، بحقد لم تكن تعرف أنها تملكه :

_ لا أعرف.

ودخلت المرأة السـمينة أم هنيـة. نظـرت إليهـا وخرجت. أدركت زينب السر كله. قامت لتودع هنية.

- ابقى معنا. اعملي معنا. تأتين كل صباح. تعودين في المساء. تبيعين وتشترين. تأكلين ويأكل الصغار.

قالت زينب في نفسها : "وتأكل العجـوز أم جـابر". كانت جادة. صادقة. وكان ذلك منذ نفد ما لديها من نقود.

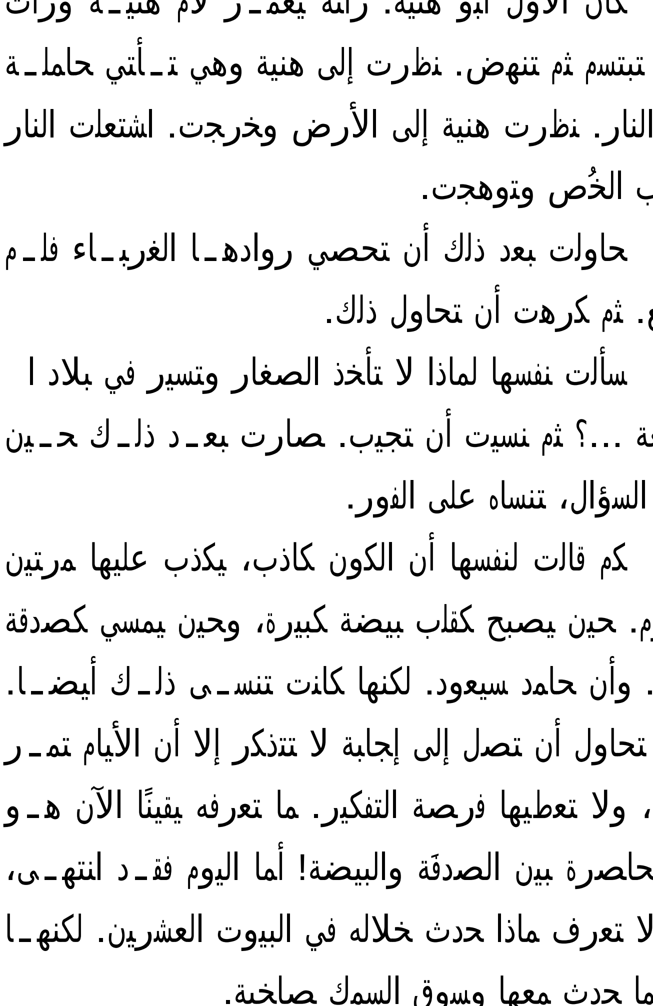
عرفت زينب كل شيء عن البيع والشراء وأنها لـن تستطيع مهما نظفت نفسها أن تتخلص من رائحـة الزفـارة التي صارت عالقة بها. أدركت أن نظرات العجوز إليها بعد العودة كل مساء تعذبها. عرفت كيف كان لبكائهـا ـ وهـي تحتضن الصغار، وبعد أن تنفرد العجوز بنفسها لتنـام فـي الحوش، وبعد أن تكون نيران الفواريكة قد أدفأت الجـو ـ طعما مختلفًا.

سألت نفسها كثيرا لماذا لم تقاوم ...؟ لماذا هذا اليقين الجازم بأن حامد لن يعود ...؟ كيف أنه كل مساء، حين يخلو الجسر من الباعة والمشترين، ويصبح كثعبان عريض أسود، ويزحف الظلام فوق كل شيء، ويصعد القمر تائهـا زائـغ النظرة، وتهب نسمة تتمايل بنبات الحلفـاء، ويظهـر طيـر

الخفاش الأسود يحوم في الفضاء، ويبترد جسـمها وتأخـذه الرعشة، وحين يبدو الكون كقلب صدفَة معتمة، تتحدث إليها الطبيعة باليقين النافذ بأن حامد لن يعود ...؟

ولماذا كل صباح، حين تخرج مبكرة قبـل النـاس جميعا، وتكون الشمس لم تصعد بعد، وأشعتها فقط تجعل خط الأفق متوردا خلف الجسر، وتبدأ الطيور الصـغيرة تـدور فُرادى تائهة، ويكون الضباب قد ملأ أركان الفضاء، وهـي تسير في اتجاه الجسر، في قدميها خُـفٌ خفيـف لا يمنـع البرودة عنهما، وحين تشعر بأن الكون قلب بيضـة كبيـرة، أجل بيضة تسير في قلبها عاجزة عن أن تكسـر جـدرانها وتخرج إلى النور، لماذا حينئذ تتحدث إليها الطبيعة بأن حامد لن يعود ...؟ وأن ما بقى لها الآن عجـوز تقـاوم المـوت جمعتهما الفاجعة معا، وأطفال يكبرون فوق الإثم المسـطور منذ زمن. ثلاثة ضمائر تنمو أمامها كل يوم، وضمير عجوز يموت، لكنه ضمير!

ضاقت زينب بالكون الذي يثبت أقدامها في الطـين. لكن لم تفكر أو تحاول أن تنزعهما.



كان الأول أبو هنية. رأته يغمز لأم هنية ورأت المرأة تبتسم ثم تنهض. نظرت إلى هنية وهي تأتي حاملة ركية النار. نظرت هنية إلى الأرض وخرجت. اشتعلت النار في قلب الخُص وتوهجت.

حاولت بعد ذلك أن تحصي روادها الغرباء فلم تستطع. ثم كرهت أن تحاول ذلك.

سألت نفسها لماذا لا تأخذ الصغار وتسير في بلاد ا الواسعة ...؟ ثم نسيت أن تجيب. صارت بعد ذلك حين تتذكر السؤال، تنساه على الفور.

كم قالت لنفسها أن الكون كاذب، يكذب عليها مرتين كل يوم. حين يصبح كقلب بيضة كبيرة، وحين يمسي كصدفة معتمة. وأن حامد سيعود. لكنها كانت تنسى ذلك أيضا. وحين تحاول أن تصل إلى إجابة لا تتذكر إلا أن الأيام تمر سريعا، ولا تعطيها فرصة التفكير. ما تعرفه يقينًا الآن هو أنها محاصرة بين الصدفَة والبيضة! أما اليوم فقد انتهى، وهي لا تعرف ماذا حدث خلاله في البيوت العشرين. لكنها تذكر ما حدث معها وسوق السمك صاخبة.

لقد شعرت وهي تنسحب إلى الخُص أن قلبها يسـقط إلى قدمها، وحين تعرت ونامت للشاري وافد المدينة القلـق، والذي فعل ما صار محفوظًا، إذ تكلم قليلاً مع أم هنيـة ثـم ضحك، وجاءت المرأة ووقفت مكانها خاف كـوم السـمك، وانسحبت هي إلى الخص. حين تعرت ونامت، حاولـت أن ترى ملامح وجهه بدقة وهو يصعد فوقها مبهور الأنفـاس. لكن قلبها الذي كان ينبض بقوة شغلها عن ذلك، ولم يصرفها عن محاولتها قولها الدائم لنفسها أنه لا فائـدة، فهـم كلهـم متشابهون. ولا يعرف أحد لماذا كانت دائما تدقق في وجـوه الغازين وعم كانت تبحث ...؟ أحست بقلبها يكاد ينخلع ويقفز خارجا، وكأنما صار للقلب جناحان كبيران معذبان توقيعهما عنيف، انتفضت تحت الرجل. ضاق بهـا ونهرهـا قـائلا : "لماذا تبكين ...؟" ولعن الحـظ واليـوم. تحركـت شـفتاها بابتسامة. مسحت دمعها وشجعته. لكن قلبها خـذلها وعـاد يخفق من جديد. تمنت لو تركها الرجل. لكنه لم يفعل. صار شرسا. لم ينظر إلى وجهها ثانية. بدا كمن ينتقم من مجهول.

قبل أن تدخل زينب إلى البيت شاهدت دخانًا يخـرج من عشة بيت سعاد فعرفت أنها تخبز. تذكرت الشيخ مسعود

حين قال لها انهضي واسأليه إلى أين ...؟ رثـت للعجـوز الميت، قالت : في نفسها، هل حقًا كانت تلك الكلمات القليلـة ستوقف نهر العصيان ...؟ وترحمـت عليـه. أكلـت ممـا أحضرت وأكل الأطفال. أكلت العجوز أم جابر لقمة في حجم أنامل أصابع اليد بينما قامت هي لتحضر الفواريكـة التـي كانت قد أشعلتها، من الخارج. كان مطر خفيف قد بدأ ينزل.

حين امتدت يدها إلى الفواريكـة تحملهـا ولفحتهـا نيرانها، وبعد أن نظرت إلى الفواريكات الأخرى أمام العشش ورأت دخانها يملأ الفضاء، قالت لنفسـها : "دائمـا تصـفو فواريكة حامد قبل غيرها. بسرعة تتوهج وبسرعة تنطفـئ" حملت الفواريكة ودخلت. في منتصـف الحـوش شـعرت بسخونتها تحت يديها. نظرت إلى الخرق الملقـاة فـي كـل مكان، شمت رائحة المرحاض، وتذكرت فجأة لماذا انتفضت وانقبض قلبها وبكت ظهر اليوم.

لقد رأته. حامد نفسه، عاجزا عن الجري. عاجزا عن السير. مربط القدمين بالخرق. متـورم السـاقين. محـروق الوجه. مغبر الذقن والشعر. ارتخت جفونه حول عينيه. يرفع ذراعيه بصعوبة. يتكلم بصعوبة ولا يكـاد يحـرك لسـانه.

تتساقط أسنانه نقطًا من الدم الأسود الجاف. يصرخ في فضاء واسع. صدفة معتمة مرة. بيضة كبيرة مرة. يدور حول نفسه ويقع. يتجه بعينيه المتعبتين إلى شيء مجهول ويبكـي بـلا دموع ثم سقط رأسه فوق صدره، ورأت دموعه تحفر قنـاة من الدم في الأرض تلغ فيها الكلاب.

أقبلت أم جابر من الحجرة الداخليـة إلـى الحـوش المعتم الذي أضاء فجأة بضوء نيران الفواريكة. رأتها زينب عجوزا انحنى ظهرها انحناءة كبيرة حتى لكاد رأسها يلامس الأرض. كانت أم جابر تجرجر جِراما قديما صار ثقيلاً مـن أثر البول الدائم للصغار عليه السنين الماضية. لم تكلـم أي منهما الأخرى. دخلت زينب إلى الحجرة. غطـت الأطفـال الذين ناموا، ولم تنم.

قالت له : "يا حامد بح بما عندك أريحك" لم يفعل. "يا حامد لماذا تريد أن تظل تجري طول العمر ...؟" نظر إليها وفي عينيه نار. قال لها : "أنا لا أجري. شيء ما يدفعني من الخلف. محكوم علي بالشقاء،" ثم قال : "لقد سـألت الشـيخ مسعود فكاد يضربني. قلت له : هل تـدلني علـى أصـول هؤلاء الناس ...؟ من أي البلاد نحن ...؟ إننا مـن صـنع

الشيطان. علال لي معنى القطا ...؟ أنت شيخٌ عـالِم منقطـع للعبادة وتعرف الأسرار لكنه كاد يضربني" وقالت له : "أنت تتدخل فيما لا يعنيك" قال لها : "الشيخ مسعود قال ذلك. لكن ألا يعرف زيدان شيئًا عن عرفـة ...؟ ألا يعـرف الشـيخ مسعود شيئًا عن زوجته وفريد ...؟" ثم قـال : "أي جـوع نقتات وأي عفن نرتوي. إننا نقوم بإصلاح سكك حديديـة لا نعرف لماذا تمر فوقها القطارات".

قالت في نفسها : "لعلك ارتحت الآن يا حامد. لعـل أحد يراك. لعل أحد يقابلك في مكانك الذي لم تحدثني عنـه، ويحدثك بما جرى أنت وجابر. تركتني بلا سبب أعرفه. لـم تقل لي لماذا ...؟ ولم أفهم. عاملتني بالقهر أنا التـي ذابـت قدماي معك مشيا فوق القضبان والعوارض. تركتني صـباح ليلة كاذبة أحسست فيها أنك تعطيني أنا وحدي، لكنك كنـت تعطيني كل شيء وكل ما عندك. ما أكثر الليالي التي تركتني فيها لكنك كنت تعود وأنسى. متعبا مكدودا تعود ولكن أنسى. أشعر بك سترا وغطاء. ويل للمـرأة الوحيـدة مـن فـزع الجدران. حتى السماء لا تحنو عليها. تركتني ليالي طويلـة ألتهب باليأس والضجر، لم أحزن، ولم أملك، كنـت تعـود

وأنسى. ثم جاءك ليقف معك قليلاً في العِشـة يسـر إليـك بكلمات مهرولة كما تجري. وسألت نفسي لماذا لا يحدثك في الصباح ...؟ ولاذ كل منكما بالآخر. ترك العجوز، وتركـت لي العري من كل غطاء. لا خطـاب ولا خبـر ولا الطيـر يستطيع أن يحمل الرسائل كما كنا نغني في بلادنا، ولا الريح ولا السماء تنقل الكلمات. ربما لو كنت سـألت أحـدا أيـن يستطيع الذهاب من أراد أن يخرج من هنـا كنـت وجـدت إجابة. هل تعرف يا حامد أني عرفت الطريق إلى الجسـر، الذي رقيته أنت كثيرا في ليالي العتمة والقمر ...؟

في تلك الليالي كنت أحبك رغم كل شيء. لكن الآن، لو عدت سأضع عنقي تحت عجلات قطـار الخواجـات أو الجنود. لن أنتظر حتى تنمو الضمائر الصـغيرة أو يبـوح الضمير العجوز. سأنصرف عن هذه الوحدة إلى غيرها. هل عرفت الوحدة مثلي الآن ...؟ العجوز نامت. الأطفال نيـام. اللمبة الغازية نائم ضوؤها. الفواريكة نامت فيهـا النيـران، وكل شيء حولي يبتعد. حتى صورتك التي رأيتها وأنا تحت الرجل بالنهار، اليوم لا تؤنس وحدتي بالليل، رغم الخـوف الذي يشع منها! الليل صديق جائر دائما لا يحب الشـركاء.

والصباح، لا أعرف ماذا سيحمل من آلام. لم أعـد أعـرف ماذا يحدث هنا وأنا فوق الجسر. والعجـوز امتنعـت عـن الكلام. أنا الآن ملك هنية وأمها وأبيها. الثالثة الذين ملكـتهم أنت سنينًا. أنت يا حامد كنت شريرا. كذبة اكتشـافها علقـم وثمن فادح. وما زلت شريرا تختار أن تأتيني فوق الجسـر في وضح النهار، ولا تفكر أن تؤنس وحدتي مرة واحدة في هذا الليل الكابي. تماما كما كنت دائما. تماما كما كنت دائما".

وقامت زينب لتنام، وهي تعرف ماذا ستفعل غدا منذ الصباح. استعدت لرؤية صورة زوجها. واستعدت لطردهـا هذه المرة.

* * * * * *

ليلى

منذ مات الشيخ مسعود وسعاد تبدأ يومها كل مساء. أمضت صباح أيام الشتاء الماضي تصعد السطح وتفتح صدرها للمطر، ولن تفعل ذلك شتاء هذا العام. تمضي نهار أيامها إما وحيدة في البيت نائمة، أو جالسة لا تفعل شيئًا، ولا حتى تفكر. تذهب للحديث مع ليلي أو تنتظرها. لكنها كانت دائما ترقب الغلام علي. وحين يأتي المساء يبدأ يومها. في المساء تطهو طعام الغد. تغسل الثياب. تناجي بعلها الميت وتقيم معه طقوس الحب. وتخبز إذا حان موعد الخبز.

الآن، وكان الجميع قد دخلوا بيوتهم منذ الضحى، ومضت ساعات على ذلك إذ خيم المساء، بدأت سعاد يومها. بدأته بالخبيز. تماما ما كانت تفعل قبل موت الشيخ مسعود حين كانت تخبز مع بداية اليوم، لكن في الصباح!

قالت :

- لماذا لم تعودي تأتين كثيرا ...؟

- أمي وأبي يمنعاني لا أعرف لماذا ...؟

لم تحاول سعاد أن تستقصي شيئًا.. عانت في الأيام الأخيرة من انقطاع ليلى عن زيارتها. حين كانت تذهب لرؤيتها كانت ترى الجفوة في عيون الأم والأب. إنها على كل حال مدركة بيقين واضح أنه في هذه الأيام، وفي هذه المنطقة بالذات، كل شيء جائز ويمكن حدوثه، ولا يجب أن يسأل أحد عن تغير شيء. سألت :

- أين علي ...؟
- سيأتي بعد قليل..

لا تعرف لماذا سألت عنه. فهو في الشتاء الماضي لم يكن يأتي مع ليلى لأنه لم يكن شتاء سهر ولا مرح. وفي الصيف لم تأت ليلى لتبيت معها. وهي لا تعرف إذا كانت ستبيت معها هذا الشتاء أم لا ...؟ لقد سألت عن علي ونسيت غرابة السؤال. عللت نفسها بأنها كانت قديما تسأل عنه إذا جاءت ليلى وحدها، ثم أن أحدا في الدنيا لا يشعر بما تحس به.

كانتا جالستين في الحوش على الأرض وأمامهما إناء العجين مغطى بقطعة من القماش القديم. رفعت سعاد قطعة

القماش، فبان وجه العجين مرتفعا، وبعض فقاقيع على محيط الإناء الدائري الصغير من الداخل.

قالت :

- قرصي أنت وسأحمي أنا الفرن.

قرفصت ليلى أمام إناء العجين بينما قامت سعاد إلى العِشة حيث الفرن. جعلت ليلى تنثر قليلاً من "الـردة" فـوق صينية الصاج التي ستقرص فوقها العجين. قالت سعاد وهي في العِشة :

- لقد عادت تمطر.

- لن تكف إلا في الصباح. اهتمي بالدجاج.

- سقف العِشة متين. لن تسقط الأمطار فوقنا علـى أي حال.

بيدها اليمنى تقبض ليلى قبضة مناسبة من العجـين. تحركها بين كفيها. تكورها. تضعها في طبق به دقيق. تنقلها بعد ذلك بين يديها أكثر من مرة. تصـبح قرصـا مسـتديرا يساعد الدقيق على سهولة تحريكه دون أن يلصـق بشـيء. تضعه بعد ذلك في الصينية. تمسك قبضة أخرى. تفعل بهـا ما فعلته بالسابقة. تضعها جوارها.

كانت عملية سهلة معتادة تقوم بها ليلى بسرعة. تفعل ذلك حين تخبز أمها. وأمها تضع الأقراص بعد فردها في الفرن. أمها لا تحب لها أن تجلس أمام الفرن كثيرا. لكنها تحب ذلك. ومن ثم فهي تساعد سعاد دائما حين تخبز، فهي عند سعاد فقط تجلس أمام الفرن. لذلك لذة كبيرة. لذة حين تفرد القرص بأصابع يديها ثم راحتيها. حين ترفعه قليلاً في الهواء أكثر من مرة فوق "المطْرحة". حين تناول المطرحة لسعاد تلقي بالرغيف داخل الفرن، أو حين تلقي هي به فترى وجهه ينتفخ على الفور. وقربها من الفرن يجعل وهج النيران يلفح وجهها. تحمر بشرتها وتتورد. يثور جسمها ويتفجر. لا تستمتع بذلك حين تخبز أمها. لكن حين تخبز سعاد ينتهي الخبيز ووجه كل منهما وردة مبهرة. تقْرصها سعاد في خدها، وأحيانًا في فخذها، وتضحكان. وكانت وهي جالسة "تُقرص" العجين، تسمع صوت قطع الخشب وسعاد تقوم بتكسيرها "بالحجاري" الصغير.

سعاد تفعل ما يفعله الرجال. تدوس بقدمها اليمنى على طرف قطعة الخشب القريب. تضرب القطعة بسن الحجاري الذي يخترق منتصفها. ثم تميل الحجاري إلى

الجانب فتنفلق قطعة الخشب إلى قطعتين. وكانت ليلى تسمع صوت انشراخ الخشب وطقطقته. كثيرا ما انزلقت يد سـعاد من فوق ذراع الحجاري الخشبية. وكانت تقاومها دائما قطع الخشب الحمراء، لكن سعاد تعاند فيحمـر وجههـا وتنـتفخ عروق عنقها. يهتز مع اهتزازها ثـدياها، وتضـحك حـين تنزلق يداها من فوق ذراع الحجار وتكاد تقع.

ألقت سعاد بكمية مناسبة من الخشب داخـل الفـرن وأشعلته. ابتعدت عن الفرن قليلاً. خرج في البدايـة دخـان كثيف فتحت له باب العِشة ليتسرب للخارج. كانت ليلى قـد انتهت. "أربع صوان فقط. لم تعد سعاد تخبز كثيرا." قالـت لنفسها ومسحة حزن ترين على وجهها :

- ما بك ...؟

رأتها سعاد حزينة فسألتها. كانت قد دخلت الحـوش لتنقل صينية إلى العِشة. قرصتها في ذراعها قبل أن تحمـل الصينية. حين انحنت لتحملها انكشف أمام عيني ليلى الجالسة ثدياها. لم ترد ليلى. وقفت سعاد والصينية بين يديها وقالت :

- لماذا تضحكين ...؟

كانت ليلى قد ابتسمت حين برق في عينيها بيـاض ثديي سعاد الخاطف. لم ترد. تناولت إحدى الصواني وقامت خلف سعاد. وضعتا الصينيتين وافترشتا قطعة كبيـرة مـن القماش المهترئ بعد أن أغلقت سعاد باب العِشة إذ تسـرب الدخان. لكنهما سمعا صوت باب عشة زينب يصـر وهـو ينفتح ثم وهو يغلق. جلست سعاد في مقابلة ليلى. الصـينية على يسارهما والفرن على يمينهما. قالت ليلى:

- عادت زينب الآن. صوت باب عشتها.

سكتت سعاد.

- ألم يصلها حتى الآن خطاب من زوجها. ألم يأتها أحد ...؟

- الخطابات كانت تأتي مع القطارات. والآن لا تأتي إلا قطارات الجنود أو الخواجات..

- هل ستظل على هذا الحال. إن المصـلحة تخلـي البيوت إذا خرج أصحابها إلى المعاش أو انتقلوا أو فصلوا.

ابتسمت سعاد في سخرية. خافت. لكنها قالت :

- المصلحة أيضا غائبة.

قالت : ليلى وهي تفرد قرصا مـن العجـين فـوق المطرحة التي وضعتها فوق إحدى ساقيها عند انثناء الركبة.

- طيبة زينب هذه، أخذت العجوز أم جابر معها.

سكتت سعاد قليلاً وهي تفعل مثلما فعلت ليلـى ثـم قالت :

- لقد رأيت زينب أكثر من مرة وهي عائدة.. إنهـا تبدو مهمومة تفكر في شيء ما.

طيرت ليلى الرغيف عاليا في الهـواء، ثـم تلقتـه ببراعة فوق المطرحة التي أمسكتها بيديها وقالت:

- ماذا تعنين ...؟

- زينب تفكر في الرحيل. هكذا قالت لـي عيناهـا أكثر من مرة.

ألقت ليلى الرغيف في الفرن. وكانت بـدأت تشـعر بحرارة النار تسري في جسمها، قالت :

- دعيني ألقي أنا في الفرن.

- أي!

قالت : سعاد فجأة..

- ماذا جرى ...؟

- نسينا تنظيف "العرصة".

نهضت ليلى مسرعة وأحضرت دلوا به ماء وقطعة من الخيش. لفت قطعة الخيش حول طـرف سـيخ حديـدي طويل. غطستها في الماء ثم أخرجتها. أدخلتها إلـى الفـرن فوق "العرصة" الحديدية التي يلقون فوقها الخبز والتي تكون تحتها النيران، وجعلت وهي تمسك بالسـيخ مـن الناحيـة الأخرى تنظفها. كانت سعاد قد أخرجت الرغيف الذي ألقتـه ليلى من قبل، وقذفت به بعيدا فوق قفص الـدجاج وصـوت التقاء قطعة الخشب المبتلة بالعرصة المعدينة الساخنة يطـش عاليا. أحست ليلى بوهج النيران على وجهها بقوة، انتهت من ذلك فوضعت السيخ وقطعة الخيش داخل الدلو ثم وضـعتها جميعا جوار الفرن.

فكرت سعاد في رغبة ليلى الدائمة أن تلقي بـالخبز في الفرن. سعاد تجد لذة حين تقترب بوجهها من فتحة الفرن لتلقي بالرغيف من فوق المطرحة. وحين ينثال العرق يحرق إبطيها وفخذيها وخلف أذنيها. كان يوم الخبيز دائما يوما لها وللشيخ مسعود. فالرجل الذي كان يخرج من المنـزل قبـل الفجر بقليل ليؤذن ويصلي الناس، كان لا يسـتيقظ إلا فـي

ضحى اليوم التالي. ولأنها كانت تخبز من قبل مع الصـباح، كانت يقظته دائما بعد انتهاء الخبيز. ينهض مشتاقًا مشـبوب العاطفة. وتنتهي من الخبيز مشتاقة ملتاعة. يستحم قبـل أن يخرج ليؤذن الظهر ويصلي الموجودين! .. "لمن إذن يـوم خبيز ليلى وهي التي أحبت طائرا غريبا مات بعـد لقـاءات قليلة ...؟" قالت ذلك في نفسها وهي تفرد قرص عجين فوق مطرحتها استعدادا لنقله إلى ليلى لتقدره أكثر ثم تلقـي بـه داخل الفرن.

خيم عليهما صمت لم يقطعه إلا محـاولات الـدجاج الوثوب للوصول إلى الرغيف نصف الطازج فوق القفص.

كادت سعاد أن تسأل عن شـيء أدركـت أن ليلـى تكرهه فتوقفت. قالت في نفسها: "من عاد يذكر القطار الآن، من يحزن على مغيبه ...؟ من يتوقف لعودته ...؟"

كانت ليلى قد حدثتها كثيرا عن كرهها له وكرههـا للخروج إليه. قالت لها مرة أن القطار هو سبب نفور فريـد منها، فهي تعود منه قذرة متسخة تنفق أياما ثلاثة في تنظيف نفسها. وحدثتها عن فريد كثيرا بعد موته. قالت إنه أوصـاها بأن لا تحزن إذا وجدوه ميتًا أو مقتولاً. لكنها لم تحدثها عـن

بكائها في عمق الليالي. ولا تدري أن سعاد تعرف كل شيء.

قالت ليلى :

- أصبحت أكره يوم الجمعة.

دهشت سعاد قليلاً لكنها أدركت المعنى بسرعة ففي يوم الجمعة وقعت كل الحوادث.

- اليوم رحلت نعمة.

قالت سعاد وكأنها تتم ما فكرت فيه. ثم أحست كل منهما أنها تتكلم عن أشياء لا معنى لها. لكن ليلى قالت :

- ترى من سيبقى بعد ذلك ...؟

كادت تقول من سيرحل. كانت سعاد ترفع عاليا في الهواء رغيفًا من العجين لم تستطع أن تتلقاه لأول مرة فوق المطرحة مستويا فتكوم فوق بعضه وجعلت تفرده بأصابعها بحذر حتى لا يهترئ .

- فريد قال أن على الجميع أن يرحلوا بسرعة.

- قالتِ لي ذلك من قبل لكنك لم تحدثيني عن السبب.

- لا أعرف. لكن هكذا قال :

انشغلت سعاد بوضع قليل من الدقيق فوق المطرحة التي وضعتها فوق فخذها. نقلت إليها قرص عجين جعلت

تفرده بأناملها وقد ضمتها إلى بعضها. كانت قد فشـلت فـي فرد الرغيف الأول الذي تكوم فوق بعضه، ألقت بـه أيضـا فوق قفص الدجاج الذي صارت له جلبة الآن فـي محاولـة الأكل من أسفل سقف القفص. ثم قالت سعاد دون إرادة منها:

- أما زلت تبكين يا ليلى ...؟

-..................

- عليْ حدثني بذلك.

قالت بصوت خفيض كأنها تعتذر. ابتسـمت ليلـى ولمعت الدموع في عينيها. مسحت بظهـر يـدها اليسـرى دموعها. شعرت بسخونة يدها ووجهها. قالت :

- لم يترك شيئًا إلا وقاله لك. صار عفريتًا.

صارت كل منهما سعيدة. لم تعرف أي منهما سـبب هذه السعادة. ازدادت رخات المطر كثافـة فـي الخـارج. تقافزت الدجاجات وبدا كأنها ذعرت. قصـف رعـد شـديد وسمعا صوت أقدام مهرولة، ثم سمعا طرقًا سريعا على باب العِشة..

- إنه هو.

هتفت سعاد بفرح ونهضت بسرعة لتفتح له. دخـل علي مسرعا مبهور الأنفاس. كانت ليلى جالسة متربعة وقـد انحسر جلبابها عن ركبتيها قليلاً فجذبت الجلباب لتغطيهمـا. رأى وجه أخته أحمر يكاد يشتعل. نظر إلى سعاد التي كانت تنظر إليه فرأى وجهها مشتعلاً. قال :

- تخبزان ...؟

ضحكا بصوت عالٍ وضحك معهما.

- ماذا تريد ...؟

- أمك تريدك.

- اجلس حتى أنتهي.

- الآن تريدك.

وضرب الأرض بقدمه بينما كانـت سـعاد تشـعر بالزهو وهي تنظر إليه، وتسمع حديثه لأخته. قالت :

- اجلس يا علي. سأعد لك رغيفًا بالسمن والسكر.

- لا أريد.

قالها جازما لكنه أحس بالأسف.

- اجلسْ يا عليّ.

قالت : ليلى ذلك بطريقة تعني "اخْجل يا عليْ". وقف ينظر حوله متحيرا.

- تريد كرسيا ...؟

قالت : سعاد وهي تبتسم.

- سأجلس بالحوش.

علي يدرك أنه في الخبيز تنكشف سـيقان النسـاء. وأنهن بين الحين والآخر يجففن عـرق وجـوههن بطـرف جلابيبهن وينسين أنهن وهن يفعلن ذلك، يكشفن عن سيقانهن أكثر، وهو لا يريد أن يرى ذلك.

داف إلى الحوش وجلس جوار صينيتي العجين وفوق الأرض. دخلت سعاد خلفه وأحضرت مـن صـوانٍ أمامـه بطرمان السمن وبطرمان السكر وملعقة وعادت. حين وقفت أمامه رأى جسمها من الخلف جميلاً متسقًا. رأى ساقيها تلمع ربلتاهما. وشعرها المنسدل فوق ظهرها كثيفًا غنيا.

حين التفتت عائدة غض بصره، لكنها كانت تشـعر بنظراته تخترق ظهرها، بل أدركته بل قبل أن يغض بصره، على دمها بالفرح. خرجت سعاد إلى العِشة وجلسـت تضـع السمن والسكر في طبق. فردت قرصا من العجين، وطلبـت

من ليلى أن تدخله إلى الفرن، ولا تتركـه ينضـج تمامـا. صارت سعاد وهي في العِشة تجلس في مواجهة على الـذي يستطيع أن يراها من باب الحوش المفتوح. ارتبك قليلاً لأنه يرى ربلتي ساقيها وركبتيها مكشوفة أمامه. قرر أن لا ينظر ناحيتها. وإذا كلمته إحداهما يتكلم وهو ينظر إلـى الأرض. قالت سعاد :

- المطر شديد ...؟

- لا. سوف تغرق الدنيا فقط ......!

قال فضحك الثلاثة. لكنه ما يزال ينظر إلى الأرض وسعاد تنظر إليه مبتهجة. كان يشعر بنظراتها.

أخرجت ليلى الرغيف الخاص. ناولته لسـعاد التـي وضعته في الطبق. جعلت بالملعقة تقلبه في السمن والسـكر وتقطعه قطعا صغيرة. نهضت لتقدمه إلى عليْ. تعمدت وهي تضعه على الأرض أمامه تنظر إلى عينيه. رفع وجهه إليها. رأته حزينًا يكاد يبكي. أحست بحزن كطوفان. "فيم تفكر يـا علي ...؟". قال ذلك لنفسها وهي تـرى عينيـه السـوداوين تلمعان بذلك الحزن الذي لم تره فيهما من قبل. كـان علـي يفكر كيف أنه لن يرى وجه سعاد بعد ذلك كثيرا، وربما إلى

الأبد. يتذكر قوله لسميرة في الصباح لماذا لا تذهب وتبحث عن مرسي بنفسها. ويقول لنفسه "لماذا قلت لها ذلك ...؟".

عادت سعاد إلى العِشـة بعـد أن حملـت إحـدى الصينيتين المتبقيتين. وضعتهما ورفعت الصينيتين الفارغتين فوق الفرن. دخلت إلى الحوش لتحضر الصينية الأخيرة. هذه المرة لم تنظر إليه. لكنها أدركت أنه لا يأكل بشهية. "لمـاذا أغرقت الرغيف بالسمن كثيرا. صـار ثقـيلاً علـى معـدة الصبي ...؟" قالت لنفسها وهي تعرف أن هناك سببا آخـر، وإن كانت لا تعرفه بالضبط..

انتهى الخبيز. وقفت ليلى لحظات في الحوش حتـى يبرد جسمها كي لا تصاب بالبرد حين تخرج. أعطتها سعاد شالاً تلف به وجهها ورأسها. رفض علي أن يأخذ شيئًا يقيـه المطر. سمعت سعاد بعـد ذلـك صـوت أقـدامهما وهمـا يهرولان. جعلت تبكي بحرقة أمام الفرن.

حين دلفت ليلى وعلي إلى بيتهما وجدا أبواهمـا قـد ناما وأختهما الصغيرة. نام علي في الحوش بعد أن أحضـر حِراما من الحجرة الداخلية. لن ينام جوار ليلـى بعـد الآن. صار رجلاً أو لابد أن يكون كذلك.

ما كادت ليلى تستلقي فـوق السـرير حتـى قالـت لنفسها : "كم كنت قوية الليلة هل نسيت فريد فعلاً ...؟"

كانت تشعر وهي تتحدث عنه مع سعاد أنها تتحـدث من خارجها. حين بكت حدث ذلك رغما عنها. وهي تبكي لم تبتسم لتخفي دموعها، إنما أرادت أن تبتسم وأرادت الـدموع أن تسقط .....! لكنها ظلت تبكي كل ليلة حتى أمس، فهـل تفعل ذلك وهي لا تعرف له سببا ...؟

منذ موته - وهذا ما أدركت أنه يحيرهـا - تفكـر لماذا لم يقل لها شيئًا إلا في الليلة الأخيرة ...؟

"أقول لك يا ليلى شيئًا لم أقله لأحد. أنا لست متكبـرا ولا مغرورا. فقط أنا حزين وفريد في حزني. لـن تفهمـي كثيرا ما سأقوله لك. كنت أراك خارجة إلى القطار، أو عائدة منه، فيتمزق قلبي ألف قطعة ينزف أنهار دم. لكنـي كنـت أقول لنفسي أني لن أستطيع أن أمنع أحدا. أدرك ذلك جيـدا. لا أحد يستطيع أن يمنعكم من الخروج إلى القطار. لكـن لا أحد سيعيد القطار إليكم، ولا أحد منكم يستطيع أن يأتي بـه. هل تفهمين هذا الكلام ...؟ حزينة أنت لا تريدين سـماعي. تريدين أن أنظر إلى عينيك. أعرف أنك تحبين حبا عظيمـا

وأنا كذلك. وكما أحببتني في صمت، أحببتك في صمت. الصمت هو السماء التي نعيش تحتها جميعا. حتى سعاد التي اتهموها بي واتهموني بها، لم أطالها يوما كما يتصورون. أراها على غير ما ترونها. أسمع عن رقصها وفيض روحها. لكني لا أراها إلا لغزا حزينًا. هي مثلك وأنت مثلها. وكلاكما للآخر قريب. لكني أحبك أنت وإن كنت لا أكرهها. هل تفهمين يا ليلى ما أقول. صامتة وأنا أيضا لا أريد أن تتكلمي. تعرفين أني أدرس في المدينة. هل تعرفين المدينة ...؟ هل ذهبت إليها مرة ...؟ في المدينة نتحدث كثيرا ولا ننتظر شيئًا. هناك أعرف كل شيء. حين آتي هنا يلفني الحزن لأني أعرف من هناك ماذا سيحدث هنا. تندهشون لقطارات الجنود والخواجات لكني أعرف من هم. من أين يأتون وأين يذهبون حاولت كثيرا أن أتكلم هنا لكن يصدني شيء قاس. شيء يقول لي أن كلامي ستطويه موجات البحيرة البطيئة ورمال الصحراء الراكدة والريح. حتى الشيخ مسعود حين حاولت أن أحدثه رأيته معجبا بي أكثر ما هو مصغٍ إلى، وبدا أنه لا يفهم شيئًا مما أقول. وهذه الليلة بداية عذاب لي كبير. فأنا أعرف معنى المطر ومعنى

ثورة الدنيا. هل تفهمين. أنك تبكين. فقط تبكين. لو تكفين عن البكاء ......!".

وأخذ يديها بين يديه. تشعر بدفء يديه حتـى الآن. أرادت أن تحدثه فلم تجده ...! أحسـت بالنـار فـي دمهـا فتساءلت " : هل حقًا قتلتك الحكومة كما قال أبوك ...؟".

لم يعرف أحد ما حدث بينهما تلـك الليلـة فحملـت العذاب وحدها ...! ظلت خائفة أياما وأسابيع وهي تلقاه بعـد ذلك. برغم أنها صدقته قالت لنفسها : "وما الـذي يمنـع أن يكون كاذبا ...؟" لكنه كان صادقًا حين قال إنها لـن تحمـل منه. فهل كان يفعـل شـيئًا لا تعرفـه حتـى يقيهـا شـر الفضيحة ...؟ حين أعطته نفسها لم يشجعها قط قوله أنها لن تحمل منه. بل تمنت لو حملت منه وصـارت فضـيحة ...! كانت ستقاومهم بوحشية ولم يكن سيعتريها أي خـوف. كـم ودت لو قالت أنها امرأة فريدة حتى بعد موتـه. لـم تكـن ستخشى أبدا أن يتقدم الخُطاب أو يتأخرون. كانت لا تـرى الدنيا إلا به لكنه لم يعطها شيئًا. هل علمته المدينة ذلك ...؟ لم يحدثها عما يفعله بها كاملاً، وهي لا تـذكر منهـا غيـر واجهة السينما.

"البحيرة والصحراء. أسماك ميتـة وطيـور خبيثـة وشمس غادرة ومحطة تمر عليها قطارات الغرباء. أي بقعة من الأرض هذه ...؟" لكنها لم تكره المكان مثله. فهنا كبرت وعاشت وأحبت نسمات الهواء.

قال لها أنه سيموت ولم تصدقه. لكنه فعلها وترك لها أوراقًا مهترئة تحاول ما استطاعت أن تفك رموزهـا. ومـا تقرأه ليلى في الحقيقة هو ما قـرأه عليهـا فريـد وحفظتـه فمعرفتها القديمة بالقراءة لا تمكنها من فك خطـه. والليلـة أدركت أنها لا تفهم ما حفظته. هل كان فريـد سـرابا ...؟ وأخرجت الأوراق لكنها لم تستطع أن تقرأ كلمة واحدة. لقـد نسيت أيضا ما حفظته. انكمشت تحت الغطاء حتـى كـادت تتلاشى ورأت فريد أمامها.

هل تعرف ماذا حدث لي ...؟ لقد عادت البكارة إلى مكانها. أحسست بذلك وأنا نائمة. رأيت كأنما بشر من شعاع يحيطون بسرير ويعيدونها مكانها. فـي الصـباح أدخلـت أصبعي فتحسستها. كنت أتمنى أن تعيش فمـت وتركتنـي. علمتني أننا تعساء جدا وفتحت قلبي على الخوف، ولم يعرف أحد سر بكائي. هل تعرف ماذا حدث اليوم ...؟ قال علي لي

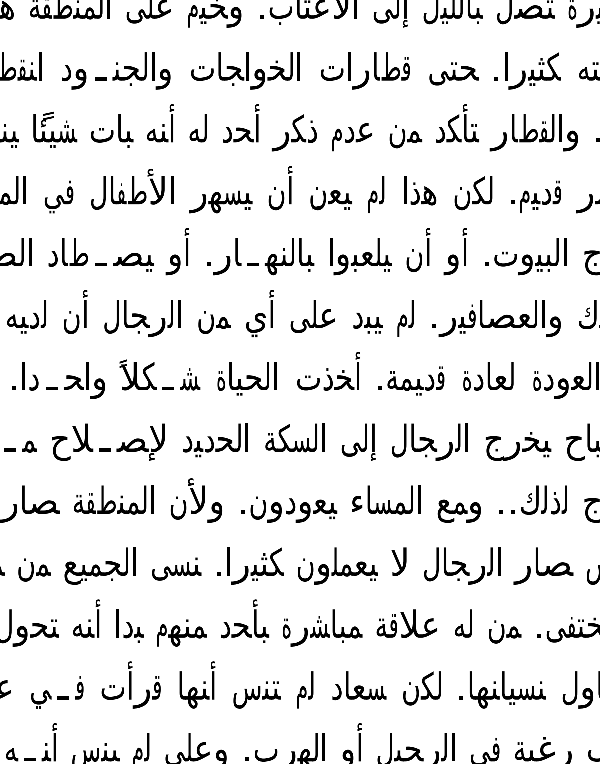
ونحن نتناول غداءنا أن سميرة صارت مجنونة، وسألني عن المدينة ولم أعرف كيف أجيبه. رأيت في عينيه سؤالاً حائرا أو رغبة غير مفهومة. منذ أيام رأيته يحاول قراءة أوراقك. كنت أخرجتها من صدري ووضعتها تحت الوسادة ونسيتها. لأول مرة أنسى. لكني جذبتها منه وعرفت لماذا كان يحـوم حولي قبل ذلك. فهل تراه قرأ شيئًا منها ...؟ إنه يعرف قليلاً من القراءة. لكنه إذا صمم على فعل شيء فعله. فلأكثر مـن عشرة أعوام ينام بجواري، ولا يعرفه أحد مثلي، لـو شـاء سيقرأ حتى السحر. سألتني سعاد دون أن يسمعنا علي ونحن نخبز "لماذا صار حزينًا ...؟" كدت أبوح بالسر. بأنني كنـت امرأة لرجل لم يعطني شيئًا ومات مخلفًا أوراقًا لا قيمة لها.. آه.. أدركت أنها تسألني عن علي. كيف أني لم أعـد أذكـر كلمة واحدة من أوراقك. ها هي كأنها بيضاء مع أن ما بهـا كان جميلاً.

وتنهدت.

لماذا تركتني في العراء ...؟ أشياء كثيـرة تبعـدني عنك. لقد عادت البكارة مكانها وأنا لا أكـذب. كـل شـيء يبعدني عنك. كل شيء.

خروج

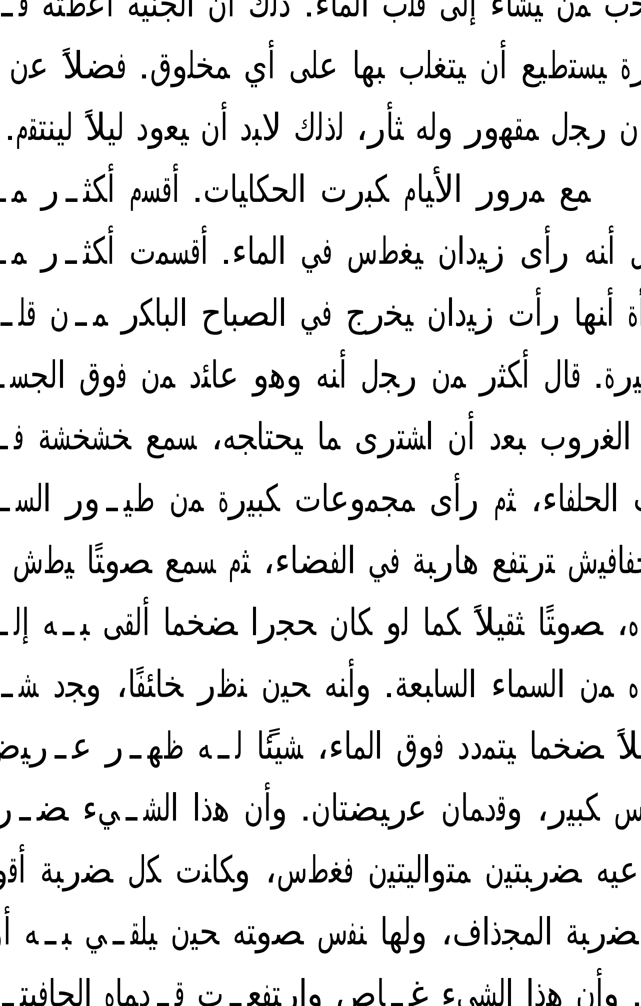
زيدان



انقضى الشتاء ولم تقل النساء للأطفال أن مياه البحيرة تصل بالليل إلى الأعتاب. وخيم على المنطقة هدوء افتقدته كثيرا. حتى قطارات الخواجات والجنود انقطعت تمام. والقطار تأكد من عدم ذكر أحد له أنه بات شيئًا ينتمي لعصر قديم. لكن هذا لم يعن أن يسهر الأطفال في المساء خارج البيوت. أو أن يلعبوا بالنهار. أو يصطاد الصبية السمك والعصافير. لم يبد على أي من الرجال أن لديه رغبة في العودة لعادة قديمة. أخذت الحياة شكلاً واحدا. فمع الصباح يخرج الرجال إلى السكة الحديد لإصلاح ما قد يحتاج لذلك.. ومع المساء يعودون. ولأن المنطقة صارت بلا مفتش صار الرجال لا يعملون كثيرا. نسى الجميع من مات أو اختفى. من له علاقة مباشرة بأحد منهم بدا أنه تحول عنها ويحاول نسيانها. لكن سعاد لم تنس أنها قرأت في عيني زينب رغبة في الرحيل أو الهرب. وعلي لم ينس أنه قال

لسميرة لماذا لا تذهب وتبحث بنفسها عن مرسي ...؟ وليلى لم تنس أن علي سألها عن المدينة ...؟

بعد رحيل نعمة أول الشتاء اختفى زيدان تماما. لـم يره أحد بعد ذلك. التقى عامل المزلقان مع أحـد الرجـال، حدثه عن زيدان وكيف إنه قابله وسمع منه أنه صار مخاويا لجنية. ورغم أن عامل المزلقان أبدى أسفه وحزنـه علـى الحالة التي وصل إليها زيدان، إلا أن الرجل أشاع الخبر في البيوت العشرين، التي صار بها بيتان خاليان الآن، هما بيت المفتش وبيت زيدان، حولهما الأطفال إلى مكـانين لقضـاء الحاجة، مما جعل أم جابر التي صارت تعيش مـع زينـب، تغلق بيتها بالمتفاح. خافت النساء اللاتي لـم يعـدن يقلـن للأطفال أن مياه البحيرة تصل للأعتاب، وقلن لهم أن زيدان يخرج من البحيرة في المساء، ليخطـف الأطفـال ليقـدمهم طعاما للجنية. وكثرت الحكايات حول زيدان، فصار يبيـت لياليه وسط المياه، ويصعد بالنهار خارجا ليدور في مـزارع التين القريبة وحول الطواحين حتى تجف ملابسه، ويكون قد جمع بعضا من التين – رغم أن ثمر التين مـن المحاصـيل الصيفية – ليعود به إلى الجنية هدية في المساء ...!



صار زيدان رجلاً يمكن أن يظهر في أي وقت ليلاً ليسحب من يشاء إلى قلب الماء. ذلك أن الجنية أعطته قوة جبارة يستطيع أن يتغلب بها على أي مخلوق. فضلاً عن أن زيدان رجل مقهور وله ثأر، لذلك لابد أن يعود ليلاً لينتقم.

مع مرور الأيام كبرت الحكايات. أقسم أكثر من رجل أنه رأى زيدان يغطس في الماء. أقسمت أكثر من امرأة أنها رأت زيدان يخرج في الصباح الباكر من قلب البحيرة. قال أكثر من رجل أنه وهو عائد من فوق الجسر عند الغروب بعد أن اشترى ما يحتاجه، سمع خشخشة في نبات الحلفاء، ثم رأى مجموعات كبيرة من طيور السلو والخفافيش ترتفع هاربة في الفضاء، ثم سمع صوتًا يطش في المياه، صوتًا ثقيلاً كما لو كان حجرا ضخما ألقى به إلى المياه من السماء السابعة. وأنه حين نظر خائفًا، وجد شيئًا طويلاً ضخما يتمدد فوق الماء، شيئًا له ظهر عريض، ورأس كبير، وقدمان عريضتان. وأن هذا الشيء ضرب بذراعيه ضربتين متواليتين فغطس، وكانت كل ضربة أقوى من ضربة المجذاف، ولها نفس صوته حين يلقي به أول مرة. وأن هذا الشيء غاص وارتفعت قدماه الحافيتان

العريضتان ثم اختفتا، وخرجت من الماء فقاقيع كثيرة وكبيرة ظلت تبقبق لوقت طويل.

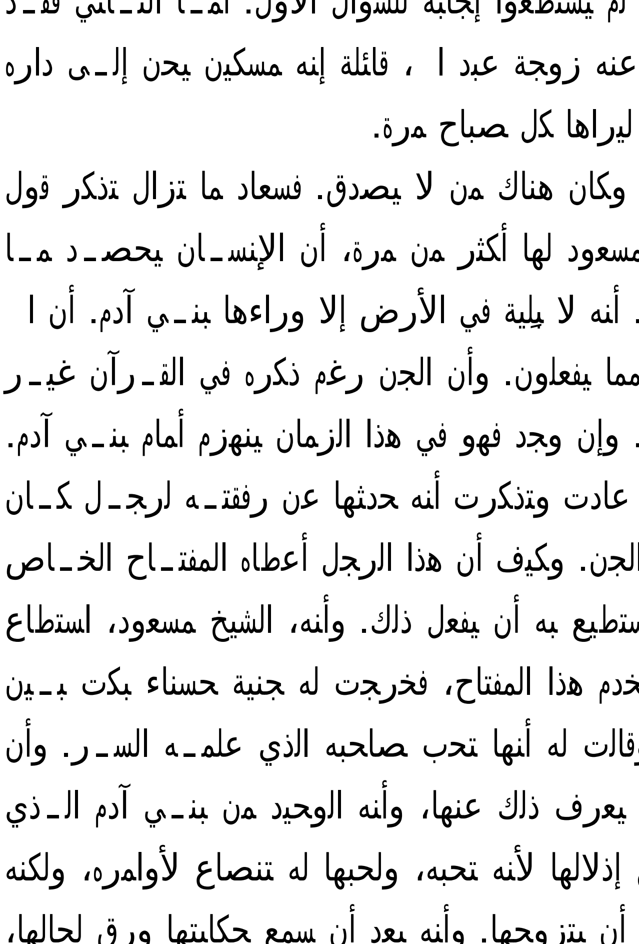
قال كل من حكى هذه الحكاية، أنه اعتقـد أن هـذا المخلوق هو زيدان، لكنه حين رأى الكفين بدقـة، وجـدهما مسدودتين بلا أصابع، قطعة واحدة عريضة ولـيس اثنـين، فآمن أنه مخلوق غريب. لكن حين كان أحد يسأل ماذا يمكن أن يكون المخلوق الغريب ...؟، كان من يحكي يتردد قليلاً، ثم يقول إنه زيدان ولا أحد غيره. ثم قالوا أن هـذا الشـكل الجديد للقدمين طبيعي، لأنه وقد صار يعيش مع الجنية فـي أعماق الماء، لابد أن تصبح قدماه على هذا النحو، حتى يجيد السباحة، وأن الجنية هي التي فعلت بقدميه ذلك ليصل إليهـا مسرعا. وآمن الجميع أن زيدان يعود إلى بيته الجديد تحـت الماء كل مساء.

وقالت أكثر من امرأة أنها وهي تصعد في الصـباح الباكر فوق السطح، لتنزح الماء المتراكم بعد المطر، وتدفعه ناحية الميزاب – ولا تنسى أن تلعن من جعل السطح منحدرا إلى الوراء في أكثر من موضع بعكس مكان الميزاب – رأت شيئًا عجيبا. رأت في البداية شيئًا طافيا مستطيلاً ومربعا يبدو

مثل قربة كبيرة منتفخة. خافت لأنها تصورته جثـة قتيـل. لكنها قبل أن تصرخ، رأته يتحرك إلى أعلى قليلاً. أمسـكت أنفاسها. بدأ بعد ذلك ينخفض. قالت في نفسها أنـه المـوج الناعم والماء الذي صار عفنًا وثقيلاً وهما يسـتيقظان فـي الصباح، فبالليل كل شيء ينام حتى مياه البحيرة. ثـم بـدأت ترتفع أمام هذا الشيء العريض الضخم جوزة هند كبيرة، أو شيء مثل جوزة الهند وإن كان أسود. أمـام هـذه الجـوزة ترتفع ذراعان ضخمتان طويلتان، أصابع كفيهمـا ضخـمة، وليست الكفان مسدودتين كما قال الرجال. ارتفعت أولاً ذراع ثم أخرى، ثم ارتفعت جوزة الهند حاملة وجها كبيرا مشـوها هو وجه زيدان وقد صار في حجم فتحة الفرن. يحدث ذلك، تقول المرأة، وقلبها يغوص في صدرها، ثم يفر منهـا إلـى الأرض. وزاد بعضهن، فقلن إنهـن بلْـن علـى أنفسـهن وتجمدن. وقالت واحدة أنها لم تحس بأي رغبة في البـول، لكنها أحست بالبول يحرق فخذيها وهو ينزل منحدرا علـى جداري الساقين من الداخل، ويجري في قنـوات الغضـون الضيقة بين اللحم المترهل. وقلن جميعا أنهن لم يستطعن أن يتحركن أو يصرخن أو حتى يغمض عيونهن، وكأن المشهد

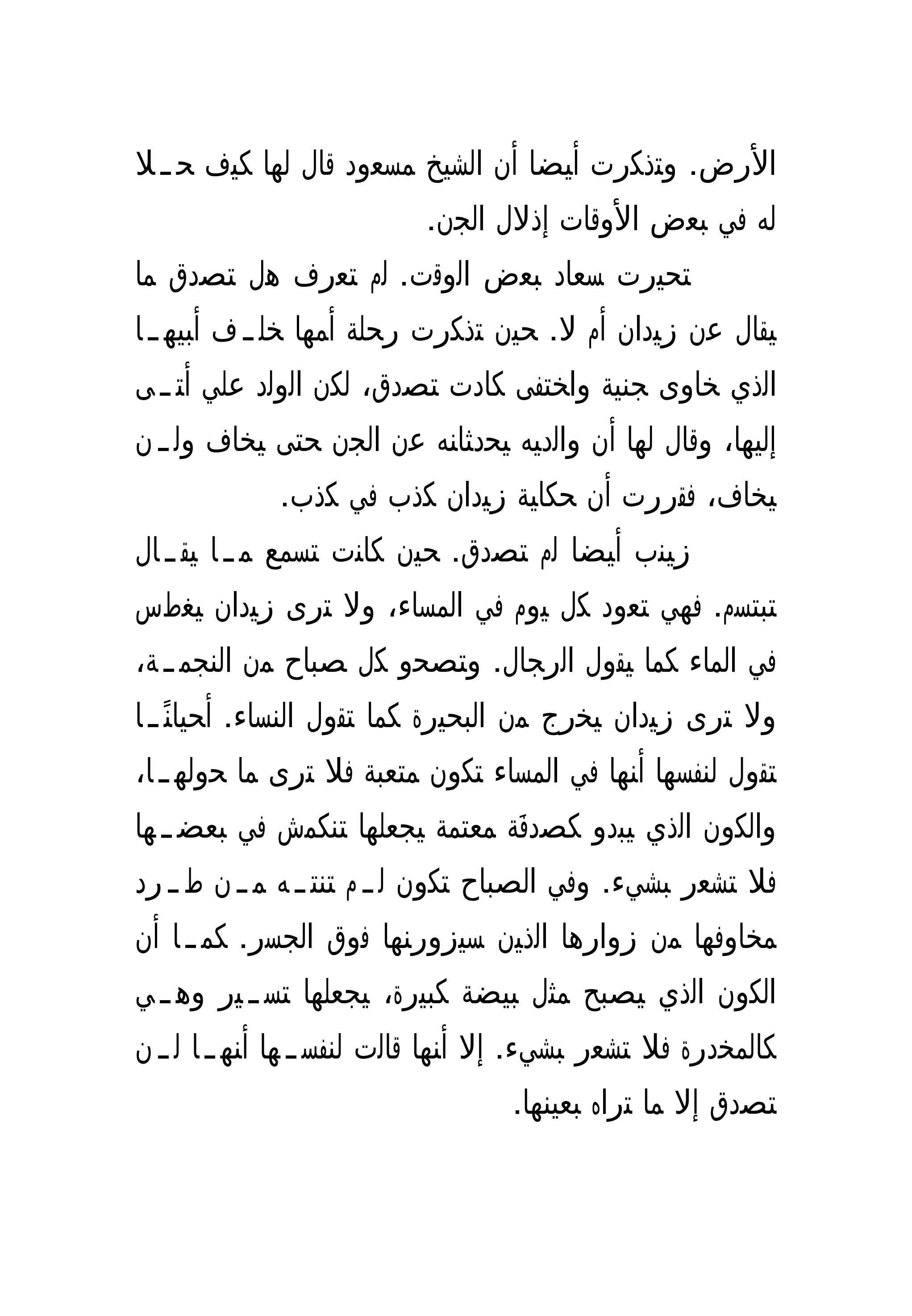
كله مفروض عليهن أن يعشنه ويرينه. بعد ذلك، كما قال، بدأ زيدان يفرق بذراعيه نبات الحلفاء والهيش الكثيف، وطارت الطيور النائمة والمختبئة، وأن المشهد في النهاية كان مبهرا لأن الشمس التي تشرق قادمة من عند الجسر، كانت خلف زيدان وهو ينهض من الماء، فبدت المياه كأنها صحراء، صفراء وحمراء تحير العين، وبدا زيدان بثيابه الصفراء المبتلة يبرق كفص كهرمان ضخم. وحين غادر الماء والنباتات وخرج إلى الشاطئ، انصرف بعيدا عن البيوت متجها إلى مزارع التين، وكان كلما خطا خطوة، ينكمش جسمه ليصير طبيعيا..

بقيت من حكايات الرجال والنساء الحيرة من أشياء غير مفهومة. فلماذا تكون كفاه مسدودتين في المساء، وفي الصباح تظهر لهما أصابع ...؟ ولماذا يخرج من ناحية البيوت، ثم يعود يدور ليمشي مسافة كبيرة في اتجاه مزارع التين، مع أنه لو خرج من ناحية الجسر لكان أقرب إليها ...؟



لم يستطعوا إجابة للسؤال الأول. أما الثاني فقد أجابت عنه زوجة عبد ا ، قائلة إنه مسكين يحن إلى داره فيخرج ليراها كل صباح مرة.

وكان هناك من لا يصدق. فسعاد ما تزال تذكر قول الشيخ مسعود لها أكثر من مرة، أن الإنسان يحصد ما يزرعه. أنه لا بلية في الأرض إلا وراءها بني آدم. أن ا بريء مما يفعلون. وأن الجن رغم ذكره في القرآن غير موجود. وإن وجد فهو في هذا الزمان ينهزم أمام بني آدم. إلا أنها عادت وتذكرت أنه حدثها عن رفقته لرجل كان يسخر الجن. وكيف أن هذا الرجل أعطاه المفتاح الخاص الذي يستطيع به أن يفعل ذلك. وأنه، الشيخ مسعود، استطاع أن يستخدم هذا المفتاح، فخرجت له جنية حسناء بكت بين يديه، وقالت له أنها تحب صاحبه الذي علمه السر. وأن صاحبه يعرف ذلك عنها، وأنه الوحيد من بني آدم الذي استطاع إذلالها لأنه تحبه، ولحبها له تنصاع لأوامره، ولكنه لا يريد أن يتزوجها. وأنه بعد أن سمع حكايتها ورق لحالها، صرفها، ووجد أن دموعها صارت أكوام ملح صغيرة فوق


الأرض. وتذكرت أيضا أن الشيخ مسعود قال لها كيف حلا له في بعض الأوقات إذلال الجن.

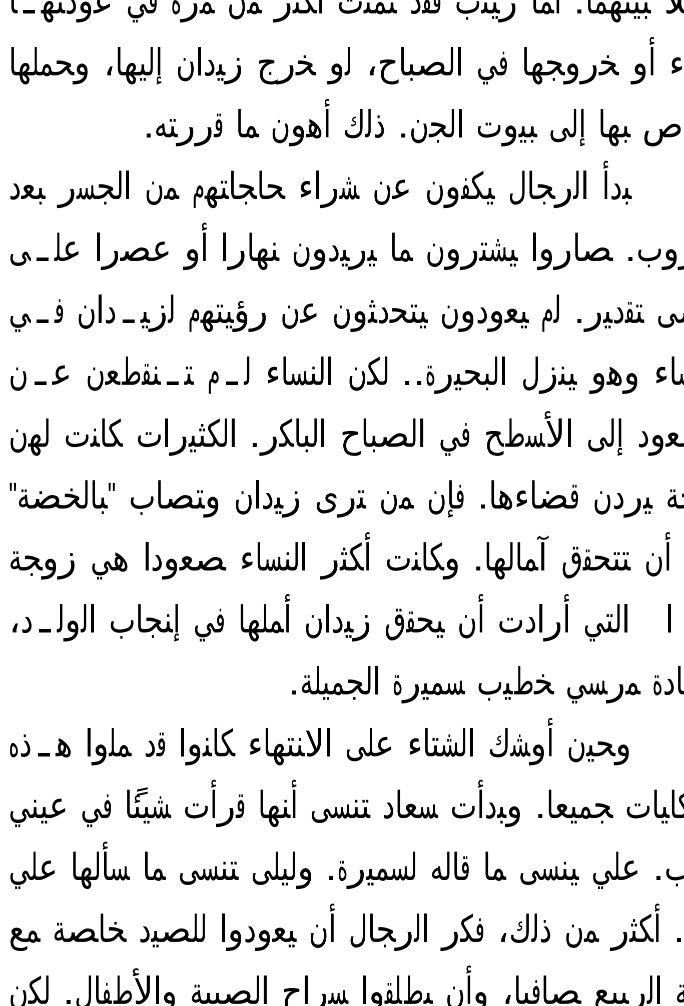
تحيرت سعاد بعض الوقت. لم تعرف هل تصدق ما يقال عن زيدان أم لا. حين تذكرت رحلة أمها خلف أبيها الذي خاوى جنية واختفى كادت تصدق، لكن الولد علي أتى إليها، وقال لها أن والديه يحدثانه عن الجن حتى يخاف ولن يخاف، فقررت أن حكاية زيدان كذب في كذب.

زينب أيضا لم تصدق. حين كانت تسمع ما يقال تبتسم. فهي تعود كل يوم في المساء، ولا ترى زيدان يغطس في الماء كما يقول الرجال. وتصحو كل صباح من النجمة، ولا ترى زيدان يخرج من البحيرة كما تقول النساء. أحياناً تقول لنفسها أنها في المساء تكون متعبة فلا ترى ما حولها، والكون الذي يبدو كصدفَة معتمة يجعلها تنكمش في بعضها فلا تشعر بشيء. وفي الصباح تكون لم تنتبه من طرد مخاوفها من زوارها الذين سيزورنها فوق الجسر. كما أن الكون الذي يصبح مثل بيضة كبيرة، يجعلها تسير وهي كالمخدرة فلا تشعر بشيء. إلا أنها قالت لنفسها أنها لن تصدق إلا ما تراه بعينها.

وكانت ليلى لا تزال تعتقد في قول فريد لها أن مـا يقال هنا كذب كامل.. وأن الشيخ مسعود قتل بيد فاعـل وإن جهلوه. لكنها حين تتذكر أن فريد حدثها أيضا عـن نهايـات محتومة، ولعنة مفروضة، وأن أحدا لا يدرك ذلك وإن اتجه إليه، تكاد تصدق ما يقال ثم تتذكر كيف عادت البكارة إليها. تقول في نفسها إذا كان الحب كذبا، فكيف أصدق ما يقال عن زيدان ...؟

أما علي فلم يفكر كثيرا. كره أبويه إذا حـدثاه عـن الجن ليخيفاه، قال لسعاد إنه لو رأى زيدان سـيكلمه، ولـو غطس في الماء سيغطس وراءه ولو إلى قصر مسحور.

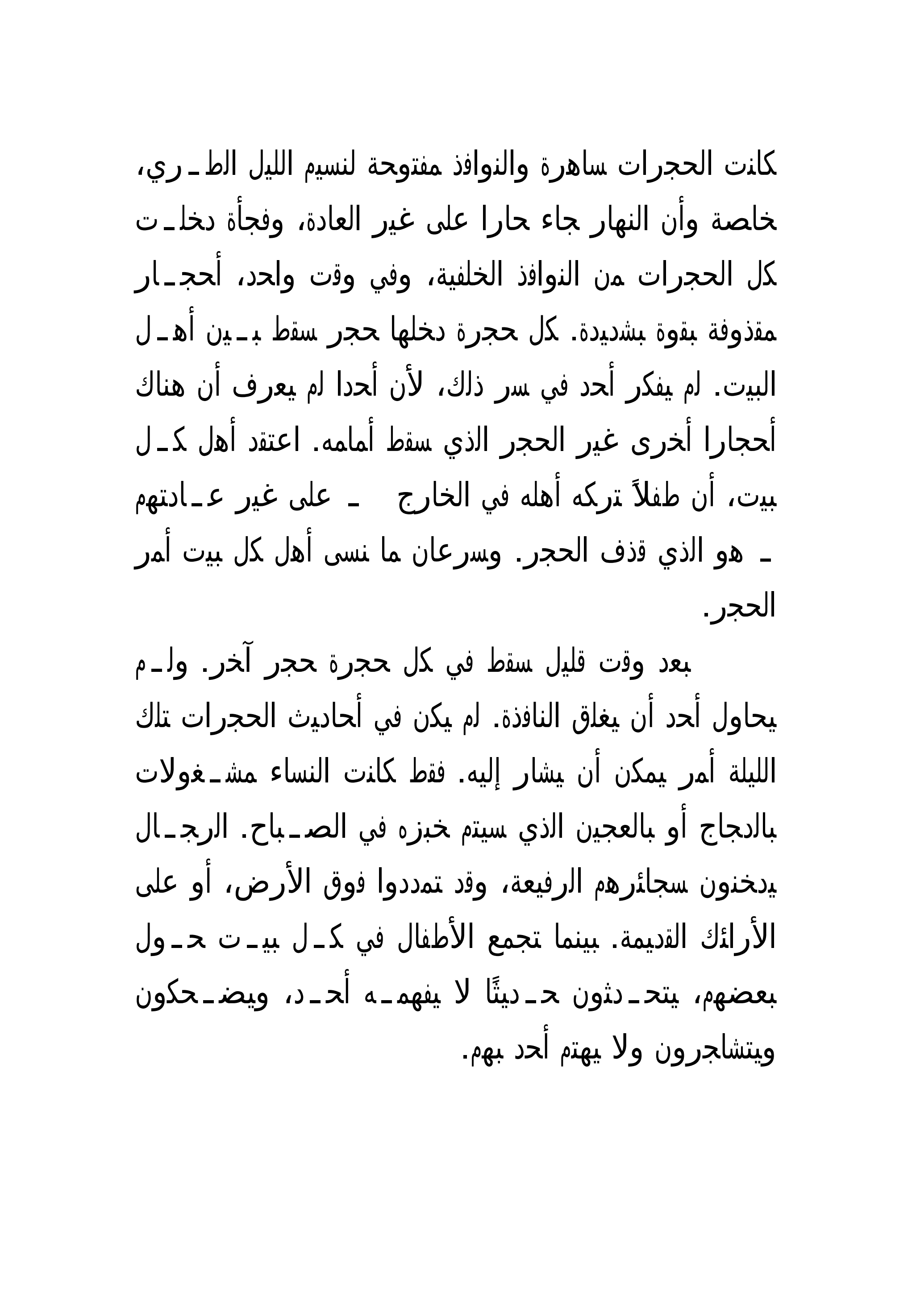
لكن سعاد لم تعد تجرؤ على أن تخرج لـيلاً. حتـى الفواريكة صارت توقدها داخل العِشة التي تفتح بابها ليتسرب الدخان، وتقول في نفسها أن الجن يخاف النـار! وانقطعـت ليلى عن زيارتها إلا إذا رافقها علي حتى البـاب. وكانـت أمهما تظل واقفة على باب عِشة بيتهم حتى تراها وقد دخلت بيت سعاد، وترى ابنها راجعا وحده فتنتظره حتى يصل، ولا تتركه يتأخر في الخارج. وحين يذهب علي لإحضارها مـن عند سعاد، كانت تمسك بذراعه بقوة، ولا تتركه إلا بعـد أن



يدخلا بيتهما. أما زينب فقد تمنت أكثر من مرة في عودتها مساء أو خروجها في الصباح، لو خرج زيدان إليها، وحملها وغاص بها إلى بيوت الجن. ذلك أهون ما قررته.

بدأ الرجال يكفون عن شراء حاجاتهم من الجسر بعد الغروب. صاروا يشترون ما يريدون نهارا أو عصرا على أقصى تقدير. لم يعودون يتحدثون عن رؤيتهم لزيدان في المساء وهو ينزل البحيرة.. لكن النساء لم تنقطعن عن الصعود إلى الأسطح في الصباح الباكر. الكثيرات كانت لهن حاجة يردن قضاءها. فإن من ترى زيدان وتصاب "بالخضة" لابد أن تتحقق آمالها. وكانت أكثر النساء صعودا هي زوجة عبد ا التي أرادت أن يحقق زيدان أملها في إنجاب الولد، وإعادة مرسي خطيب سميرة الجميلة.

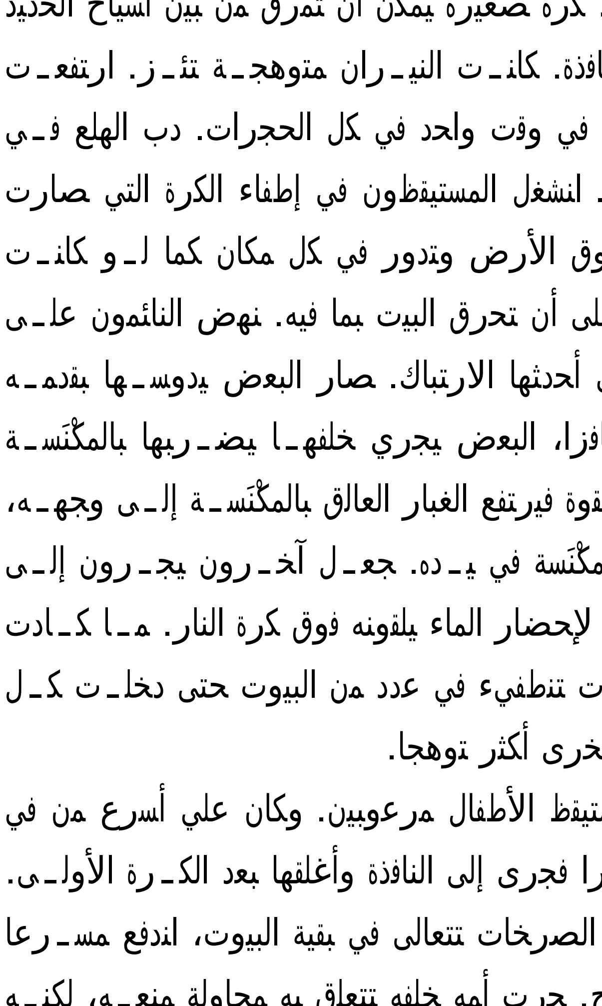
وحين أوشك الشتاء على الانتهاء كانوا قد ملوا هذه الحكايات جميعا. وبدأت سعاد تنسى أنها قرأت شيئًا في عيني زينب. علي ينسى ما قاله لسميرة. وليلى تنسى ما سألها علي عنه. أكثر من ذلك، فكر الرجال أن يعودوا للصيد خاصة مع بداية الربيع صافيا، وأن يطلقوا سراح الصبية والأطفال. لكن في ليلة من ليالي الربيع، لم تدركها ريح الخماسين وترابها،



كانت الحجرات ساهرة والنوافذ مفتوحة لنسيم الليل الطري، خاصة وأن النهار جاء حارا على غير العادة، وفجأة دخلت كل الحجرات من النوافذ الخلفية، وفي وقت واحد، أحجار مقذوفة بقوة بشديدة. كل حجرة دخلها حجر سقط بين أهل البيت. لم يفكر أحد في سر ذلك، لأن أحدا لم يعرف أن هناك أحجارا أخرى غير الحجر الذي سقط أمامه. اعتقد أهل كل بيت، أن طفلاً تركه أهله في الخارج - على غير عادتهم - هو الذي قذف الحجر. وسرعان ما نسى أهل كل بيت أمر الحجر.

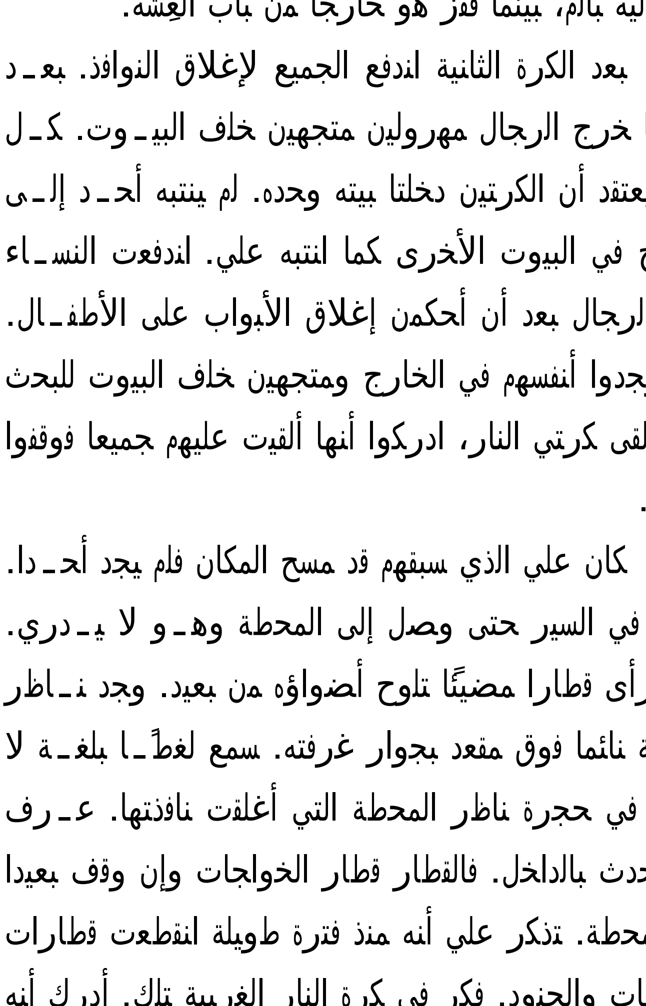
بعد وقت قليل سقط في كل حجرة حجر آخر. ولم يحاول أحد أن يغلق النافذة. لم يكن في أحاديث الحجرات تلك الليلة أمر يمكن أن يشار إليه. فقط كانت النساء مشغولات بالدجاج أو بالعجين الذي سيتم خبزه في الصباح. الرجال يدخنون سجائرهم الرفيعة، وقد تمددوا فوق الأرض، أو على الأرائك القديمة. بينما تجمع الأطفال في كل بيت حول بعضهم، يتحدثون حديثًا لا يفهمه أحد، ويضحكون ويتشاجرون ولا يهتم أحد بهم.

حين تقدم الليل قليلاً كان كثيرا من الأطفال قد ناموا. النساء قد انتهين من أعمالهن الغريبة التي يحلو لهن القيام بها في المساء. سعاد تشكو الوحدة، وتدور من الحجرة الداخليـة إلى الحوش تفكر في أنها لابد أن لا تنتظر أن يأتي إليها أحد من عند زوجها، وعليها أن تتم ما فكرت فيه كثيـرا، فعلـي صار رجلاً الآن وأكثر من رجل. وكانت زينب قد انتهت من غسيل بعض ثيابها، وأعدت مخلاة كبيرة وضعت بهـا مـا سوف تحتاج إليه، في رحلتها التي قررتها ولم يعـرف بهـا أحد، وخبأتها في مكان في العِشة حتى يأتي اليوم الذي تقرر فيه الرحيل. وليلى تنتظر أن ينام أبواها لتنظر للمرة الأخيرة في أوراق فريد وتمزقها، أما علي فكان مستلقيا على فـرش فوق الأرض في الحوش، وقد حدقت عيناه فـي المصـباح الغازي، الذي وضعته أمه بعيدا خشـية أن يحـدث شـيء فيحرقه وهو نائم. وكان عبد ا قد استلقى مهموما بعـد أن اكتشف فجأة، أنه لا أهمية لأن تكون الشمس خلفه أو أمامه، وأنه قد ضيع عمره شاكيا من شيء لا يد له فيه، في الوقـت الذي كانت زوجته ما تزال ساهرة، وجالسة تنظر إلى بناتها الصغيرات النائمات عاريات إلا من مزق ثياب.



في ذلك الوقت دخلت كرة من اللهب طائرة من نافذة كل حجرة. كرة صغيرة يمكن أن تمرق من بين أسياخ الحديد الضيقة للنافذة. كانت النيران متوهجة تئز. ارتفعت الصرخات في وقت واحد في كل الحجرات. دب الهلع في كل حجرة. انشغل المستيقظون في إطفاء الكرة التي صارت تتدحرج فوق الأرض وتدور في كل مكان كما لو كانت مصممة على أن تحرق البيت بما فيه. نهض النائمون على الجلبة التي أحدثها الارتباك. صار البعض يدوسها بقدمه فيصرخ قافزا، البعض يجري خلفها يضربها بالمكْنَسة الصغيرة بقوة فيرتفع الغبار العالق بالمكْنَسة إلى وجهه، وتشتعل المكْنَسة في يده. جعل آخرون يجرون إلى المرحاض لإحضار الماء يلقونه فوق كرة النار. ما كادت أكثر الكرات تنطفيء في عدد من البيوت حتى دخلت كل بيت كرة أخرى أكثر توهجا.

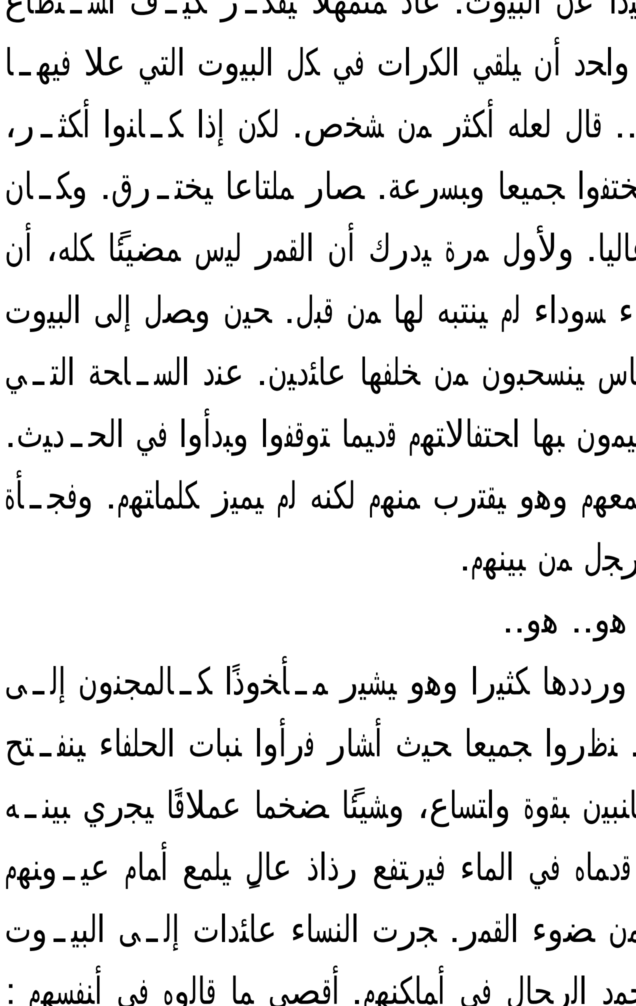
استيقظ الأطفال مرعوبين. وكان علي أسرع من في البيت تفكيرا فجرى إلى النافذة وأغلقها بعد الكرة الأولى. حين سمع الصرخات تتعالى في بقية البيوت، اندفع مسرعا إلى الخارج. جرت أمه خلفه تتعلق به محاولة منعه، لكنه



دفعها بقوة وهو لا يدري، فسقطت خلفه على مقعدتها وهي تنظر إليه بألم، بينما قفز هو خارجا من باب العِشة.

بعد الكرة الثانية اندفع الجميع لإغلاق النوافذ. بعد إطفائها خرج الرجال مهرولين متجهين خلف البيوت. كل رجل يعتقد أن الكرتين دخلتا بيته وحده. لم ينتبه أحد إلى الصياح في البيوت الأخرى كما انتبه علي. اندفعت النساء خلف الرجال بعد أن أحكمن إغلاق الأبواب على الأطفال. حين وجدوا أنفسهم في الخارج ومتجهين خلف البيوت للبحث عمن ألقى كرتي النار، ادركوا أنها ألقيت عليهم جميعا فوقفوا ذاهلين.

كان علي الذي سبقهم قد مسح المكان فلم يجد أحدا. استمر في السير حتى وصل إلى المحطة وهو لا يدري. هناك رأى قطارا مضيئًا تلوح أضواؤه من بعيد. وجد ناظر المحطة نائما فوق مقعد بجوار غرفته. سمع لغطًا بلغة لا يفهمها في حجرة ناظر المحطة التي أغلقت نافذتها. عرف ماذا يحدث بالداخل. فالقطار قطار الخواجات وإن وقف بعيدا عن المحطة. تذكر علي أنه منذ فترة طويلة انقطعت قطارات الخواجات والجنود. فكر في كرة النار الغريبة تلك. أدرك أنه



سار بعيدا عن البيوت. عاد متمهلاً يفكر كيف استطاع شخص واحد أن يلقي الكرات في كل البيوت التي علا فيها الصياح.. قال لعله أكثر من شخص. لكن إذا كانوا أكثر، فكيف اختفوا جميعا وبسرعة. صار ملتاعا يخترق. وكان القمر عاليا. ولأول مرة يدرك أن القمر ليس مضيئًا كله، أن به أجزاء سوداء لم ينتبه لها من قبل. حين وصل إلى البيوت وجد الناس ينسحبون من خلفها عائدين. عند الساحة التي كانوا يقيمون بها احتفالاتهم قديما توقفوا وبدأوا في الحديث. كان يسمعهم وهو يقترب منهم لكنه لم يميز كلماتهم. وفجأة صرخ رجل من بينهم.

هو.. هو..

ورددها كثيرا وهو يشير مأخوذًا كالمجنون إلى البحيرة. نظروا جميعا حيث أشار فرأوا نبات الحلفاء ينفتح إلى الجانبين بقوة واتساع، وشيئًا ضخما عملاقًا يجري بينه وتطش قدماه في الماء فيرتفع رذاذ عالٍ يلمع أمام عيونهم أبيض من ضوء القمر. جرت النساء عائدات إلى البيوت بينما تجمد الرجال في أماكنهم. أقصى ما قالوه في أنفسهم :

"كيف يفعل زيدان هذا بنا ولماذا ...؟" ثم قالهـا أكثـر مـن شخص بصوت عالٍ، فسمعها علي الذي وصل إليهم.

لم يقف ليسمع أكثر من ذلك. أخذ طريقه إلى البيت. أحس بحاجة شديدة إلى النوم. عند الباب أحس أن شيئًا بعنقه يكاد يخنقه.ِ أن عينيه تجحظان بل وتقفزان في الفراغ. وجهه ينتفخ بالضجر. في صدره يغلي ماء مليء بالحصى الساخن.

نظر خلفه فرأى أباه ما يزال واقفًا في السـاحة مـع الرجال. ترك القوة التي تكاد تنفجر في داخله، تدفع قدميه في هدوء وثبات وتصميم، في اتجاه بيت سعاد.

* * * * * *

عبد ا

استسلم عبد ا وبدا راضيا. نهض في الصباح ناسيا ما حدث بالليل. أخذ عدته على كتفه وقطع مشواره اليـومي المتكرر منذ أكثر من عشرين سنة. ولأول مـرة لا يشـعر بحرارة الشمس قوية على قفاه رغم أن الوقت خماسيني. مرة واحدة وهو يسير تذكر كرات النار وهلع الليلة الماضية. قال في نفسه بسرعة : "لا يد لنا في شيء". طرد كل قلق يمكـن أن يساوره. وعاد في المساء فوجد المرأة زوجتـه تصـرخ وتولول في وجهه..

كانت جالسة متكومة في ركن من الحـوش. حولهـا النساء والبنات الصغيرات الخمس. ما كادت النساء يسـمعن صوته وهو يدخل من باب العِشة، ثم وهو يضـع المقطـف والعتلة فوق ظهر الفرن، حتى انسحبن صامتات. نظر عبـد ا إليهن في دهشة ثم خاف وأحس أن الحدبة التـي فـوق ظهره تعلو. دخل الحوش هادئًا صامتًا فقامت المرأة تصرخ وتولول :

- سميرة.. سميرة يا عبد ا ..

ولطمت خديها والبنات الخمس الصغيرات انفجـرن في البكاء حولها. بينما اتجه عبد ا إلى الحجرة الداخليـة. أحس أن زمنًا طويلاً انقضى وهو يقطع الأمتار الأربعة حتى دخل الحجرة. تجاوز عبد ا الخمسين عاما، بحث كثيرا عن الولد ولم يحظ به، أنقذه ا من دخان الكوك. طاردته الشمس حقًا أكثر من عشرين عاما، على وجه زوجته نقوش خضراء مبعثرة سأل نفسه كثيرا كيف لم يرها قبل الزواج، والحدبـة التي فوق ظهره لم يولد بها ولن تبدأ تظهر إلا بعد الثلاثين، حين صار نظره معلقًا فوق القضبان، يبحث ذاهبا آيبا عـن أعطاب فيها. ضاع من عبد ا في النهاية كل شيء، وانهـد فوق أقرب أريكة والحذاء الثقيل يؤلم قدميه.

يتساءل عبد ا دائما لماذا تعلق قلب ابنته بمرسـي دون غيره من الرجال. ذلك المسفر بالليل والنهار، الراحـل في عين الشمس وقلب الهواء، وبين الخلاء والعمـران ...؟ وكثيرا ما تذكرت حوادث وقعت "للمسافرين" فوق القطارات. ففي إحدى القرى كانت عصابة لصوص تسـرق القطـارات بطريقة مبتكرة. كانت تأتي بحبل طويل قوي. تربط طرفًـا من الحبل في شجرة قوية أو عامود تليفونـات قريـب مـن

القضبان. في الطرف الثاني توصل خطافًا معدنيا كبيرا. حين يمر قطار البضائع، تلقي بالخطاف فوق إحدى العربات المكشوفة، فيمسك بأحد الأجولة. كانت تربط أكثر من حبل في أكثر من شجرة أو عامود ويتم إلقائها جميعا على عربات القطار. ومع سرعة القطار ينتهي طول الحبل المربوط في الشجرة أو العامود، فيسقط الخطاف وقد علق بجوال من الحبوب، هكذا دون أن تقفز فوق العربة أو يعرض نفسه للخطر. وفي ليلة من ليالي القرى المعتمة، والقطار يمر سريعا محملاً بأجولة السمسم، هاجمت العصابة القطار. حين أقبل أفرادها يحملون الأجولة الساقطة، وجدوا أن خطافًا قد تعلق بالمسفر فوق القطار فسقط ميتًا.. كان الخطاف قد تعلق به من بطنه. وعرفت القرية كلها القصة، وتعجب الناس من هذا الشكل الغريب لحراسة القطارات..

سمع عبد ا بهذه الحكاية وهو صغير. تذكرها كثيرا وهو كبير حين تعلق قلب ابنته بهذا الحارس الغريب للقطار ...! وهو نفسه وقعت له واقعة غريبة مع المسفر كان يذكرها كنادرة. فذات ليلة كان عائدا بعد عمل مفاجئ في حادثة من حوادث القطارات. كان معه أحد الزملاء. وجدا

قطار بضاعة محملاً بالقصب. اقترح زميله أن يأخذ بعض أعواد القصب للأبناء. جعل زميله يجذب العيدان من جانب العربة. ولأنها كانت مربوطة جيدا في شكل حزم كبيرة، كان ينتزعها بصعوبة. قرر عبد ا أن يختصر الطريق، ويصعد فوق العربة ويلقي من فوقها بحزمة كاملة. كانت ليلة بلا قمر أو نجوم. ثقيلة السحب شتوية كابية. صعد عبد ا العربة وتوقف في منتصفها. انحنى ليرفع إحدى الحزم. أحاط الحزمة بذراعيه فوجدها ثقيلة جدا. رفعها بعنف فإذا برجل يصرخ بين ذراعيه ويمسك بخناقه. سقط قلب عبد ا من المفاجأة، ثم تنبه للموقف بسرعة والرجل يكيل له اللكمات وهو ساقط فوق القصب وعبد ا محني فوقه لا يستطيع أن يرفع نفسه إذا تشبث الرجل بخناقه بقوة بإحدى يديه. كان الرجل هو المسفر نائما بين القصب ومغطى به. صار عبد ا يقول عن تلك الليلة وهو يضحك إنها كانت مرعبة. ثم يضحك أكثر ويقول إن الواقعة انتهت بالصلح بينهما، وأن المسفر أعطاه قصبا كثيرا هو وزميله. ثم يقول أنه أحس من الخوف بانقطاع حبل الخلف عنده. ويضحك ويقول لكني رزقت بثلاث بنات فاكتمل عددهن ست ...! لكن عبد ا لم

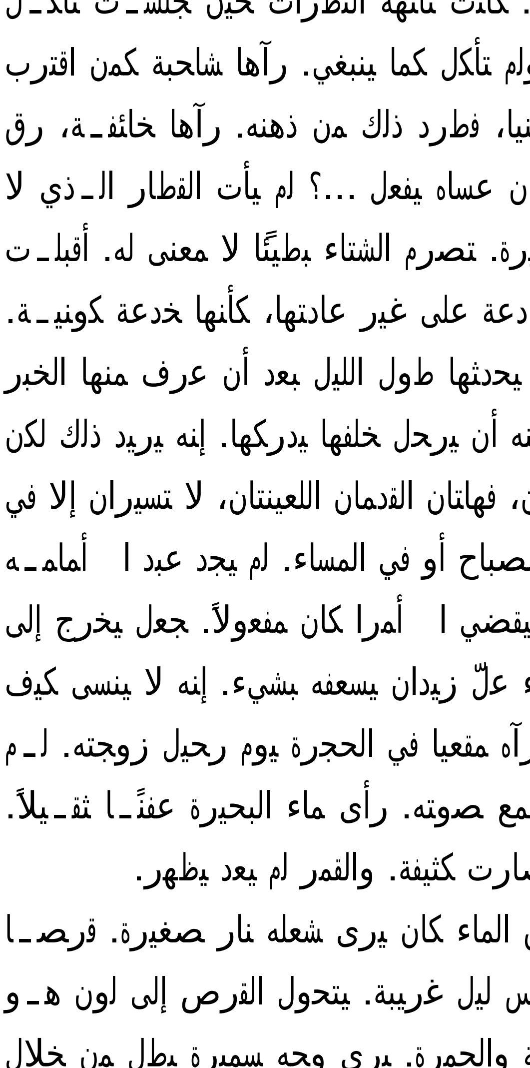
يعد يتحدث مع أحد عن هذه الواقعة بعد أن تعلق قلب سميرة بالمسفر الغريب. يتذكرها ويحزن في صمت. يقول في نفسه كثيرا، قد يكون وقع لمرسي ما وقع مع المسفر الـذي قتلـه خطاف العصابة. فالسرقة ازدادت والعصابات كثرت في كل مكان كما يسمع حين يذهب إلى الجسر، أو حين يـأتي إلـى المنطقة عمال من مناطق أخرى يمضون أيامـا فـي عمـل مفاجئ ويعودون. ويقول أيضا أن لص قصب قد يكون تسبب في قتل مرسي من شدة الخوف.

لكن هذا كله لم يعد مجـديا الآن. فسـميرة نفسـها اختفت.

لماذا هذا العذاب القاسي. ففي اليوم الذي كاد عبد ا فيه أن يرتاح، إذْ سلم بأنه لا يد له في شيء، تختفي سـميرة الجميلة ...؟

تلك الشمس اللعينة التي لم يرها يوما عشرين عاما، نجحت في حبك المؤامرة من وراء ظهره.

مر عام منذ قالوا أول مرة أن القطار سيأتي غدا ولم يأت.. وحين قالوا مرة ثانية منذ شهور أنه سيأتي، وبـدا أن الجميع لا يصدقون، قامت سميرة واستحمت وغابـت فـي



المرحاض كثيرا. كانت تائهة النظرات حين جلسـت تأكـل عشاءها بينهم، ولم تأكل كما ينبغي. رآها شاحبة كمن اقترب موعد وداعه للدنيا، فطرد ذلك من ذهنه. رآها خائفـة، رق لها، لكن ماذا كان عساه يفعل ...؟ لم يأت القطار الـذي لا ينتظره غير سميرة. تصرم الشتاء بطيئًا لا معنى له. أقبلـت أيام الخماسين وادعة على غير عادتها، كأنها خدعة كونيـة. وزوجته التي لم يحدثها طول الليل بعد أن عرف منها الخبر صارت تطلب منه أن يرحل خلفها يدركها. إنه يريد ذلك لكن لا يعرف إلى أين، فهاتان القدمان اللعينتان، لا تسيران إلا في اتجاه واحد في الصباح أو في المساء. لم يجد عبد ا أمامـه إلا الصبر حتى يقضي ا أمرا كان مفعولاً. جعل يخرج إلى البحيرة كل مساء علّ زيدان يسعفه بشيء. إنه لا ينسى كيف رق لحاله حين رآه مقعيا في الحجرة يوم رحيل زوجته. لـم ير زيدان ولا سمع صوته. رأى ماء البحيرة عفنًـا ثقـيلاً. نباتات الحلفاء صارت كثيفة. والقمر لم يعد يظهر.

لكن فوق الماء كان يرى شعله نار صغيرة. قرصـا مشتعلاً كأنه شمس ليل غريبة. يتحول القرص إلى لون هـو مزيج من الزرقة والحمرة. يرى وجه سميرة يطل من خلال

القرص. تضحك له. تقهقه ويدوي صوتها في الظلام. ولولا بقية من عقل لنزل وراءها الماء.

كان يراها تجري إلى الخلف حتى الجسر، ثم تعـود مقبلة عليه، حتى لتكاد تقفز فوق تحرقه بنورها ونارها، ثـم تعود إلى الخلف من جديد. ويظل هو قابعا حتـى منتصـف الليل. يقول: "لقد صرت جنية تريدين قتل أبيك" ويظل يخرج كل ليلة. فهو في النهاية يرى وجه ابنته الجميل. في الصباح يتذكر عبد ا وجه ابنته المنير الذي رآه فوق المياه ووسـط شعلة نار. يقول إنه سيراها في عين الشمس لـو اسـتطاع النظر إليها. لكن لا القدمان تطاوعانه، ولا العنـق النحيـل يسير يومه كله باكيا بلا دموع. ينظـر إلـى القضـبان ولا يراها. نادرا ما تسقط دمعة أو دمعتان. وعبد ا يعـرف أن العجوز يبكي بلا دموع. يذكر كيف كان وهو طفل صـغير، يرى أباه العجوز يبكي. ينظر إليه فلا يجد في عينيه دمعـا. يرى جلدا متغضنًا حولهما وجفونًا رفيعة. يـدهش لأن أبـاه يجفف دمعا غير موجود. ويشعر أن أبـاه العجـوز طفـل صغير:

- أين سميرة يا عبد ا .

صارت مريضة زوجته. نائمة بلا قدرة. تسأله كـل مساء حين يعود.

- يقولون أنها صارت تظهر في المحطات البعيـدة تبيع المشروبات في القطارات.. هكذا تردد بعـد السـؤال. ينظر إليها بلا حديث. تقول:

- يقولـون أنهـا صـارت تظهـر جالسـة فـوق السمافورات تغني للقطارات العابرة وللمسافرين فوقها.

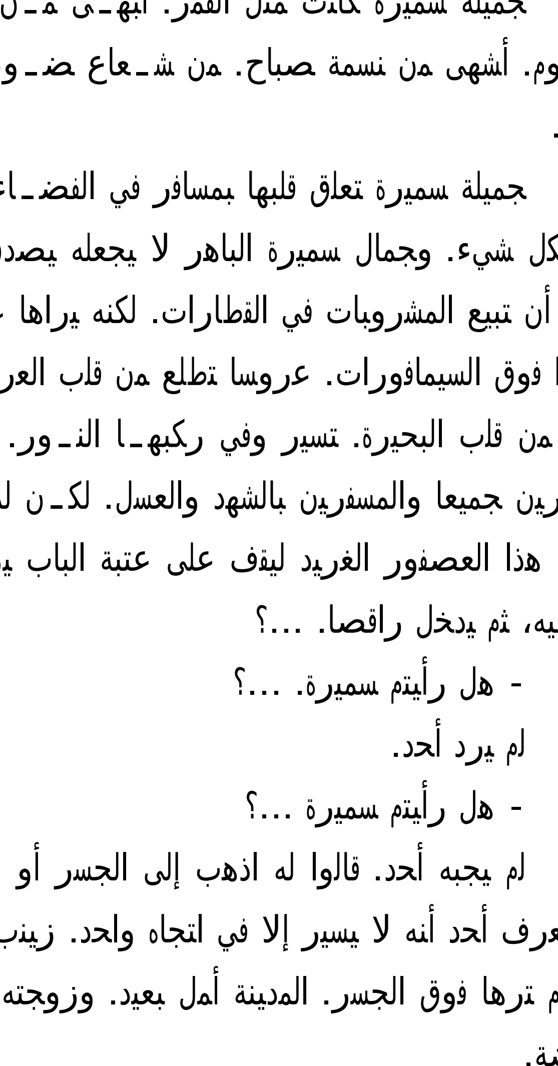
ينظر إلى بقية البنات النائمات بلا لعب ولا حكايات.

- يقولون أن مرسي رآها وأنزلها، وركبا معا قطارا يجره حصان، ذهب بهما إلى بلاد لا تعود القطـارات منهـا مرة ثانية.

يشعر عبد ا أنه كومة حطام لا قمية لها.

- أين سميرة يا عبد ا ...؟ أين ...؟ لو كان له أخ لكان بحث عنها الآن. يتذكر رغبة الولد وينسـاها بسـرعة يائسا من كل شيء.

- جميلة سميرة كانت يا عبد ا .


جميلة سميرة كانت مثل القمر. أبهى من القمر والنجوم. أشهى من نسمة صباح. من شعاع ضوء فجر واهن.

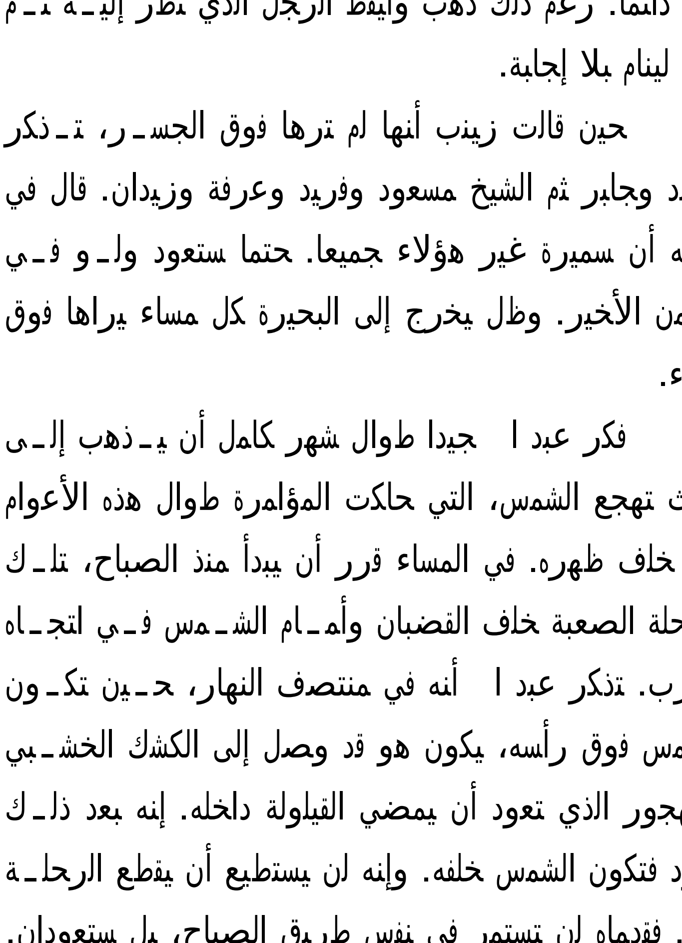
جميلة سميرة تعلق قلبها بمسافر في الفضاء الذي يسع كل شيء. وجمال سميرة الباهر لا يجعله يصدق أنها يمكن أن تبيع المشروبات في القطارات. لكنه يراها عصفورا مغردا فوق السيمافورات. عروسا تطلع من قلب العربات كما تطلع من قلب البحيرة. تسير وفي ركبها النور. تروي المسفرين جميعا والمسفرين بالشهد والعسل. لكن لماذا لا يجيء هذا العصفور الغريد ليقف على عتبة الباب يرفرف بجناحيه، ثم يدخل راقصا. ...؟

- هل رأيتم سميرة. ...؟

لم يرد أحد.

- هل رأيتم سميرة ...؟

لم يجبه أحد. قالوا له اذهب إلى الجسر أو المدينة ولم يعرف أحد أنه لا يسير إلا في اتجاه واحد. زينب قالت أنها لم ترها فوق الجسر. المدينة أمل بعيد. وزوجته صارت مريضة.



حين قرر أن يسأل ناظر المحطة، فهو في طريقة في الصباح والمساء، علها تكون ركبت قطارا ورآها، تذكر أنه نائم دائما. رغم ذلك ذهب وأيقظ الرجل الذي نظر إليه ثم عاد لينام بلا إجابة.

حين قالت زينب أنها لم ترها فوق الجسر، تذكر حامد وجابر ثم الشيخ مسعود وفريد وعرفة وزيدان. قال في نفسه أن سميرة غير هؤلاء جميعا. حتما ستعود ولو في الزمن الأخير. وظل يخرج إلى البحيرة كل مساء يراها فوق الماء.

فكر عبد ا جيدا طوال شهر كامل أن يذهب إلى حيث تهجع الشمس، التي حاكت المؤامرة طوال هذه الأعوام من خلف ظهره. في المساء قرر أن يبدأ منذ الصباح، تلك الرحلة الصعبة خلف القضبان وأمام الشمس في اتجاه الغرب. تذكر عبد ا أنه في منتصف النهار، حين تكون الشمس فوق رأسه، يكون هو قد وصل إلى الكشك الخشبي المهجور الذي تعود أن يمضي القيلولة داخله. إنه بعد ذلك يعود فتكون الشمس خلفه. وإنه لن يستطيع أن يقطع الرحلة أبدا. فقدماه لن تستمر في نفس طريق الصباح، بل ستعودان.

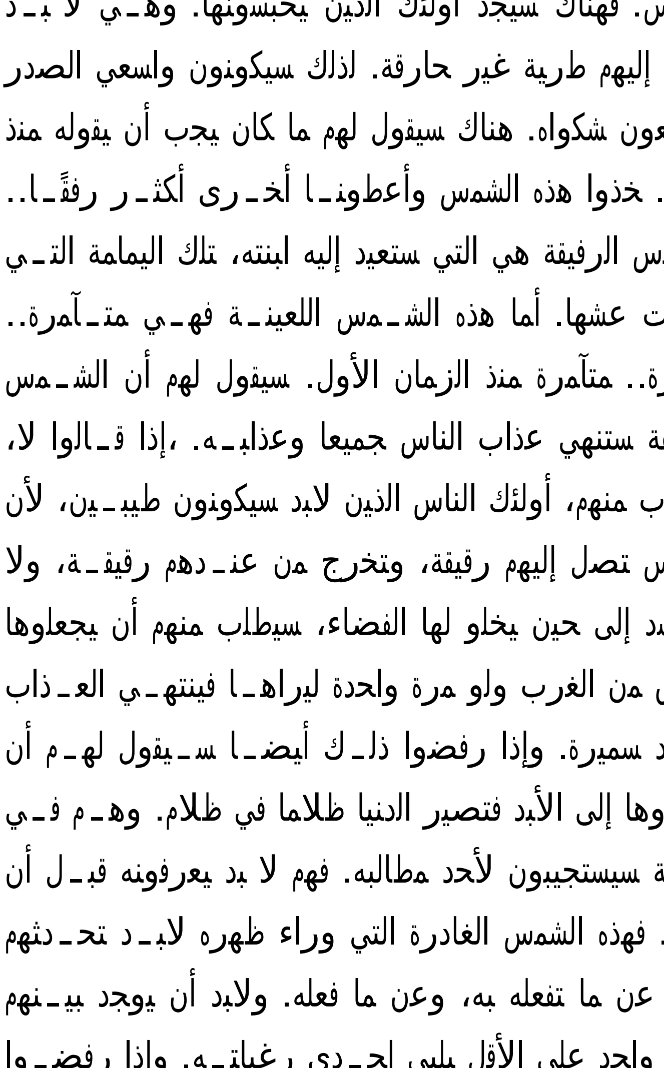
قال في نفسه وهو يشعر بالقوة والعزم : "حتى الظهر تسير قدماي إلى الغرب، بعد الظهر تسيران إلى الشرق حتى المغيب، في الحالتين لا أستطيع أن أستدير وأرى الشمس. عند القيلولة لا أستطيع أن أرفع بصري إلى السماء فأرى الشمس التي فوق رأسي لأن عيني لا تنظران إلا إلى القضبان. كانتا كذلك لأكثر من عشرين عاما، وتظلان كذلك. لكن لابد أن أجد طريقة أنجح بها في الوصول إلى حيث تغرب الشمس دون عودة في المساء، قرر عبد ا وهو سعيد، أنه حين تنتهي قيلولته، لا يعود ولا ينهض من مكانه. يظل حتى صباح اليوم التالي فينهض ويتابع المسير إلى الغرب. وهكذا يمشي من كل يوم نصفه، فيستمر المسير بلا انقطاع، ويأخذ حقه من الراحة. لكنه في نفس اللحظة التي توصل فيها إلى ذلك سمع ضجة أمام العشش. خرج يستطلع كانت أم جابر تقف بين بعض الرجال والنساء وأطفال حامد الثلاثة حولها. رأته ورآها.

قال أحد الرجال..

- لا أحد يستطيع أن يذهب إلى الجسر الآن في هذا الظلام. عودي يا أم جابر بالأطفال والصباح رباح. ومن يدري ربما تأتي بعد وقت قليل.

انفض الناس وعادت أم جابر والأطفال خلفها. عرف أن زينب لم تعد من فوق الجسر.

أدرك عبد ا أنه قد فارق المنطقة بأميال فأحس بأنه قد نجح في خطته. وأنه قد اقترب كثيرا من تلك البلاد الغربية التي تبيت فيها الشمس ويطلقونها في الصباح من الجهة الأخرى لتبدأ لعبتها الكريهة معه. لكن أسقط في يده حين تذكر أنه في هذا الطريق لا يوجد إلا قضيبين اثنين ممتدين إلى ما لا نهاية. لا توجد سيمافورات إلا عند المحطات المتباعدة جدا عن بعضها. وأنه لن يستطيع أن يجد سميرة لأنه على هذين القضيبين لا يمر إلا قطار واحد، وهي لا يمكن أن تبيع المشروبات في قطار واحد، خاصة أن المحطات كلها مهجورة لا يركب أو ينزل منها أحد. كما أنها وقد صارت عصفورا غريدا لا يمكن أن تطير هذه الأميال الكبيرة التي بين كل سيمافور وآخر. لكن عبد ا كان يعرف أن قراره العميق هو الصحيح. فهو لا بد أن يبلغ بلاد نوم



الشمس. فهناك سيجد أولئك الذين يحبسونها. وهـي لا بـد تصل إليهم طرية غير حارقة. لذلك سيكونون واسعي الصدر فيسمعون شكواه. هناك سيقول لهم ما كان يجب أن يقوله منذ سنين. خذوا هذه الشمس وأعطونـا أخـرى أكثـر رفقًـا.. فالشمس الرفيقة هي التي ستعيد إليه ابنته، تلك اليمامة التـي هجرت عشها. أما هذه الشـمس اللعينـة فهـي متـآمرة.. متآمرة.. متآمرة منذ الزمان الأول. سيقول لهم أن الشـمس الرفيقة ستنهي عذاب الناس جميعا وعذابـه. ،إذا قـالوا لا، سيطلب منهم، أولئك الناس الذين لابد سيكونون طيبـين، لأن الشمس تصل إليهم رقيقة، وتخرج من عنـدهم رقيقـة، ولا تستأسد إلى حين يخلو لها الفضاء، سيطلب منهم أن يجعلوها تشرق من الغرب ولو مرة واحدة ليراهـا فينتهـي العـذاب وتعود سميرة. وإذا رفضوا ذلـك أيضـا سـيقول لهـم أن يحبسوها إلى الأبد فتصير الدنيا ظلاما في ظلام. وهـم فـي النهاية سيستجيبون لأحد مطالبه. فهم لا بد يعرفونه قبـل أن يروه. فهذه الشمس الغادرة التي وراء ظهره لابـد تحـدثهم عنه، عن ما تفعله به، وعن ما فعله. ولابد أن يوجد بيـنهم رجل واحد على الأقل يلبي إحـدى رغباتـه. وإذا رفضـوا

جميعا كل طالب سيسأل الشمس نفسها، ولابد أنها ستسـتجيب له، وتحنو عليه حين تراه عن قرب وترى عذابه. كيـف لا وهي صاحبته لأكثر من عشرين عاما. إنه ليس مـن هـذه الدنيا أبدا ولا يستحق أن يعيش، من ينسى صـحبة امتـدت على طول مثل هذا الزمن ....!!

* * * * * *

أم جابر

حين قال لها أحد الرجال أن تعود، وأن زينـب قـد تأتي بعد قليل، قالت لنفسها : "ماذا أفعـل ...؟ لقـد رأيـت عينيها في الصباح."

وكانت قد رأت عيني زينب فعلاً، من فرجة ضـيقة جدا بقت لها في بصرها تطل بها على الدنيا فتراهـا أقـرب إلى السواد. كانت عينا زينب أمامها واسعتين مبهرتين، فيهما تصميم عميق. عرفت أن زينب لن تعود الليلة. لكن كان لابد أن تتعلق بأمل كاذب. فمن للأطفال الصغار وهـي عجـوز انحنى ظهرها، وكاد رأسها يسقط إلى الأرض.

كانت دائما تقول لنفسها أن حامـد وجـابر اجتمعـا طويلاً في عمل واحد. فلقد كانـا يـدفعان عربـة المفـتش ويجريان بها. حين اختفيا جمعها مع زينب ذلك الاختفاء.

ومنذ اختفى ابنه عرفت الصمت. تحدث الناس عـن حزنها المكتوم، ثم قالوا أنه استسلام وترقب للموت حـزين، ولما طال مرور الأيام بلا أمل فـي عـودة الغائـب ازداد صمتها، بدا أنها بكماء فقالوا أن جنا تلبسها وأنها لا تعـيش

معهم. وأيدوا قولهم بنشاطها القـديم فـي عمـل الأحجبـة والتعاويذ للنساء بعد اختفاء القطار. لكنها طوال هذا الصمت كانت ترى جابر أمامها. رأته في كل خطوة خطاها. وكانت لا تندهش وهي تراه حبيس أربع جدران والسياط تنهال عليه من كل ناحية، أو وهو يصرخ في فضاء أرض قفر ليس بها إلا الثعابين والحيات. وحين كانت تراه يبكي كان تقول لعلـه يتذكر ويتذكر عثرتها في الخيط والإبرة. كانت تعرف حـين تعثرت في إدخال الخيط إلى سم الإبرة، وبعـد أن أخـذهما جابر ولضمهما ثم نهض إلى الحوش، إنه نهض ليبكي أمـه التي صارت عجوزا فجأة..

دعت ربها كثيرا أن لا يجلو عنهـا تلـك الـرؤى الصعبة لابنها ...! وأن يجعله قرين عينيها ليل نهار ...!

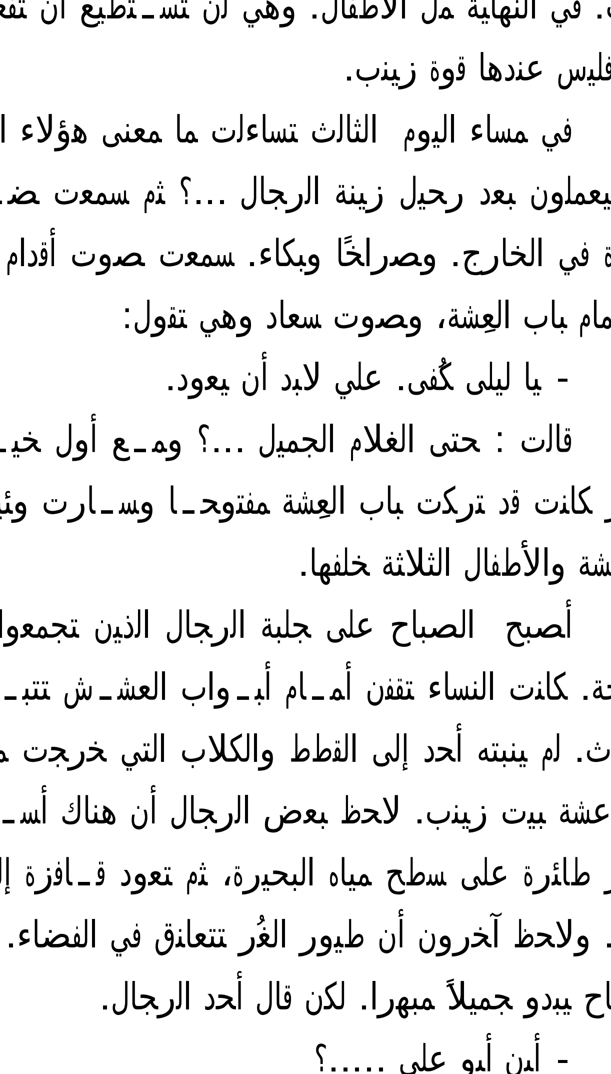
وعندما شعرت بتحفيز أذنيها الدائم، وبأنها تمد يديها إلى الأمام حين تسمع صوتًا فعرفت أنها مقبلة على العمـى، قالت : ومتى كانت رؤيتهـا لابنهـا تحتـاج إلـى عينـين مبصرتين ...؟

ظلت ليل نهار ترى ابنها وكأنه يتحرك في بيـاض عينيها. وأكثر من ذلك صارت ترى ما يحدث فوق الجسـر.

عرفت أي مخاضة قبيحة جاست فيها زينب. ورأتهـا يـوم انتفض قلبها تحت الرجل، وهـي تنـتفض! لكنهـا ظلـت صامتة..

حين انتصف الليل ولم تعد زينب أيقنت أن كل مـا فكرت فيه صحيح. صارت بالفعل تعرف الشيء قبل حدوثه. تذكرت أنها رأت عبد ا حين خرج من بيته وهـي تقـف وسط الرجال والنساء وأن عبد ا رآها فرأت في عينيه نفس ما رأت في عيني زينب.. قالت : أنه لابد راحل مع الصباح. فالرجل الذي صار سنينًا يشكو قلة الولد، لن يطيـق الحيـاة بدون سميرة. الرجل الذي تندر الرجال كثيرا بشـكواه مـن الشمس لابد يرحل إليها. وأغمضت عينيها لتنام وهي تعرف أن عليها هي الأخرى طقسا ستؤديه.

مرت ثلاثة أيام وهي تحـاول مرتشـعة منهكـة أن ترعى الأطفال الثلاثة. كان في البيت قليل خبز وجبن قـديم. سألوها كثيرا عن أمهم فقالت : إنها سافرت وستعود بعد أيام قليلة. ونسيت أن زينب قالت للأطفال كثيرا أن أباهم سـافر وسيعود بعد أيام قليلة. حين تذكرت ذلك أحسـت بـالخوف. كان الأطفال يسألون زينب كل يوم. لم يملوا السؤال ولم تمل



زينب. في النهاية مل الأطفال. وهي لن تسـتطيع أن تفعـل ذلك فليس عندها قوة زينب.

في مساء اليوم الثالث تساءلت ما معنى هؤلاء الذين بقوا يعملون بعد رحيل زينة الرجال ...؟ ثم سمعت ضـجة شديدة في الخارج. وصراخًا وبكاء. سمعت صوت أقدام تمر من أمام باب العِشة، وصوت سعاد وهي تقول:

- يا ليلى كُفى. علي لابد أن يعود.

قالت : حتى الغلام الجميل ...؟ ومـع أول خيـوط الفجر كانت قد تركت باب العِشة مفتوحـا وسـارت وئيـدا مرتعشة والأطفال الثلاثة خلفها.

أصبح الصباح على جلبة الرجال الذين تجمعوا في الساحة. كانت النساء تقفن أمـام أبـواب العشـش تتبـادلن الحديث. لم ينبته أحد إلى القطط والكلاب التي خرجت مـن باب عشة بيت زينب. لاحظ بعض الرجال أن هناك أسـماكًا تظهر طائرة على سطح مياه البحيرة، ثم تعود قـافزة إلـى الماء. ولاحظ آخرون أن طيور الغُر تتعانق في الفضاء. كان الصباح يبدو جميلاً مبهرا. لكن قال أحد الرجال.

- أين أبو علي .....؟

ظهر أبو علي منكسرا. كان يقف خلف رجل يبـدو غريبا عن المنطقة.

قال الرجل الذي سأل :

- من أنت ...؟

وكان يوجه حديثه لهذا الغريب.

- أنا جديد هنا. أوفدتني المصلحة أمس لعمل بـدلاً من زيدان نظر الرجال إلى بعضهم في دهشة، قال آخر:

- ماذا تقول ...؟

- بدلاً من زيدان.

تساءل ثالث..

- وكيف المصـلحة إن زيـدان اختفـى ورحلـت زوجته.. ثم متى أتيت ...؟

- أتيت في منتصف الليل أنا وزوجتي – وأشار إلى باب عشة بيته الذي كان بيت زيدان، حيث كانت زوجته تقف – أما المصلحة فلا أعرف علام تتحدثون.

تساءل رابع :

- هل جئت وحدك ...؟

- سمعت أنهم سيرسلون مفتشًا للمنطقـة، ورجلـين بدل – وبدا كمن يتذكر – بدل شخصين لا أذكـر اسـميهما يقولون أنهما كانا يجريان بعربة المفتش..

- حامد وجابر.. ...؟

قال أحد الرجال :

- أجل حامد وجابر..

أجاب الرجل..

وقال أبو علي حزينًا..

- نسيتم ما نحن فيه.. أين أجد علي.....؟

كانت سعاد لا تسمع شيئًا إذ أن بيتهـا بعيـد عـن الساحة. لكنها رأت وكأن الرجال في حيرة. نظرت إلى ليلى التي تقف جوارها، بعد أن ظلت معها طول الليل تبكي وتفكر في أخيها، وسعاد تهون عليها ولا تقول أن علي قـال لهـا شيئًا. نظرت بعد ذلك إلى المرأة الغريبة التي تقف على باب بيت زيدان ولا يفصلها عن سعاد إلا بيت زينب مفتوح الباب ثم قالت :

- من أنت ...؟

ابتسمت المرأة. قالت :

- أنا جديدة هنا. اسمي إحسان. وزوجي يقف هناك.

وأشارت إلى الرجال في حماس..

لاحظت سعاد بعد ذلك أن بقية النساء تنظـرن إلـى المرأة الجديدة. كانت ليلى قد تركت مكانها واتجهـت إلـى الساحة حيث يقف الرجال. رأتها سعاد من بعيد، ثـم رأتهـا تعود إليها. ورأت الرجال يتجهون بعد ذلك خلف البيوت في طريقهم إلى العمل بينما يدخل أبو علي إلى بيته.

- ماذا حدث.....؟

سألت حين اقتربت ليلى منها.

- أبي مريض.. لن يخرج إلى العمل اليوم. سأذهب أنا إلى المدينة فأنا أعرف أنه ذهب إليها.

قالت : ليلى ذلك وأشارت إلى بيت زينب. قالـت : سعاد.

- ماذا هناك. ...؟

- باب العِشة مفتوح.

تقدمت سعاد من الباب. لا تعرف لمـاذا فكـرت أن العجوز قد ماتت. عبرت العِشة ولم تنظر حولها في الحوش. لم تجد إلا بعض أخشاب صغيرة وخروق مبعثرة. نادت. لم

يرد عليها أحد. دلفت إلى الحجرة الداخلية. لم تجد أحدا.. عادت لا تدري ماذا حدث.حين صارت في العِشة من جديد سمعت حركة بطيئة عن يمينها. نظرت فوجدت قطًا أسود وكلبا أبيض يلغان في دم دجاجة. كان الدجاج كله مقتولاً ملوثًا بالدم والفواريكة مقلوبة وقد تبعثر الكوك والرماد حولها.

كان الجسر طويلاً. أطول مما توقعت العجوز. الشمس الغادرة قد بكرت في الصعود. عرفت العجوز أن الشمس اليوم ستعطي آخر ما عندها من نار. ربطت على عينيها عصابة سوداء. قالت لنفسها : إما أن ترى أو لا ترى ولا يجب أن ترى بقليل من النور. تركت يدها إلى أكبر أبناء حامد. كان الطفلان الآخران يسيران خلفهما مزقًا من القماش، حافيين مثل أخيهم العجوز. توقفت أمام خص من البوص. خرجت لها هنية. لم تتكلم العجوز. قالت : هنية.

- ماذا تريدين يا خالة ...؟

وجعلت تقلب عينيها بين الأطفال الثلاثة وتبتسم. أشارت العجوز إلى الأطفال. فهمت هنية. قالت :

- لا أعرف هل أقول لك المدينة فتعودين إلى الخلف أم أقول لك لا .. فتسيرين إلى الأمام. لقد اختفت ولـم تقـل شيئًا – وبعد صمت قليل – لكن كيف عرفتني يا خالة ...؟

قالت : العجوز بصوت ضعيف:

- هل أجد عندك عصاة ...؟

دخلت هنية الخص. أحضرت عصاة أبيها. وضـعت بعض الخبز في بقجة وخرجت.. أعطت العصـاة للعجـوز وحمل أكبر الأطفال البقجة خلف ظهره. سـارت أم جـابر تتوكأ على عصاة أبي هنية.. بعد خطوات قليلة هتفت هنية.

- يا خالة.. كيف عرفتني....؟

أرادت العجوز أن تقول لها أنها "نبي" لكنها أدركـت أن صوتها لن يصل فقالت : لأنك "عاهرة" ونسيتْ أن هـذه أيضا لن تصل..

حين كاد النهار ينتصف قررت أن تستريح. جلسـت جوار خص مهجور دلها عليه أكبر الأطفال. جلس الأطفـال حولها. قالت العجوز وهي لا تدرك أن الأطفال يسـمعونها: "تعطيني العصا والخبز ...؟...!".

لم يفهم الأطفال شيئًا. قال أكبرهم.

- إلى أين نسير يا خالة ...؟

- نسير.

- على أين.. هل تعود أمي...؟

- سنجدها.

صمت الصبي غير فاهم. قال بعد قليل.

- لقد بعدنا كثيرا. لا يوجد أحد.

لم ترد. تعرف ذلك ولا تعرف إلى أين سينتهي الجسر الذي يمتد إلى ما لا نهاية أمامها وخلفها. عليها فقط أن تسير. سألت نفسها لماذا تسير صامتة ...؟ لماذا لا تنادي زينب علّ أحدا يسمع النداء. أو لعل زينب نفسها تسمعها. لكن هل خرجت حقًا من أجل ذلك ...؟. ما تريده الآن هو أن تجد أحدا يأخذ الأطفال يرعاهم.. لكن هل يمكن أن يحدث ذلك وهي معهم...؟ لابد أن تموت أو ..لا ...! لو تركتهم خلفها ما اهتم بهم أحد. ليست مخطئة إذن في اصطحابها لهم. هناك لم يعد مكان لأحد. النجاة هي بحث الجميع الآن.. تدرك ذلك جيدا. وتدرك أنها لو ماتت ستنشق الأرض عمن يأخذ الأطفال. لكن لابد أن تبعدهم ما استطاعت عن ذلك

المكان الذي تحيطه البحيرة والصحراء وتمر عليه القطارات الغريبة..

حين نهضت بعد الراحة كانت الشـمس قـد مالـت للغروب. أحست بذلك من نسمة المسـاء الطريـة. قالـت : لأكبر الأطفال أن يأخذها لتشرب من البحيرة. طلبـت مـن الأطفال أن يشربوا. شربوا جميعا بشـراهة. قـال أصـغر الأطفال.

- الماء مالح..

وبصق.. ولأول مرة تبكي العجوز بصوت مسـموع منذ اختفاء ابنها. قالت في نفسها : "ماذا عساك فعلت يا ولدي تحت الشمس ...؟". قال أكبر الأطفال:

- من تحدثين يا خالة ...؟

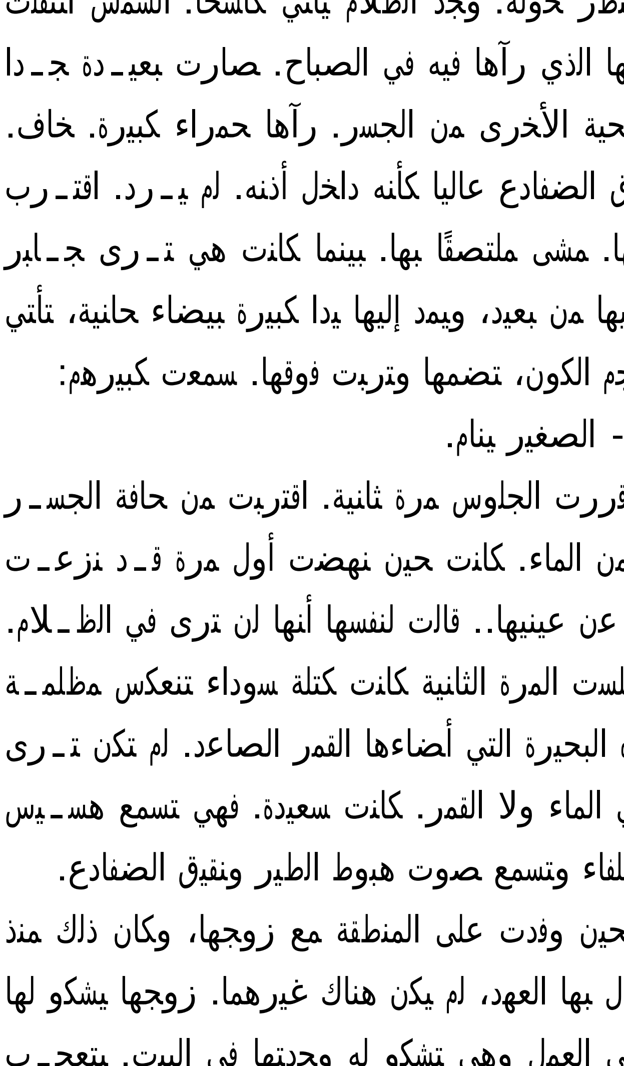
كان الليل قد أوشك. قالت :

- ادعو ا   أن نجد أمك.

- لماذا لا نعود وننتظرها ...؟

قالت :

- هل تعرف كيف نعود ...؟



نظر حوله. وجد الظلام يأتي كاسحا. الشمس انتقلت من مكانها الذي رآها فيه في الصباح. صارت بعيدة جدا على الناحية الأخرى من الجسر. رآها حمراء كبيرة. خاف. سمع نقيق الضفادع عاليا كأنه داخل أذنه. لم يرد. اقترب أكثر منها. مشى ملتصقًا بها. بينما كانت هي ترى جابر مقبلاً عليها من بعيد، ويمد إليها يدا كبيرة بيضاء حانية، تأتي إليها بحجم الكون، تضمها وتربت فوقها. سمعت كبيرهم:

- الصغير ينام.

قررت الجلوس مرة ثانية. اقتربت من حافة الجسر بالقرب من الماء. كانت حين نهضت أول مرة قد نزعت العصابة عن عينيها.. قالت لنفسها أنها لن ترى في الظلام. وحين جلست المرة الثانية كانت كتلة سوداء تنعكس مظلمة فوق مياه البحيرة التي أضاءها القمر الصاعد. لم تكن ترى نفسها في الماء ولا القمر. كانت سعيدة. فهي تسمع هسيس نبات الحلفاء وتسمع صوت هبوط الطير ونقيق الضفادع.

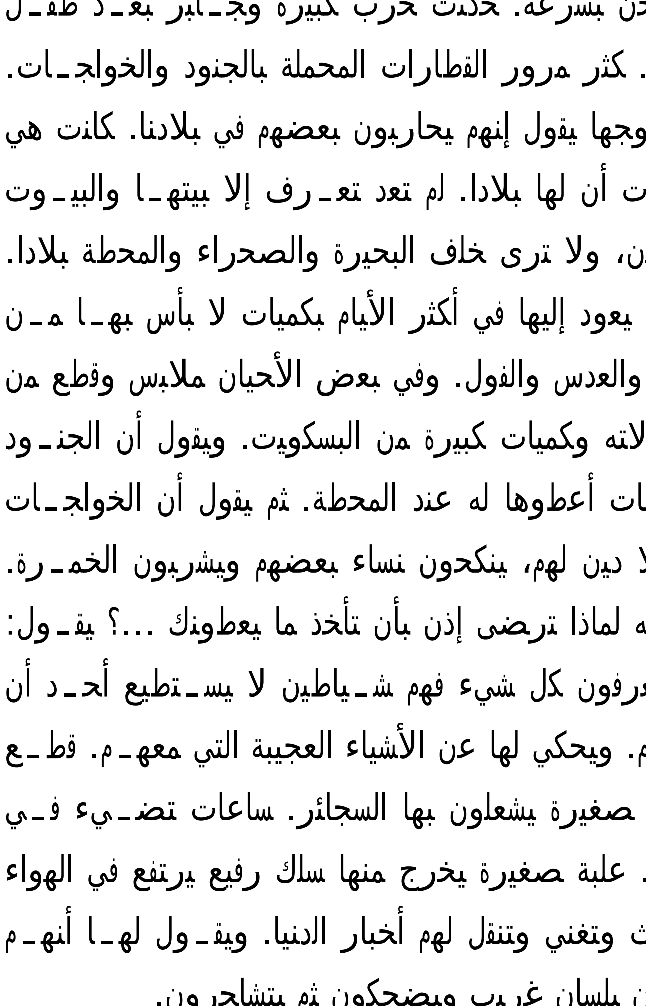
حين وفدت على المنطقة مع زوجها، وكان ذلك منذ سنين طال بها العهد، لم يكن هناك غيرهما. زوجها يشكو لها وحدته في العمل وهي تشكو له وحدتها في البيت. يتعجب

لماذا أرسلته المصلحة ليعمل وحده بلا زملاء ولا رؤساء في صيانة القضبان وتركيبها. وتتعجب لماذا يوجد عشرون بيتًـا طالما لا تسكن الأسرة إلا في بيت واحد ...؟

أصبح صباح فوجدا البيوت العشرين ممتلئة بالأسر.. لم تفكر ولا زوجها في سؤال أحد من أين جـاء. قـال لهـا زوجها فرحا : "صار لي زملاء أعمل معهم". وقالت فرحة: "صارت لي جارات أثرثر معهن".

في الصباح التالي قالت له أنها حامل. ثم أتى جـابر وعقمت من بعده لسبب غير معروف. تغير كثير من العمال وبالتالي الأسر. لم تسأل هي ولا زوجها لماذا يتم ذلـك ...؟ أو أين يذهب الراحلون ...؟ ومن أين يـأتي القـادمون ...؟ وكان من يبقى يفعل مثلها دون اتفاق.

صارت للحياة حدود بسيطة. الرجال يخرجون مـع الصباح لإصلاح القضبان. ولقلة القطارات لا يوجـد عمـل كثير. في العصر يصطادون السمك. الأطفال يصطادون في الصباح العصافير وفي العصر السمك. وفي بعـض الأيـام يفعلون العكس. خصوصا في الشـتاء حيـث تقـل هجـرة العصافير إلى المنطقة. في المساء يلعبون ألعابهم. والنسـاء

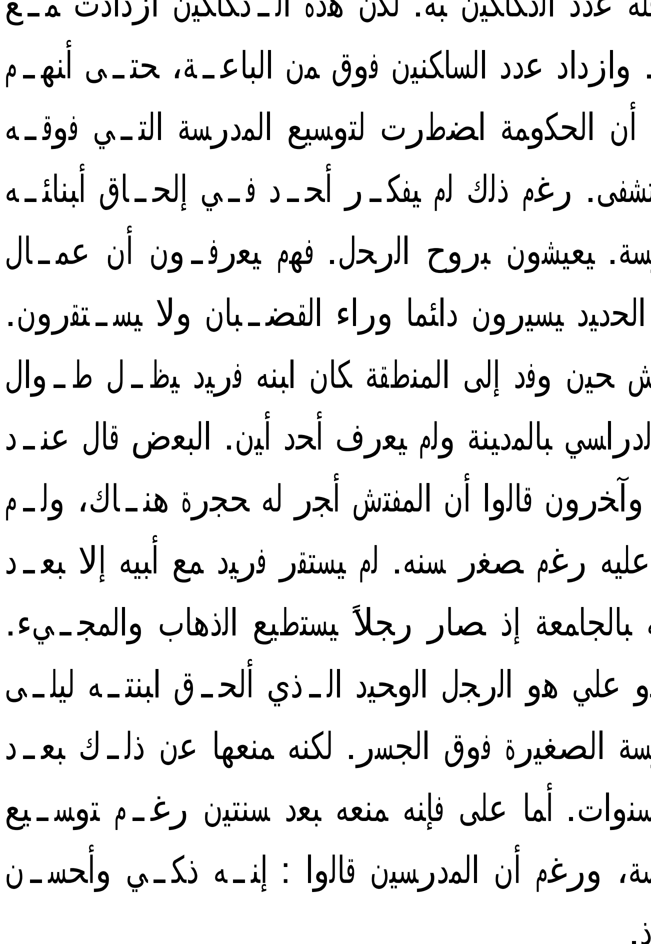


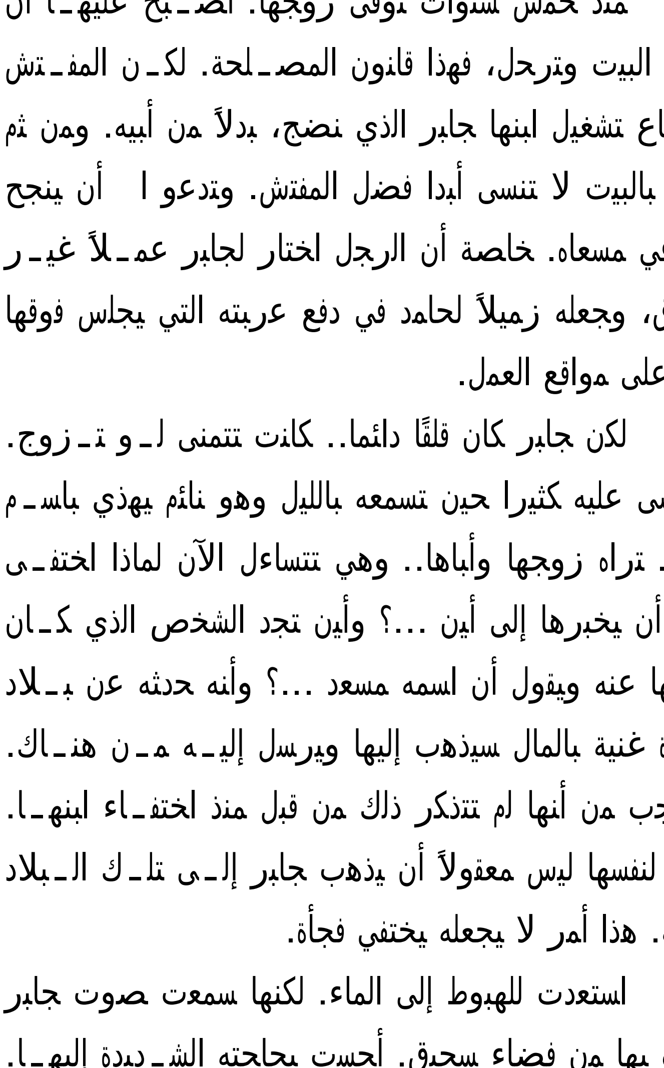
تتجبن وتخبزن وتتحدثن وتتشاجرن بسبب الأطفال، ثم تتصالحن بسرعة. حدثت حرب كبيرة وجابر بعد طفل صغير. كثر مرور القطارات المحملة بالجنود والخواجات. كان زوجها يقول إنهم يحاربون بعضهم في بلادنا. كانت هي قد نسيت أن لها بلادا. لم تعد تعرف إلا بيتها والبيوت العشرين، ولا ترى خلف البحيرة والصحراء والمحطة بلادا. زوجها يعود إليها في أكثر الأيام بكميات لا بأس بها من الشاي والعدس والفول. وفي بعض الأحيان ملابس وقطع من الشيكولاته وكميات كبيرة من البسكويت. ويقول أن الجنود الخواجات أعطوها له عند المحطة. ثم يقول أن الخواجات كفار لا دين لهم، ينكحون نساء بعضهم ويشربون الخمرة. تقول له لماذا ترضى إذن بأن تأخذ ما يعطونك ...؟ يقول: إنهم يعرفون كل شيء فهم شياطين لا يستطيع أحد أن يقاومهم. ويحكي لها عن الأشياء العجيبة التي معهم. قطع معدنية صغيرة يشعلون بها السجائر. ساعات تضيء في الظلام. علبة صغيرة يخرج منها سلك رفيع يرتفع في الهواء وتتحدث وتغني وتنقل لهم أخبار الدنيا. ويقول لها أنهم يتكلمون بلسان غريب ويضحكون ثم يتشاجرون.

ذات ليلة قال لها إنه أصبح صديقًا لنـاظر المحطـة وسيدعوه ليسهر معهم. وبالفعل صار ناظر المحطة يقضـي كثيرا من الأمسيات عندهم. ثم انقطع عن ذلك، ولما سـألت زوجها عنه قال إنه أصبح ينام طول الليـل والنهـار، وإذا صحا لا يكلم أحدا. لكنها لاحظت أن زوجها يخفي عنها شيئًا ما.. وقد صار يعود كل مساء بعد الصيد من البحيرة خائفًـا مرتعشًا ينام وهو يقول لها : "دثريني دثريني!". آهٍ ... إنهـا تذكر ذلك الآن. ماذا أخفى عنها زوجها ...؟

لكن جابر كان يكبر يوما بعد يوم، وكانت الخواجات تتناقص قطاراتهم، وتقل قطارات الجنود حتى اختفوا تمامـا ولم يعد يذكرهم أحد.

خلال ذلك كان العمال يتغيرون وأسـرهم. ثـم لـم يحدث أي تغيير منذ عشر سنوات. وكان قطار الكَنَسة يـأتي في البداية جارا عربة واحدة. ثم ازدادت العربات وأدركـوا قيمة ما فيه من معادن، فخرجوا إليها وفـي نيـتهم بيعهـا بالمدينة. لكن ظهر بائع روبابكيا صار يأتي في منتصف كل أسبوع يشتري ما جمعوه من القطار يوم الجمعة، ويذهب به إلى المدينة، فلم يفكر أحد في الذهاب إليها..


كان الجسر هو المكان الذي يبتاعون حاجاتهم منه رغم قلة عدد الدكاكين به. لكن هذه الدكاكين ازدادت مع الوقت. وازداد عدد الساكنين فوق من الباعة، حتى أنهم عرفوا أن الحكومة اضطرت لتوسيع المدرسة التي فوقه والمستشفى. رغم ذلك لم يفكر أحد في إلحاق أبنائه بالمدرسة. يعيشون بروح الرحل. فهم يعرفون أن عمال السكة الحديد يسيرون دائما وراء القضبان ولا يستقرون. والمفتش حين وفد إلى المنطقة كان ابنه فريد يظل طوال العام الدراسي بالمدينة ولم يعرف أحد أين. البعض قال عند أقاربه وآخرون قالوا أن المفتش أجر له حجرة هناك، ولم يخش عليه رغم صغر سنه. لم يستقر فريد مع أبيه إلا بعد التحاقه بالجامعة إذ صار رجلاً يستطيع الذهاب والمجيء. كان أبو علي هو الرجل الوحيد الذي ألحق ابنته ليلى بالمدرسة الصغيرة فوق الجسر. لكنه منعها عن ذلك بعد أربع سنوات. أما على فإنه منعه بعد سنتين رغم توسيع المدرسة، ورغم أن المدرسين قالوا : إنه ذكي وأحسن التلاميذ.



منذ خمس سنوات توفى زوجها. أصبح عليها أن تترك البيت وترحل، فهذا قانون المصلحة. لكن المفتش استطاع تشغيل ابنها جابر الذي نضج، بدلاً من أبيه. ومن ثم بقيت بالبيت لا تنسى أبدا فضل المفتش. وتدعو ا أن ينجح ابنه في مسعاه. خاصة أن الرجل اختار لجابر عملاً غير مرهق، وجعله زميلاً لحامد في دفع عربته التي يجلس فوقها يمر على مواقع العمل.

لكن جابر كان قلقًا دائما.. كانت تتمنى لو تزوج. وتخشى عليه كثيرا حين تسمعه بالليل وهو نائم يهذي باسم سعاد. تراه زوجها وأباها.. وهي تتساءل الآن لماذا اختفى دون أن يخبرها إلى أين ...؟ وأين تجد الشخص الذي كان يحدثها عنه ويقول أن اسمه مسعد ...؟ وأنه حدثه عن بلاد جديدة غنية بالمال سيذهب إليها ويرسل إليه من هناك. وتتعجب من أنها لم تتذكر ذلك من قبل منذ اختفاء ابنها. تقول لنفسها ليس معقولاً أن يذهب جابر إلى تلك البلاد الغنية. هذا أمر لا يجعله يختفي فجأة.

استعدت للهبوط إلى الماء. لكنها سمعت صوت جابر يهتف بها من فضاء سحيق. أحست بحاجته الشديدة إليها.

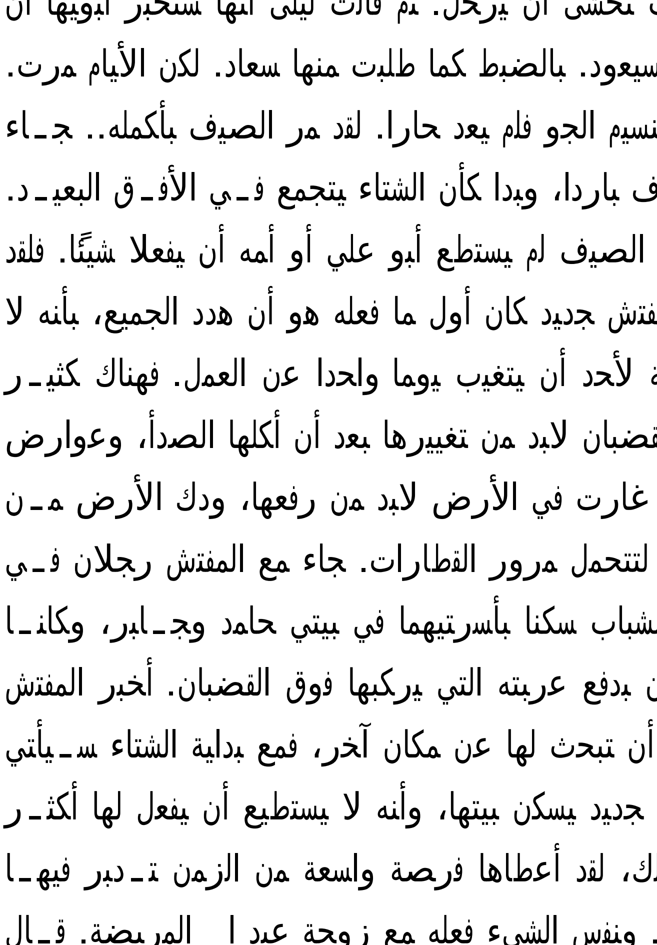
قررت أن تقاوم الطقس الذي بقى لها. أن تسير بالأطفال في الصباح. أن تجد زينب. أن تعيش..

* * * * * *

سعاد

لم تعرف النساء سر المرض المفاجئ الذي أصـاب سعاد. كن يتحلقنها نهارا راثيات لحالها ويتعجبن كيـف لـم تمرض بعد وفاة الشيخ مسعود ثم تمـرض الآن.. قالـت : إحداهن لعلها عرفت أن هناك سكانًا جددا سيأتون فخافت أن يتم طردها من البيت. لكن ليلى كانت تعرف، وتمضي معها الليل.. لم تدرك سعاد أنها تهذي باسم علي مما جعـل ليلـى تندهش هل يمكن أن تكون سعاد عاشقة للصبي الصغير ...؟ لقد ظلت سعاد منذ اختفاء علي تطمئن أخته علـى عودتـه. عرفت أن ليلى تعلم أنه ذهب إلى المدينة فقالت لها بأنه لـن يمضي أكثر من أيام قليلة ويعود، هكذا أخبرها قبل رحيلـه. ورجتها ألا تخبر والديها بأن سعاد تعرف شيئًا واسـتغفرتها وقالت : إن هذه رغبة علي، الذي رجاها كثيرا أن لا تخبـر أحدا بما عزم عليه.

وقالت سعاد : إنه منذ الليلة التي دخلت فيها كـرات النار من النوافذ، وفكرة الذهاب إلى المدينة تسـيطر عليـه. وسألت ليلى إذا ما كانت لاحظت شيئًا عليه من قبل، فقالـت



أنها أدركت منذ محاولاته الوصول لأوراق فريد التي مزقتها فيما بعد، ومن سؤاله عن المدينة، إنه انتوى أن يفعل شـيئًا، وكانت تخشى أن يرحل. ثم قالت ليلى أنها ستخبر أبويها أن علي سيعود. بالضبط كما طلبت منها سعاد. لكن الأيام مرت. تغير نسيم الجو فلم يعد حارا. لقد مر الصيف بأكمله.. جـاء الخريف باردا، وبدا كأن الشتاء يتجمع فـي الأفـق البعيـد. طوال الصيف لم يستطع أبو علي أو أمه أن يفعلا شيئًا. فلقد وفد مفتش جديد كان أول ما فعله هو أن هدد الجميع، بأنه لا فرصة لأحد أن يتغيب يوما واحدا عن العمل. فهناك كثيـر من القضبان لابد من تغييرها بعد أن أكلها الصدأ، وعوارض كثيرة غارت في الأرض لابد من رفعها، ودك الأرض مـن تحتها لتتحمل مرور القطارات. جاء مع المفتش رجلان فـي سن الشباب سكنا بأسرتيهما في بيتي حامد وجـابر، وكانـا يقومان بدفع عربته التي يركبها فوق القضبان. أخبر المفتش سعاد أن تبحث لها عن مكان آخر، فمع بداية الشتاء سـيأتي بعامل جديد يسكن بيتها، وأنه لا يستطيع أن يفعل لها أكثـر من ذلك، لقد أعطاها فرصة واسعة من الزمن تـدبر فيهـا نفسها. ونفس الشيء فعله مع زوجة عبد ا المريضة. قـال

لها : "سننتظر حتى الشتاء، إذا عاد زوجك ستبقون، إذا لـم يعد ترحلون". وقال إنه لن يخبر المصلحة بانقطاعـه عـن العمل قبل ذلك. فكرت أم ليلى أن تذهب إلى المدينة لتبحـث عن ابنها، لكن زوجها منعها بشدة فسقطت مريضة. قال لها الولد سيعود. وصار يبكي في داخله بكاء كالخناجر. طلبـت ليلى من أبويها أن يتركاها تذهب إلى المدينة تبحـث عنـه، لكنهما صرخا في وجهها: "ماذا ستفعلين في مدينة كبيـرة لا يعرف فيها أحدا أحدا ...؟".

انتهى الأمر إلى الانتظار حتى يعود علي. لكن سعاد بدأت تشعر أنه لن يعود. عافت الطعام والكلام وسقطت فـي الحزن، ثم تملكتها حمى غريبة كانت تجعلها كالسابحة فـي الفضاء. لم تقل سعاد شيئًا مفهوما لأي من النسـاء اللاتـي يعدنها.. لكنها قالت لليلى:

- ألا ترين الأمر غريبا ...؟

قالت ليلى :

- لقد فكرت كثيرا.. إن المفتش له ابن يقولون إنـه يعيش بالمدينة وسيلتحق بالجامعة بعد عام ويأتي ليعيش مـع أمه وأبيه هنا..

ابتسمت سعاد ابتسامة شاحبة. نظـرت إلـى ليلـى بأسى. كانت ليلى قد سبحت في الزمن الجميـل. الأوقـات القليلة المسروقة من الليالي القليلة التي قابلت فيهـا فريـد، والتي كانت تبدو كزمن كامل يعلو على الزمن الذي يعيشـه الجميع. عادت ليلى من الذكرى الشجية حين وصـلت إلـى الكذب الذي لم تفهمه. قالت سعاد :

- والرجلان اللذان يدفعان عربة المفتش. أحدهما له أم عجوز والثاني له زوجة وثلاثة أطفال.

هزت ليلى رأسها. قالت :

- والرجل الذي سكن بيت زيدان، زوجتـه إحسـان تبدو فاجرة.

قالت سعاد بأسف:

- هل سيأتي في بيتنا شيخ ...؟

صمتت ليلى ثم قالت :

- قال أبي أنه لن يتركك. سيطلب منك أن تعيشـي معنا.

كانتا في ذلك الوقت وحدهما. أحسـت كـل منهمـا بحاجتها للأخرى. انحنت ليلى على سـعاد الممـددة فـوق

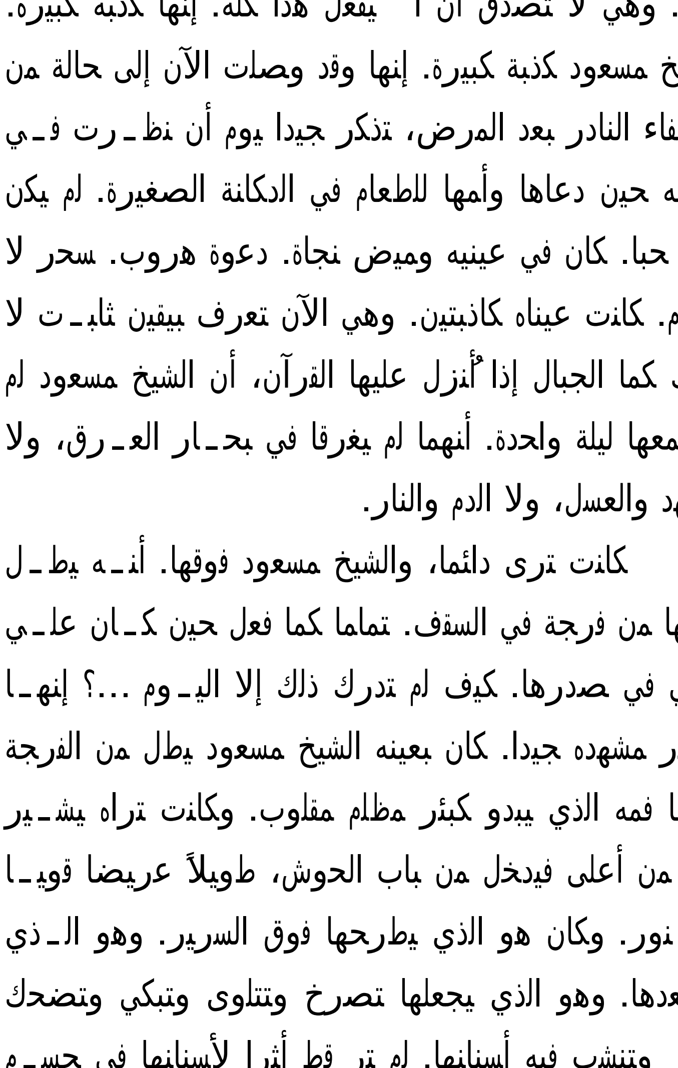
السرير وقبلتها. قالت لها أنها لابد أن تقاوم المرض وتنهض، وقالت إن إحسان حدثتها أنها سمعت بأن قطارا كان يأتي هنا منذ سنين يحمل الكَنَسة التي يكون بينها قطع مختلفـة مـن الحديد والنحاس والألمونيوم والزهر، وأنها سألتها لماذا لـم يعد هذا القطار يأتي، ولماذا لا يحاولون أن يعيدوه، فمرتـب الرجل قليل والحياة صعبة، والصراف الذي يأتي كل شـهر يصرف للرجال الرواتب يقول أنه لا أمل في أي زيادة ...؟ تعجبت سعاد لذلك كثيرا ثم نامت وهي لا تدري.

استطاعت سعاد أن تقاوم المرض كما طلبـت منهـا ليلى! وكلما اقترب الشتاء أرادت أن تعرف من الذي أوقعها في الشباك الصارمة. تركها الشيخ العجوز وتركها الصـبي الذي انتظرته كثيرا. وفي ليلة لم تأت فيها ليلى عرفت سعاد أي جناية جناها عليها بعلها. قالت إنها أخطأت حين انتظرت أن يرسل إليها أحدا من عنده، أو يرسل ا ، فالنهايـة التـي انتظرتها منذ زمن هي أن تهب نفسها لعلي. لقد جاء في ليلة كرات النار، حدثها كثيرا عن الارتحال الذي تكرهه، وعـن المرتحلين الذين كانوا نور المكان وبهجة الزمن. قالـت لـه إنها تخاف أن لا يعود. كان جالسا جوارها علـى الأريكـة.

ودت لو ضمته فأعطته سر جذوة العشق التي لا تخمد. لكنها رأت في عينيه لهيبا وعزما على شيء لا تعرفه. أما الرغبة فبدت ميتة. نظرت إليه مليا فدفن وجهه في صدرها. هدهدته كابنها. رفع لها وجهها ذليلاً وقال إنه يخاف ألا يراها مـرة ثانية. قبلته على خديه وقالت له إنها ستنتظره. ثم ابتسـمت وقالت : "بشرط أن يعرف لم الانتظار ...؟" وكانت تشعر به ترتفع حرارته بين يديها وعلى صدرها. ودت لـو فعلتهـا. لكنها تشاءمت. قالت من نفسها أنها تريد أن تراه مرة أخرى. وتركها. ظلت طوال الأيام التي تلت ذلك كلما رأته بكت في سرها. وحين تجد نفسها في حجرتها وحدها تبكي بصـوت يكاد يحرك الجدران. وكان آخر ما فعله ليلـة الرحيـل أن أوصاها بليلى. قال لها لو انتظراه سيعود. ولـو عـاد ولـم يجدهما سيبدأ في الارتحال الذي لا عودة منه..

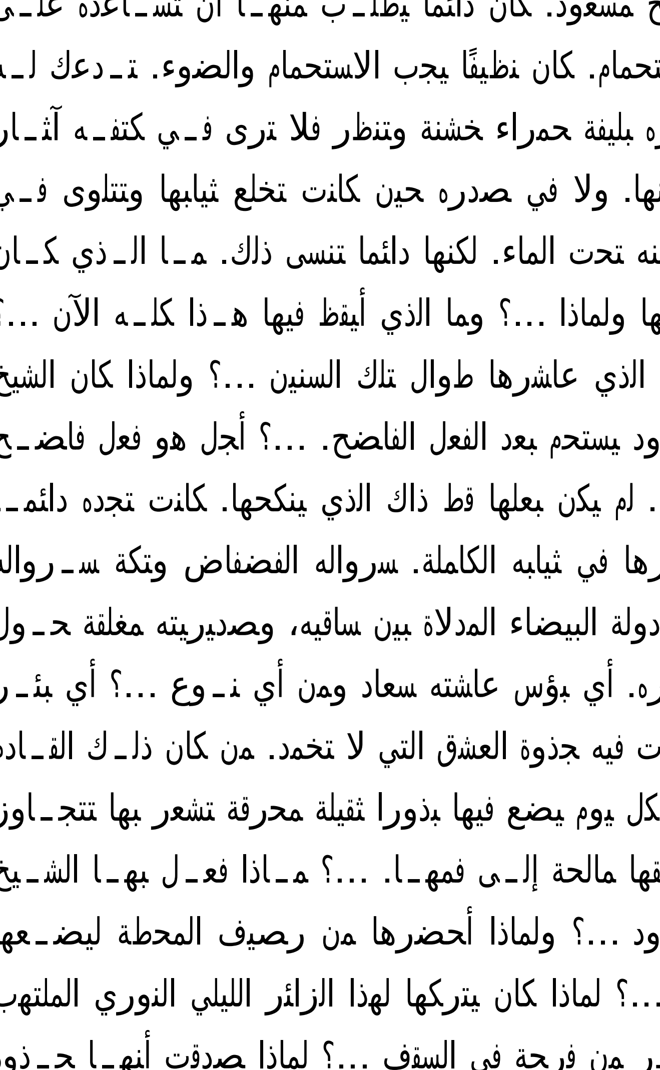
قالت لبعلها أن يسامحها. ثم قالت : "تركتني وتريـد أن تحاسبني لماذا. ...؟" كانت ترى عينه تطل عليهـا مـن أعلى السقف كعين شمس غاضبة..

كان الشيخ مسعود قد قال لها إنه، ا ، لا يفكـر أن يفعل شيئًا، إنما يقول لكل شيء كن فيكون. والآن كل شـيء



كان. وهي لا تصدق أن ا يفعل هذا كله. إنها كذبة كبيرة. الشيخ مسعود كذبة كبيرة. إنها وقد وصلت الآن إلى حالة من الصفاء النادر بعد المرض، تذكر جيدا يوم أن نظـرت فـي عينيه حين دعاها وأمها للطعام في الدكانة الصغيرة. لم يكن ذلك حبا. كان في عينيه وميض نجاة. دعوة هروب. سحر لا يقاوم. كانت عيناه كاذبتين. وهي الآن تعرف بيقين ثابـت لا يندك كما الجبال إذا أُنزل عليها القرآن، أن الشيخ مسعود لم ينم معها ليلة واحدة. أنهما لم يغرقا في بحـار العـرق، ولا الشهد والعسل، ولا الدم والنار.

كانت ترى دائما، والشيخ مسعود فوقها. أنـه يطـل عليها من فرجة في السقف. تماما كما فعل حين كـان علـي يبكي في صدرها. كيف لم تدرك ذلك إلا اليـوم ...؟ إنهـا تتذكر مشهده جيدا. كان بعينه الشيخ مسعود يطل من الفرجة فاتحا فمه الذي يبدو كبئر مظلم مقلوب. وكانت تراه يشـير إليه من أعلى فيدخل من باب الحوش، طويلاً عريضا قويـا كله نور. وكان هو الذي يطرحها فوق السرير. وهو الـذي يصعدها. وهو الذي يجعلها تصرخ وتتلوى وتبكي وتضحك بعهر وتنشب فيه أسنانها. لم تر قط أثرا لأسنانها في جسـم


الشيخ مسعود. كان دائما يطلب منها أن تساعده على الاستحمام. كان نظيفًا يحب الاستحمام والضوء. تدعك له ظهره بليفة حمراء خشنة وتنظر فلا ترى في كتفه آثار أسنانها. ولا في صدره حين كانت تخلع ثيابها وتتلوى في حضنه تحت الماء. لكنها دائما تنسى ذلك. ما الذي كان ينسيها ولماذا ...؟ وما الذي أيقظ فيها هذا كله الآن ...؟ ومن الذي عاشرها طوال تلك السنين ...؟ ولماذا كان الشيخ مسعود يستحم بعد الفعل الفاضح. ...؟ أجل هو فعل فاضح وزنا. لم يكن بعلها قط ذاك الذي ينكحها. كانت تجده دائما جوارها في ثيابه الكاملة. سرواله الفضفاض وتكة سرواله المجدولة البيضاء المدلاة بين ساقيه، وصديريته مغلقة حول صدره. أي بؤس عاشته سعاد ومن أي نوع ...؟ أي بئر غرقت فيه جذوة العشق التي لا تخمد. من كان ذلك القادم ليلاً كل يوم يضع فيها بذورا ثقيلة محرقة تشعر بها تتجاوز طريقها مالحة إلى فمها. ...؟ ماذا فعل بها الشيخ مسعود ...؟ ولماذا أحضرها من رصيف المحطة ليضعها هنا ...؟ لماذا كان يتركها لهذا الزائر الليلي النوري الملتهب وينظر من فرجة في السقف ...؟ لماذا صدقت أنها جذوة

العشق التي لا تخمد، فكانت كلما رقصت رأت الكـون كلـه نورا في عينيها وودت حين يحرقها العرق لو تحول الكـون كله إلى ذكر ضخم ...؟ لقد قال لها أن جذوة العشق التي لا تخمد لا يمكن أن تسقط أبدا، وصدقته فقتلت كثيرين..

ثقل على سعاد ما فعلته. ثقل عليها أكثر أنها لم تقطع الشوط إلى النهاية، وضاع الغلام الذي تاقت له كثيـرا. لـم تأتها ليلى هذا المساء فتركتها مع نفسها في حساب عنيـف. إنها تعرف كم كذبت على ليلى.

قتلت فريد ولم يقتله غيرها. كان يأتيها كـل مسـاء دائرا حول نافذتها أكثر من مرة. يظل يدور حتى يسمع آذان الفجر. تراه من خلف ثقب بالنافذة. حتى في ليـالي المطـر وليلى تبيت معها كانت تنهض من نومها ولا تشـعر ليلـى بحركتها. ينقر الشباك الخشبي نقرات رفيعة كصراخ الجندب أو كصوت حبات المطر الرقيقة. تفتح له النافـذة مكشـوفة الصدر والليل برد زمهرير. تخرج له صدرها فيتعلق الفتـى النحيل بحلمتي الثديين. يعبث بهما كثيـرا وهـي تضـحك متأودة، أو تكتم ضحكتها إذا كانت ليلى عندها. تغـرق فـي بحار النشوة لكنها أبدا لا تتركه يتجاوز. لا توافق أن يلتـف

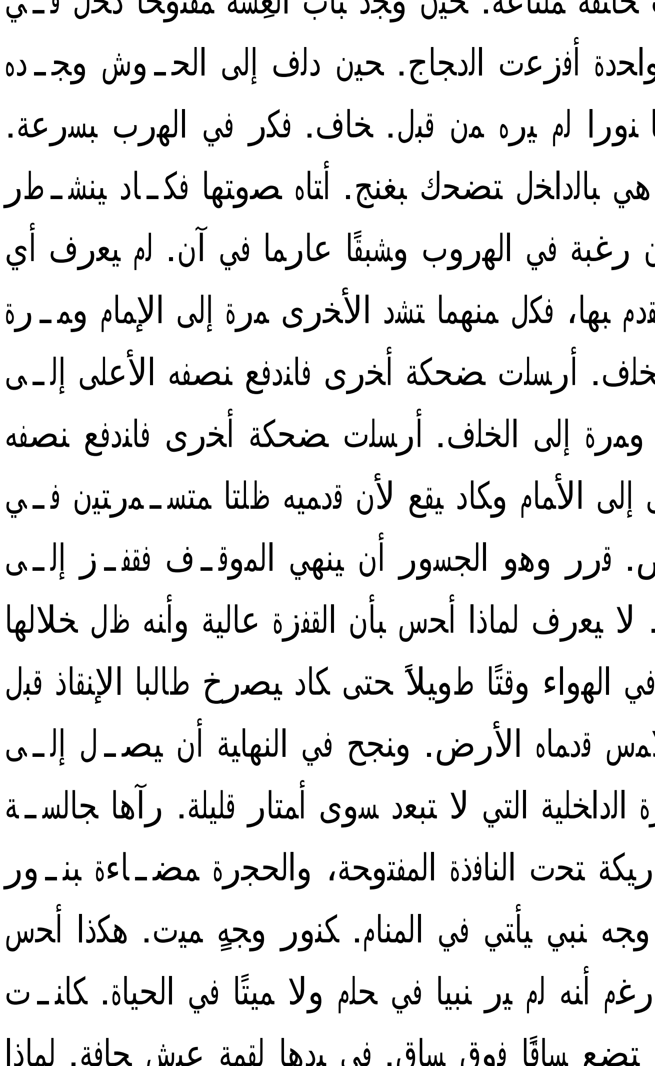
ويدخل من الباب. يرتفع الفتى النحيل ليضع فمه حول كـل حلمة ثدي مرة. يرتشف كما يفعل الجـدي الصـغير تحـت ضرع أمه. تشعر بالنظارة ذات الملمس البارد فوق صدرها ترفعها من فوق أنفه وتمسكها في يدها ضاحكة. يتألم الفتـى النحيل ويبكي يشد شعره. يقول لها أن تتركه يدور مرة. لـو دخل يقهر قلب المكتوب ...! يقول لهـا : "هكـذا سـنموت جميعا" تقول له : "در إذا استطعت". يبكي ويقول إنه يعرف إنه لن يستطيع. وأنه سيموت تحت النافذة. لكنه لم يمت تحت النافذة. وجدوه بعيدا بأمتار كثيرة فوق قضيب قديم صـديء وقد سقط فوق سلك كهربي سميك. لكنها هي التي قتلتـه. لا تستطيع أن تنسى ذلك. ولا تنسى أنها ظلت جذوة العشق التي لا تخمد والتي قتلت كثيرين.

قتلت جابر الذي كان يأتيها جهارا في النهـار. فـي ساعة القيلولة والشيخ مسعود نائم يغط. تفتح له الباب فيدخل متحفزا كالنمر. يقفز حولها لكنه لا يقفز فوقها. تقول له هـذا هو الوقت الذي يجب أن تأتيني فيه. يشير للعجـوز النـائم. تقول : "هذا هو الوقت". يقول لها: "الليل". تقـول : "الليـل فضاح". والنهار ستر الخيانة الأبدي عند من يفهم ...! يقول:

حقًا : "إنك لعكس نساء العالمين". تقول : " تقـدم". وتخلـع ثيابها. تقف عارية وجابر يجف حلقة بنار المباغتة. تـرتعش ساقاه. يرتعش ثدياه بالنشوة وتتخدل ذراعاه تسقطان بجواره. تسقط دموعه كطفل منع عنه الطعام وهو أمامه. يشعر أنـه مغلول بقوة أكبر منه. يغمغم بكلام كثير لا تفهمه. تفتح لـه باب العِشة وهي عارية. يخرج مكسورا حزينًا يكـاد يقطـع لسانه تحت ضغط أسنانه. لا تنسى أبدا نظراته وهي تخترق جسمها وهي تقطع البيت عارية إلى باب العِشة. وتظل هـي جذوة العشق التي لا تخمد. هكذا قال لها بعلها وصدقته فقتلت الكثيرين. واحد فقط لم تقتله هو بعلها. وتعرف الآن أن الذي قتله هو الذي كان يأتيها كل ليلة نورا كله. لكن لماذا قتلتـه على هذا النحو البشع ...؟ ولماذا لم يعد يأتيها ...؟ ولمـاذا تركها كثيرا تقيم طقوس العشق مع رجل ميت لم يكن حيـا قط ...؟

تكبر الكذبة أمامها. تقلب أيامها وسنينها. الليلة تريـد أن تعرف. حين رأت القطط والكلاب تلغ في فحـم دجـاج زينب أحست بقرب النهاية. بأنها تريد أن تصرخ في وجـه شيء لا تعرفه. الليلة تريد أن تصرخ. أيام المطر قادمة. لقد

تبدلت الوجوه فاكتملت البيوت أو أوشكت. وهذا التبدل لـن يجعل الشتاء هينًا. فسوف يقبل لينهى زمنًا رخيصـا أسـرع بالمكائد والجنون. وهي جذوة العشق التي لا تخمـد تعـرف الآن يقينًا أن ا الذي قالت إنه لا يمكن أن يتأخر أكثر مـن عامين، قرر أن يتأخر كثيرا. إن علينا دينًا سـتدفعه، ولـن ينجيها منه غير علي الذي يشع ذكاء. كان يكبر أمام عينيهـا كل يوم ويتجه إلى ربوة الرجال. كانت موقنة أنـه سـيأتيها بسرعة فوق براق يتجاوز أترابه من الغلمـان. رأت ذلـك كثيرا حين كانت تصعد إلى السطح تفتح صدرها للمطـر. لا تزال تذكر تلك العربة الصغيرة التي كان علي يسبح بها بين السحب ويلقي من فوقها عليها الورود. كانت مثـل عربـة المفتش، لكن لا يدفعها رجال. يقودها البراق الذي لـم تـره قط. وليس خلفها جابر وحامد أو أمامها.. حامـد المسـكين الذي كان يعدو بالنهار خاف عربة المفـتش وبالليـل وراء الشبق العارم. قال لها شيء يدفعني لأجري نحوك فلم تمنعه. قالت له: "الموعد صلاة العشاء". ليكون الشيخ مسعود متهجدا في الجامع ويكون هو متبتلاً فوق صدرها. وضحكت فدارت الدنيا به وكاد يقع. أتاها كالقنفذ يمشي جـوار العشـش فـي

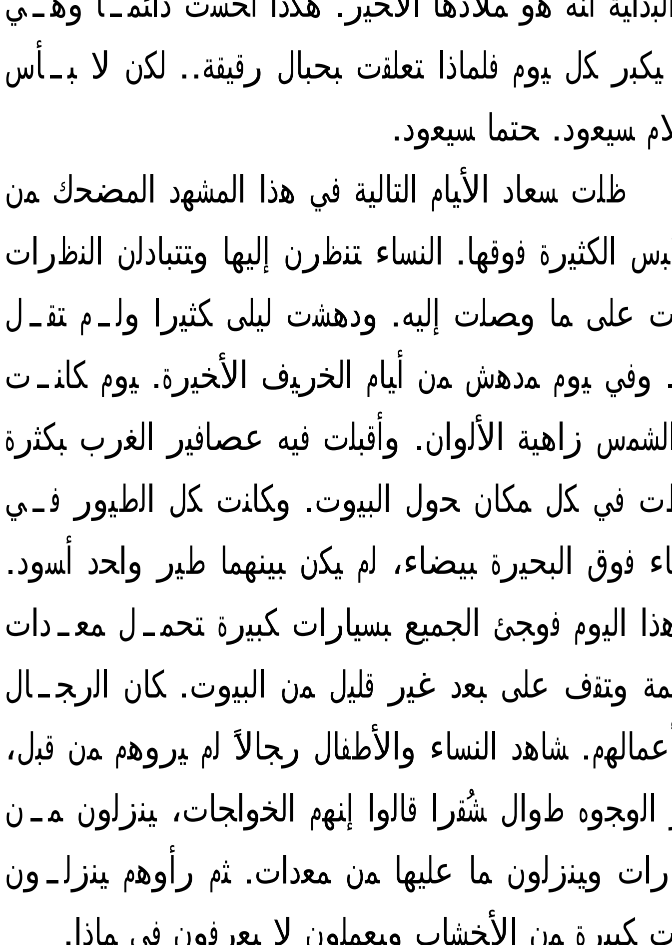


قفزات خائفة ملتاعة. حين وجد باب العِشة مفتوحا دخل في قفزة واحدة أفزعت الدجاج. حين دلف إلى الحوش وجده مضيئًا نورا لم يره من قبل. خاف. فكر في الهرب بسرعة. كانت هي بالداخل تضحك بغنج. أتاه صوتها فكاد ينشطر نصفين رغبة في الهروب وشبقًا عارما في آن. لم يعرف أي قدم يتقدم بها، فكل منهما تشد الأخرى مرة إلى الإمام ومرة إلى الخاف. أرسلت ضحكة أخرى فاندفع نصفه الأعلى إلى الأمام ومرة إلى الخاف. أرسلت ضحكة أخرى فاندفع نصفه الأعلى إلى الأمام وكاد يقع لأن قدميه ظلتا متسمرتين في الأرض. قرر وهو الجسور أن ينهي الموقف فقفز إلى الأمام. لا يعرف لماذا أحس بأن القفزة عالية وأنه ظل خلالها معلقًا في الهواء وقتًا طويلاً حتى كاد يصرخ طالبا الإنقاذ قبل أن تلامس قدماه الأرض. ونجح في النهاية أن يصل إلى الحجرة الداخلية التي لا تبعد سوى أمتار قليلة. رآها جالسة فوق أريكة تحت النافذة المفتوحة، والحجرة مضاءة بنور كنور وجه نبي يأتي في المنام. كنور وجهٍ ميت. هكذا أحس حامد رغم أنه لم ير نبيا في حلم ولا ميتًا في الحياة. كانت عارية تضع ساقًا فوق ساق. في يدها لقمة عيش جافة. لماذا

لقمة عيش جافة ...؟ هكذا فكر حامد فيما بعد. لـم يعـرف المسكين أنها وهي في الحجرة الداخلية كانـت تـراه بقـوة سحرية وتدرك كل مشاعره وآلامه. كانت عيناها واسـعتين كسمائين. صدرها بارز كتَلين. ذراعاها ممتـدتين كـذراعي عربة المفتش. عرف حامد أنه لن يطأها أبدا. إنه دائما خلف ذراعي العربة ولم يركب العربة قط. وحتى إذا جاء أمامهما فإنه لن يركب العربة. وخرج يجري كمجنون.

في تلك الليلة عرفت أنه سيظل يجري حتى الجسر. وأنه سيبحث عن زينب هناك فيقع في غيرها. فزينـب فـي البيت تنتظره وستنتظره دائما... "آه يا شيخ مسـعود كيـف خدعتني. لكن أين أنت لأنتقم ...؟ أين هم جميعا ...؟ حتـى الغلام ضيعته من يدي".

وارتدت سعاد كل ما لديها من ثياب فبدت مضحكة. ونامت متدثرة بكل ما لديها من غطاء. لن تتعرى أبدا للشيخ مسعود. وستظل مكنونة كجوهرة حتى يعود الغـلام الـذي طلب منها انتظاره. ذلك الغلام الدقيق ملامح الوجه. صـغير الأنفس واسع العينين العسليتين اللامعتين اللتين تحكيان كثيرا من الأسرار. ذو الشعر الأسود اللامع صغير الفـم والـذي



تأسف من أجله لأنها ضيعت كثيرا من وقتها في انتظار رسول لن يأتي من قبل زوجها، بينما كان يجب أن تعرف من البداية أنه هو ملاذها الأخير. هكذا أحست دائما وهي تراه يكبر كل يوم فلماذا تعلقت بحبال رقيقة.. لكن لا بأس فالغلام سيعود. حتما سيعود.

ظلت سعاد الأيام التالية في هذا المشهد المضحك من الملابس الكثيرة فوقها. النساء تنظرن إليها وتتبادلن النظرات آسفات على ما وصلت إليه. ودهشت ليلى كثيرا ولم تقل شيئًا. وفي يوم مدهش من أيام الخريف الأخيرة. يوم كانت فيه الشمس زاهية الألوان. وأقبلت فيه عصافير الغرب بكثرة وحطت في كل مكان حول البيوت. وكانت كل الطيور في السماء فوق البحيرة بيضاء، لم يكن بينهما طير واحد أسود. في هذا اليوم فوجئ الجميع بسيارات كبيرة تحمل معدات ضخمة وتقف على بعد غير قليل من البيوت. كان الرجال في أعمالهم. شاهد النساء والأطفال رجالاً لم يروهم من قبل، حمر الوجوه طوال شُقرا قالوا إنهم الخواجات، ينزلون من السيارات وينزلون ما عليها من معدات. ثم رأوهم ينزلون كميات كبيرة من الأخشاب ويعملون لا يعرفون في ماذا.

في المساء قال المفتش لسعاد أن عليها أن ترحل في الصباح فهناك من سيأتي ليسكن في المنزل، ذهبت إلى ليلى فقال لها أبو علي وأمه : "كنا نعرف ونحن في انتظـارك.. سننقل ما عندك هنا إذا شئت الآن". قبلت يد الرجل وأخـذت ليلى معها وجعلتا تنقلان ما لديها من متاع قليل. قالت لليلى:

- ماذا يفعل الخواجات ...؟

قالت :

- أبي يقول إنهم سيردمون البحيرة..

أحست سعاد بقلبها يغوص.. وأحست به يرتفع.. لـم تعرف هل تبكي أم تفرح. لكنها تأكدت من شعورها بأن ركنًا في الدنيا سينهار. ثم تذكرت ما كانت قد فكرت فيه من قبل. أن ترى وجه القادم ليحتل بيتها في الغد. سـقطت دموعهـا كالنهر يتدفق في هدوء. إن للبيت ركنًا في قلبها يتصدع. بل هو كل قلبها. أي زمن بائس عاشت سعاد لتراه. هـل كـان يعرف أبوها حين شرد ماذا خطت يده لابنته الوحيـدة مـن آلام ...؟ لقد جاهدت سعاد كثيرا أن لا تقـع وهـي تنقـل متاعها. لكنها الآن وهي تأخذ آخر ما بقي، تلك المصـاحف التي علقها الشيخ مسعود والآيات على الجدران، تشعر أنهـا

ستسقط لا محالة. حين وصلت إلى عتبة الحـوش سـقطت. كانت تريد أن تقبل العتبة.. انحنـت ليلـى عليهـا بسـرعة لتسندها. لكن سعاد كانت قد وضعت شفتيها فـوق العتبـة، وظلت تحتضن المصاحف والآيات في صدرها. قبلت العتبة، وأرض الحوش.

نامت في البيت الجديد الذي أواها. في الحقيقة ظلت طول الليل ساهرة فوق سريرها الذي صار الآن في حـوش بيت أسرة ليلى. في الصباح بعد أن خرج الرجال إلى عملهم صعدت هي فوق السطح وجلست وحيدة.. كانت تخشـى أن يراها أحد وهي تنظر إلى الوافد الجديد. في الضحى أقبلـت عربة صغيرة يجرها حمار وفوقها قليل متاع ورجل عجـوز في حوالي الخمسين. تماما كما رأت الشيخ مسعود أول مرة. كانت زوجته تضع خمارا أسود على وجهها. حـين توقفـت العربة هبط العجوز وهبطت زوجته. بدأ في حمـل المتـاع يساعده الحوذِي. توقفت زوجته قليلاً ثـم رفعـت خمارهـا ونظرت. رأت النساء جميعا تقفن أمام أبواب العشش. لكنهـا لم تر سعاد التي كانت فوق السطح تنظر إليها. رأتها سـعاد امرأة صغيرة تبدو كفتاة في العشرين. جميلة مبهرة الجمال.

تقف في الساحة القريبة وكأنها امتلكت الـدنيا ومـا عليهـا. ابتسمت سعاد وهي تتخيل ما ستفعله هذه المرأة وما سـيقال عنها. أحست برعدة شديد فقالت : في نفسها "ليس الأمر على هذا النحو – ورددتها أكثر من مرة – لقد اكتملـت البيـوت الآن وهناك إصرار على النسـيان". واتسـعت بهـا الـدنيا فأدركت أنها صارت تفهم كل شيء. ثم رأت كـأن الهـواء يطويها والبيوت تسقط فوقها فقالت في نفسها بعزم : "لكـن علي سيعود".

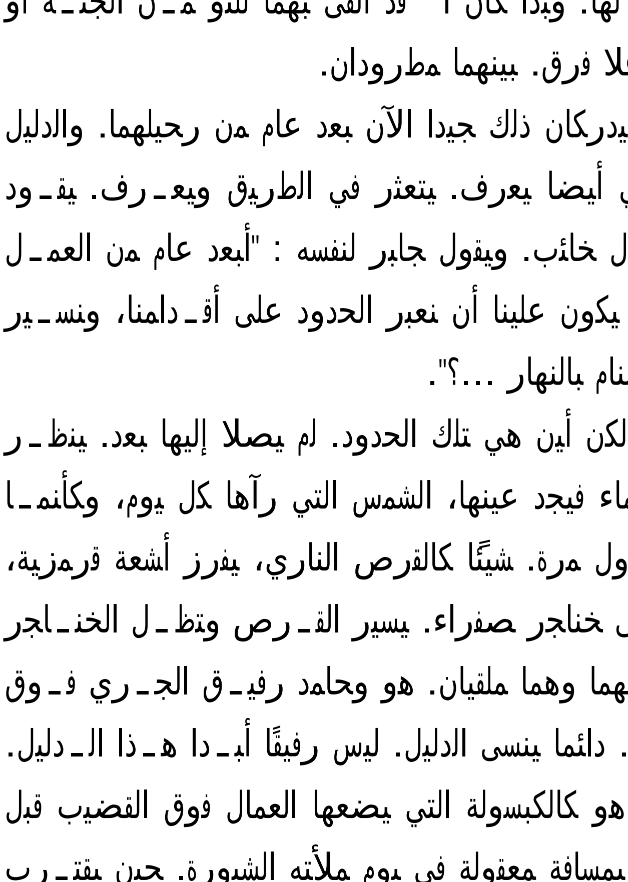
* * * * * *

الصحراء

جابر وحامد

لا أحد يعرف سر الصحراء. ا خلقها لغزا أبـديا. تمر عليها الدهور والأمم، ويظل الزمن والناس فوقهـا منـذ يوم الخلق الأول. رحلة الشمس باهتة من فرط التكرار. ولا الشمس أحرقتها ولا الرمال ضجت بالنار. والنجوم البهية في قبة الليل الساجي محض خيال. والقمـر المسـكين لا يظـل طويلاً وينساه العشاق. والريح تصخب تحت الشمس وتحـت القمر، لكن لا الثعابين رحلت ولا الوحوش والهوام. ملايـين من الكثبان انسطحت تحت وطأة الريح. لكن لا أحد يستطيع أن يقول أنه قد خلت منها الصحراء. هذه الصحراء العفيـة تخضع للطفل الصغير الذي يعدو خلف رأسي غنم شـردت في الخيمة المهترئة يعيش تحتها بشر منبتون. أي لغز هـو هذا التيه، وما الذي ألقى بهما فيه ...؟

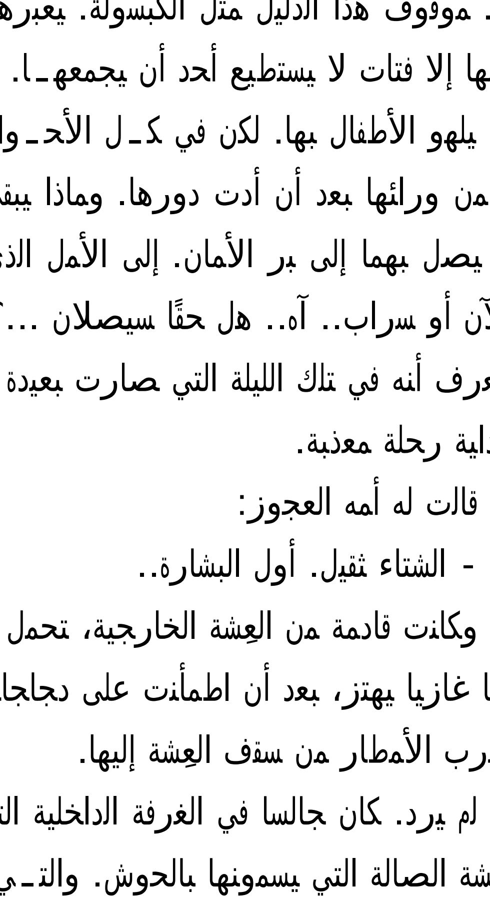
كانا منطرحين على الأرض حولهما الفضاء الرحب. الأرض صفراء تحتهما والسماء فوقهما زرقاء، وكل منهمـا



لا نهاية لها. وبدا كأن ا   قد ألقى بهما للتو مـن الجنـة أو الجحيم فلا فرق. بينهما مطرودان.

يدركان ذلك جيدا الآن بعد عام من رحيلهما. والدليل الأعرابي أيضا يعرف. يتعثر في الطريق ويعـرف. يقـود رحلة أمل خائب. ويقول جابر لنفسه : "أبعد عام من العمـل والوحدة يكون علينا أن نعبر الحدود على أقـدامنا، ونسـير بالليل وننام بالنهار ...؟".

لكن أين هي تلك الحدود. لم يصلا إليها بعد. ينظـر إلى السماء فيجد عينها، الشمس التي رآها كل يوم، وكأنمـا يراها لأول مرة. شيئًا كالقرص الناري، يفرز أشعة قرمزية، تصل إلى خناجر صفراء. يسير القـرص وتظـل الخنـاجر تصل إليهما وهما ملقيان. هو وحامد رفيـق الجـري فـوق القضبان. دائما ينسى الدليل. ليس رفيقًا أبـدا هـذا الـدليل. موقوت هو كالكبسولة التي يضعها العمال فوق القضيب قبل المحطة بمسافة معقولة في يوم ملأته الشبورة. حين يقتـرب القطار من المحطة يعرف السائق الـذين يحجـب الضـباب الأضواء عنه والسيمافور، حين تدوس عجلات القطار فـوق الكبسولة فتصل إلى فرقعتها العالية، إن أمامه محطة فيبدأ في



التوقف. موقوف هذا الدليل مثل الكبسولة. يعبرها القطار فلا يبقى منها إلا فتات لا يستطيع أحد أن يجمعها. ربما في الصباح يلهو الأطفال بها. لكن في كل الأحوال لا تعود جدوى من ورائها بعد أن أدت دورها. وماذا يبقى من الدليل بعد أن يصل بهما إلى بر الأمان. إلى الأمل الذي هو أحمق حتى الآن أو سراب.. آه.. هل حقًا سيصلان ...؟ لم يكن جابر يعرف أنه في تلك الليلة التي صارت بعيدة الآن، كان يقرر بداية رحلة معذبة.

قالت له أمه العجوز:

- الشتاء ثقيل. أول البشارة..

وكانت قادمة من العِشة الخارجية، تحمل في يدها مصباحا غازيا يهتز، بعد أن اطمأنت على دجاجاتها، وعلى عدم تسرب الأمطار من سقف العِشة إليها.

لم يرد. كان جالسا في الغرفة الداخلية التي تفصلها عن العِشة الصالة التي يسمونها بالحوش. والتي بها دورة المياه التي يعدون سقفها سندرة يضعون فوقها الخبز، في الوقت الذي يضعون جوار جدران الحوش صفائح الجبن القديم، وبعض الأجولة الفارغة، وكل أدوات المعيشة، إذ

يجعلون الغرفة الداخلية للنوم، والضيافة والسهر. كان جـابر دائما حين يمر بالحوش، ويرى الأشياء المبعثـرة القـذرة، يشعر بها تحاصره وتكبس على صدره. ولم تكن أمه تـراه جيدا في تلك الليلة الماضية رغم أن الغرفة مضاءة بمصباح غازي كبير ...! قالت :

– كان قلبي يحدثني بعودته دائما. يقولون أنه سيصل بعد غد. وهذه المرة سيأتي.

لم يرد. كان جالسا فوق الأريكة الوحيدة التي ينـام فوقها أيضا بعد أن ترك السرير لأمه التي يحبها كثيرا. كان ضاما ساقيه إلى صدره، لافًا نفسه بحِرام صوفي خشن، ولا يبدو منه غير وجهه.

كان جابر دائم الدهشة من أمه. إنها تهتم لحضـور القطار وهي العجوز التي لا تخرج إليه ولا منه تفيد. يراهـا أكثر السكان حزنًا على مغيبه. أمضيت الصيف كله تصـلي لعودته. رهنت كل شيء بذلك، كما ربطـت كـل النوائـب بغيبته. إذا لجأت إليها النساء للصلح بعد مشـاجرة، لعنـت انقطاع القطار فهو سبب الشجار. إذا سرقت بعض دجاجات أو أصابها وباء أو هاجمتها العِرس، قالت : "يجيء القطـار

فينقطع كل سوء". حين جاءتها روائح، الوافدة، التي لم تـر القطار من قبل، سمعهما تتحدثان في الحوش :

- اصبري حتى يعود القطار.

- لكنه مربوط يا ست أم جابر.

- القطار ربط كل شيء.

- وأنا ما ذنبي ...؟ لقد جئنا بعد غيابه.

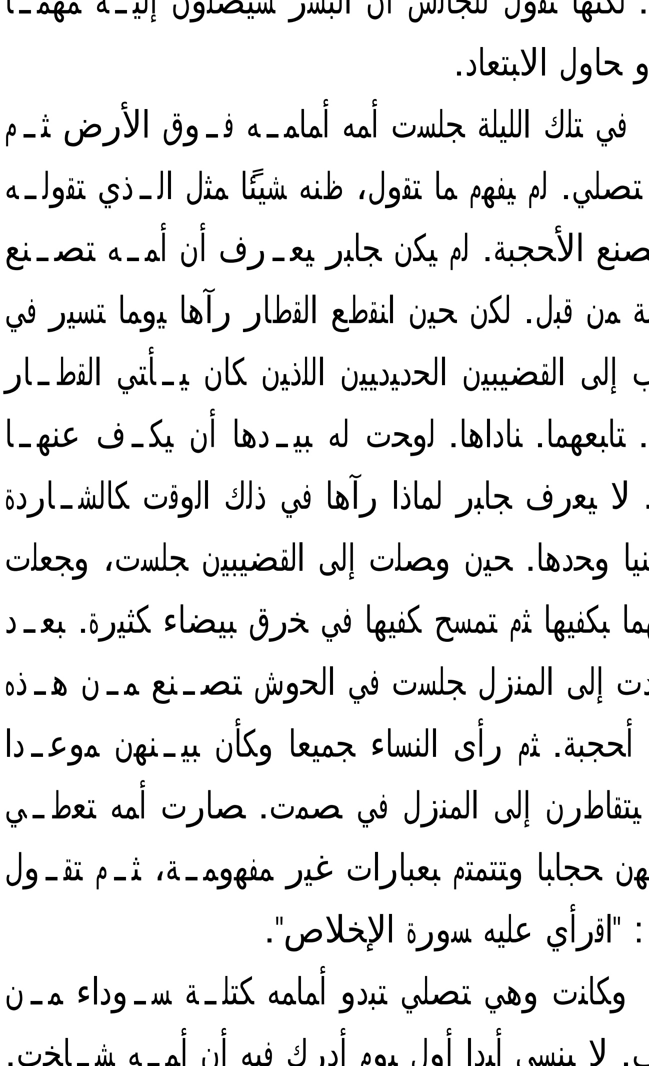
بعد سبعة أيام قال لروائح وهو عائدا متـأخرا فـي المساء وكانت تقف أمام باب العِشة:

- لا تصدقي أمي.

ابتسمت وقالت .

- لم يعد بعد!

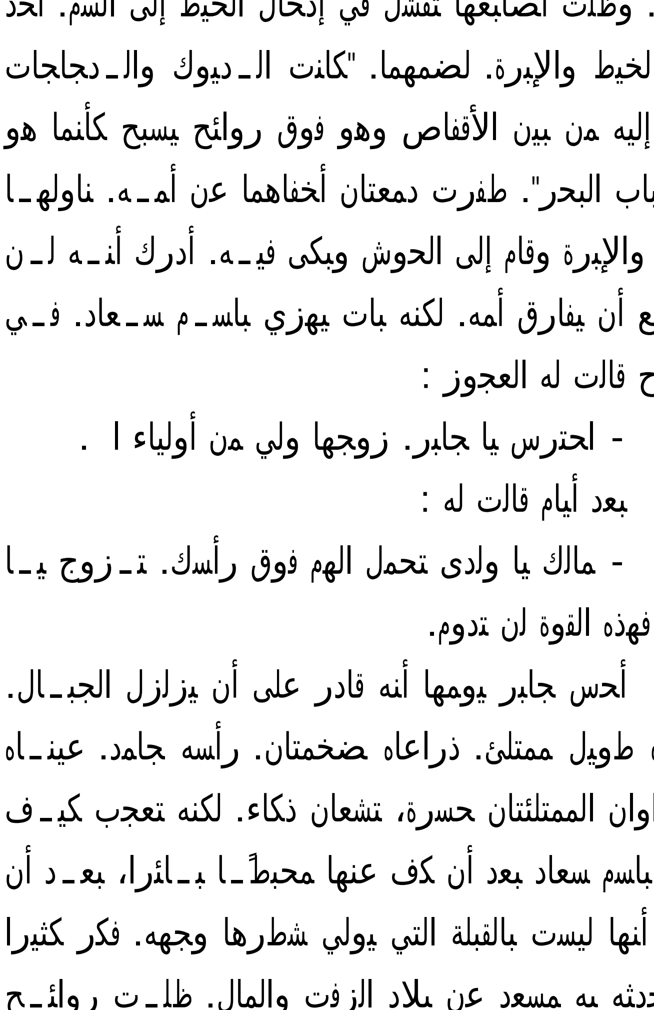
عرف من تعني اللبؤة. نظر حوله بسرعة الـنمس. دفعها إلى الداخل. قبل أن تتكلم كـان أوقعهـا فـوق أرض العِشة. قال في نفسه : "مسكينة يا أمي العجـوز لا تعـرفين كيف يكون علاج الناس". لكن روائح لم تكن أكثر من الطيف الذي يراه الجالس في غرفته وحيـدا فجـأة. ذلـك الطيـف المخاتل الذي يقطع على الإنسان الخلوة فيحسب أن معه أحدا ثم لا يبقى منه إلا أنه قطع سبحات الفكر والهمـوم للحظـة



خاطفة. لكنها تقول للجالس أن البشر سيصلون إليه مهما ابتعد أو حاول الابتعاد.

في تلك الليلة جلست أمه أمامه فوق الأرض ثم جعلت تصلي. لم يفهم ما تقول، ظنه شيئًا مثل الذي تقوله حين تصنع الأحجبة. لم يكن جابر يعرف أن أمه تصنع الأحجبة من قبل. لكن حين انقطع القطار رآها يوما تسير في الغروب إلى القضيبين الحديديين اللذين كان يأتي القطار فوقهما. تابعهما. ناداها. لوحت له بيدها أن يكف عنها ويعود. لا يعرف جابر لماذا رآها في ذلك الوقت كالشاردة في الدنيا وحدها. حين وصلت إلى القضيبين جلست، وجعلت تمسحهما بكفيها ثم تمسح كفيها في خرق بيضاء كثيرة. بعد أن عادت إلى المنزل جلست في الحوش تصنع من هذه الخرق أحجبة. ثم رأى النساء جميعا وكأن بينهن موعدا سابقًا، يتقاطرن إلى المنزل في صمت. صارت أمه تعطي كلاً منهن حجابا وتتمتم بعبارات غير مفهومة، ثم تقول للمرأة : "اقرأي عليه سورة الإخلاص".

وكانت وهي تصلي تبدو أمامه كتلة سوداء من الضعف. لا ينسى أبدا أول يوم أدرك فيه أن أمه شاخت.



كانت يداها ترتعشان وهي تحاول أن تدخل الخيط إلى سم الإبرة. وظلت أصابعها تفشل في إدخال الخيط إلى السم. أخذ منها الخيط والإبرة. لضمهما. "كانت الديوك والدجاجات تنظر إليه من بين الأقفاص وهو فوق روائح يسبح كأنما هو في عباب البحر". طفرت دمعتان أخفاهما عن أمه. ناولها الخيط والإبرة وقام إلى الحوش وبكى فيه. أدرك أنه لن يستطيع أن يفارق أمه. لكنه بات يهزي باسم سعاد. في الصباح قالت له العجوز :

- احترس يا جابر. زوجها ولي من أولياء ا .

بعد أيام قالت له :

- مالك يا ولدى تحمل الهم فوق رأسك. تزوج يا ولدي فهذه القوة لن تدوم.

أحس جابر يومها أنه قادر على أن يزلزل الجبال. فجسده طويل ممتلئ. ذراعاه ضخمتان. رأسه جامد. عيناه السوداوان الممتلئتان حسرة، تشعان ذكاء. لكنه تعجب كيف هزى باسم سعاد بعد أن كف عنها محبطًا بائرا، بعد أن أدرك أنها ليست بالقبلة التي يولي شطرها وجهه. فكر كثيرا فيما حدثه به مسعد عن بلاد الزفت والمال. ظلت روائح

نزوة تتكرر بفعل المال، على أوقات متباعدة. ظل هو منـذ تعثرت أمه في الخيط والإبرة في حزن ثقيل.

بينما أمه تصلي كان يفكر في الخطاب الذي وصـله من مسعد. ما كادت تنتهي من صلاتها، بعد أن دعـت لـه كعادتها، وكان دعاؤها هو الشيء الوحيد الذي يفهمه، حتـى التفتت إليه قائلة :

- لو كنت تصلي يا جابر.

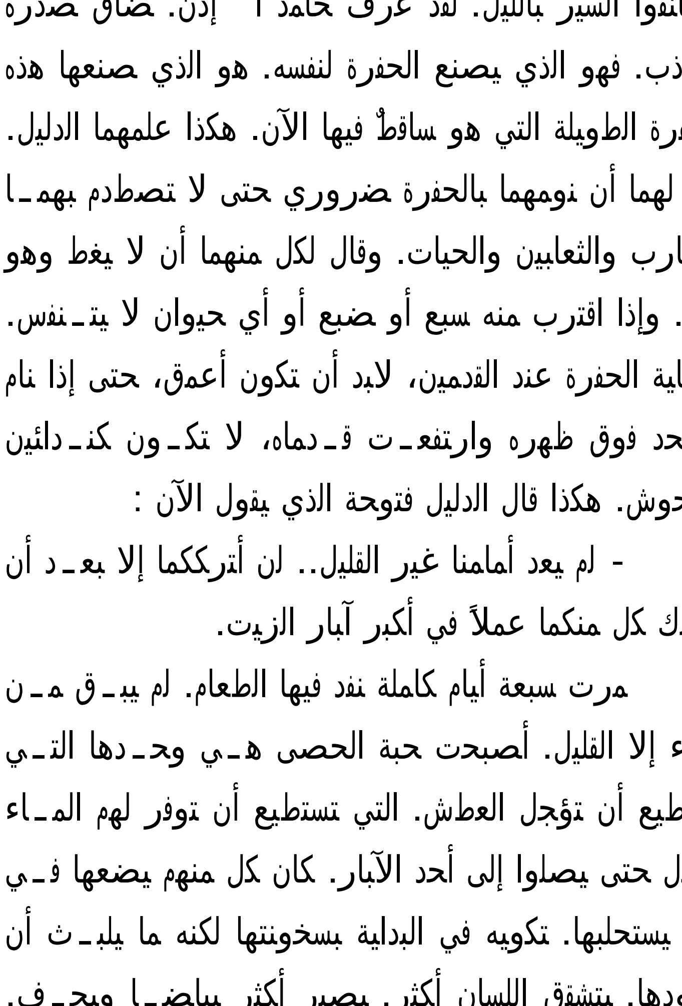
وللمرة الأولى يبوح. كانت دموعه تسـقط بغـزارة. قال يخنقه اليأس :

- يا أمي سأفارقك.. أعود كما ينبغي أو أموت.

ويسمع صوت حامد الذي كان مغطيا وجهه بكوفيـة بيضاء ليقي عينيه حرارة الشمس، يقول مخاطبا الدليل :

- مضى علينا شهر يا فتوحة. ألا نقترب من قريـة نأخذ منها بعض الزاد ...؟

أشار الدليل برأسه يطمئنه. سيواصلون الرحلة أكثر قوة إذن. سيقتربون من فردوس الأموال. لكن حامـد كـان متعبا.. كان يفكر أنهم سيستأنفون السير حين تغرب الشمس وتذهب إلى مهجعها المجهول. ا خلقها كذلك. وخلقهم أيضا



لينهضوا من الحفر التي يصنعونها ليناموا فيها بالنار، كـي يستأنفوا السير بالليل. لقد عرف حامد ا إذن. ضاق صدره بالكذب. فهو الذي يصنع الحفرة لنفسه. هو الذي صنعها هذه الحفرة الطويلة التي هو ساقطٌ فيها الآن. هكذا علمهما الدليل. قال لهما أن نومهما بالحفرة ضروري حتى لا تصطدم بهمـا العقارب والثعابين والحيات. وقال لكل منهما أن لا يغط وهو نائم. وإذا اقترب منه سبع أو ضبع أو أي حيوان لا يتـنفس. ونهاية الحفرة عند القدمين، لابد أن تكون أعمق، حتى إذا نام الواحد فوق ظهره وارتفعـت قـدماه، لا تكـون كنـدائين للوحوش. هكذا قال الدليل فتوحة الذي يقول الآن :

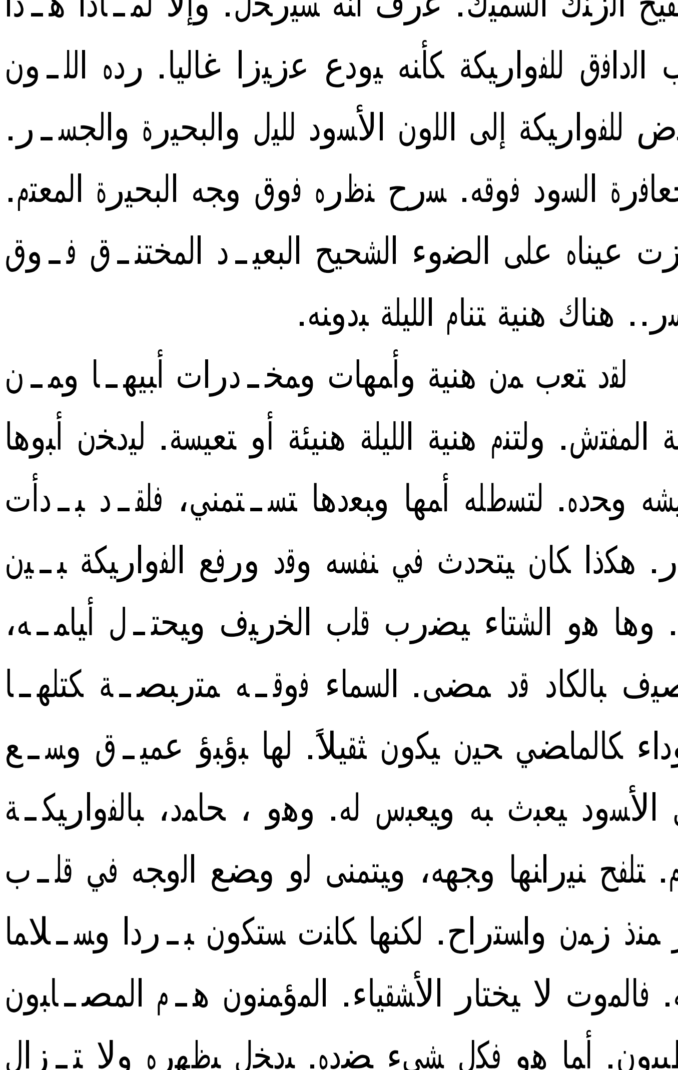
- لم يعد أمامنا غير القليل.. لن أترككما إلا بعـد أن يمسك كل منكما عملاً في أكبر آبار الزيت.

مرت سبعة أيام كاملة نفد فيها الطعام. لم يبـق مـن الماء إلا القليل. أصبحت حبة الحصى هـي وحـدها التـي تستطيع أن تؤجل العطش. التي تستطيع أن توفر لهم المـاء القليل حتى يصلوا إلى أحد الآبار. كان كل منهم يضعها فـي فمه يستحلبها. تكويه في البداية بسخونتها لكنه ما يلبـث أن يتعودها. يتشقق اللسان أكثر. يصير أكثر بياضـا ويجـف.

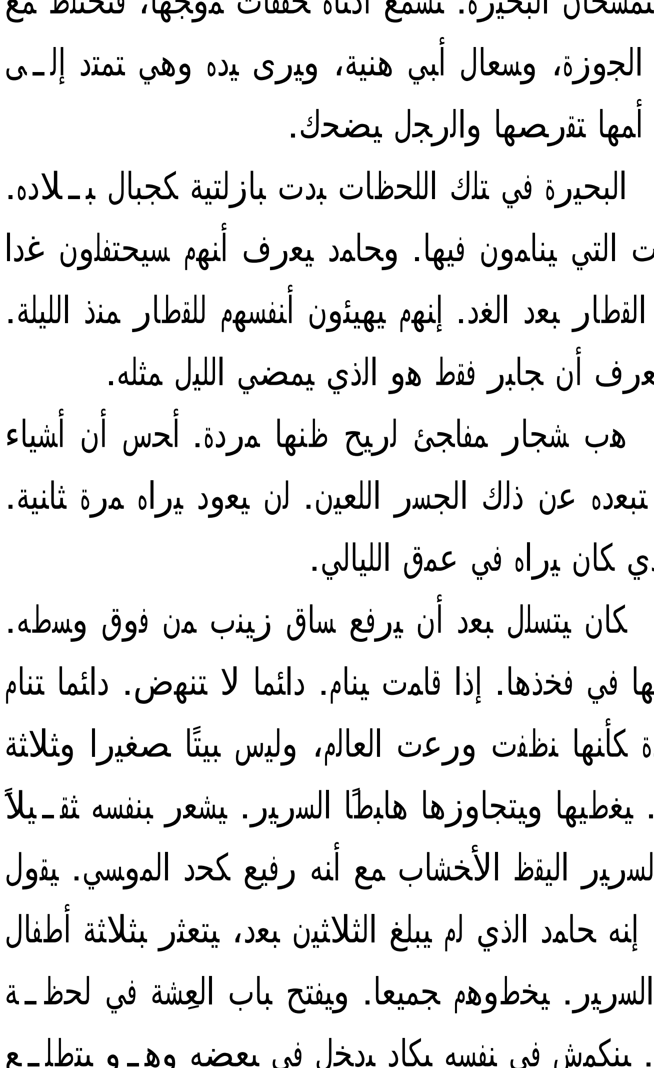
وسرعان ما يجري اللعاب. لكن إلى متى ذلك ...؟ إن آخـر بئر مروا بها بعدوا عنها بعشرة أيام. والماء الباقي لا يكفـي شربتين. نظر حامد إلى النجوم في المساء يخفي خوفه فـي عدها. قال الدليل : "النجوم كثيرة الليلة". قال حامد في نفسه "ما بالها لا ترانا كما نراها ...؟". وكان يعرف أن قدميه لن تستطيعا حمله بعد اليوم. آه .. عربة المفتش. ما أكثـر مـا جرى ولم تتورم قدماه. ما أكثر ما تمزقت الأحذية ولم تتورم قدماه. ما أكثر ما سقط مهدودا تحت شجرة التوت عند مكتب المفتش القريب من محطة السكة الحديـد، وخلـع حذائيـه ليعرض قدميه للهواء، وكان جابر يفعل مثله وينظـر كـل منهما إلى الآخر ضاحكًا، لكن لم تتـورم قـدماه، ولا قـدما جابر. كان عفيا وهو الرفيع الهش، يتسابق مع جابر الـذي يبدو أقوى منه، في الجرى ويسـبقه. يقـول جـابر وهـو يضحك : "أنت عظام كلك مثل العرس". يقول له :"وأنت ماذا أفدت من اللحم والعضلات ...؟" ويضحكان. يقول لجابر أن ينكح ثلاث نساء. يطلب منه أن يذهب معه إلى الجسر. لكن جابر يقول إنه يدخر القوة ليوم يهزم فيه العالم لكه. ويظـل جابر يقف بالقرب منه فوق القضيب الثاني ممسكًا بالـذراع

الأخرى لعربة المفتش. بعد أن يجلس المفتش ويفتح شمسيته ويرفعها فوق رأسه، يعطيهما الإشارة بإصبعه ويقول "هيا يا ولد" ويجريان به وبالعربة إلى المكان الذي يريد. حتى حين يريد الذهاب إلى مكتبة الهندسة الرئيسي بالمدينة كان يذهب فوق عربته وعن طريق القضبان. ويدفعانه جريا إلى هناك. قال لجابر ذات مرة : "لماذا لا يستبدلنا المفـتش ...؟" قـال جابر: "نحن الأصغر سنًا" بصق حامد وقال : "لماذا يكـون علي الأصغر سنًا أن يشقى دائما ...؟" قال جابر: "لابـد أن نرحل. إنني أدبر الأمر مع مسعد. إنه يتحدث عن الناس الذين يذهبون ويعودون بالمال والسيارات ويعيشون فـي المدينـة عيشة هنيئة. يقول إن أحدا لا يعد النقـود. إنهـم يغرفونهـا غرفًا. يغيرونها بعملات أفرنجية. يغيرون العملات الإفرنجية حين يعودون بعملات مصرية كبيرة. آلاف وآلاف.. والناس هناك قليلون وهم يحبون المصريين جدا".

كان حامد يتردد دائما. في النهاية قرر أن لا يتراجع. وحين هجم الشتاء وعرف أن القطار سيأتي بعد غدٍ تـردد. انتظر جابر. وفي المساء خرج ليحضر الفواريكة من أمـام باب العِشة. نظر إليها كأنه ينظر إلى شيء يحبه. بيضاء من


الصفيح الزنك السميك. عرف أنه سيرحل. وإلا لماذا هذا الحب الدافق للفواريكة كأنه يودع عزيزا غاليا. رده اللون الأبيض للفواريكة إلى اللون الأسود لليل والبحيرة والجسر. وللجعافرة السود فوقه. سرح نظره فوق وجه البحيرة المعتم. تركزت عيناه على الضوء الشحيح البعيد المختنق فوق الجسر.. هناك هنية تنام الليلة بدونه.

لقد تعب من هنية وأمهات ومخدرات أبيها ومن عربة المفتش. ولتنم هنية الليلة هنيئة أو تعيسة. ليدخن أبوها حشيشه وحده. لتسطله أمها وبعدها تستمني، فلقد بدأت تمطر. هكذا كان يتحدث في نفسه وقد ورفع الفواريكة بين يديه. وها هو الشتاء يضرب قلب الخريف ويحتل أيامه، والصيف بالكاد قد مضى. السماء فوقه متربصة كتلها السوداء كالماضي حين يكون ثقيلاً. لها بؤبؤ عميق وسع الليل الأسود يعبث به ويعبس له. وهو ، حامد، بالفواريكة بعزم. تلفح نيرانها وجهه، ويتمنى لو وضع الوجه في قلب النار منذ زمن واستراح. لكنها كانت ستكون بردا وسلاما عليه. فالموت لا يختار الأشقياء. المؤمنون هم المصابون والطيبون. أما هو فكل شيء ضده. يدخل بظهره ولا تزال

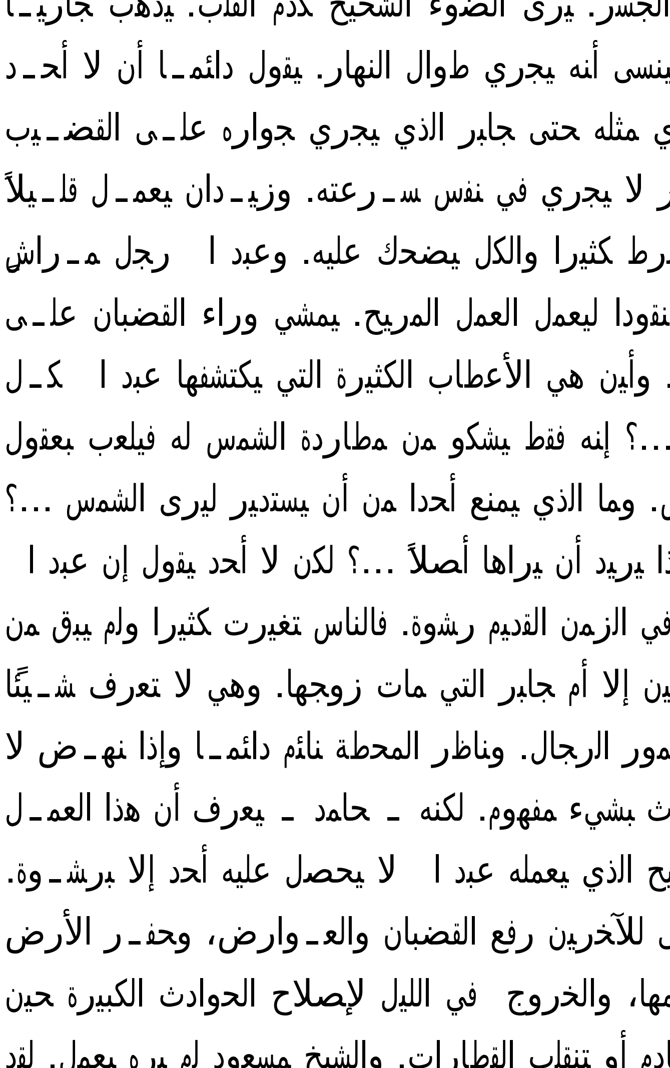


عيناه تمسحان البحيرة. تسمع أذناه خفقات موجها، فتختلط مع قرقرة الجوزة، وسعال أبي هنية، ويرى يده وهي تمتد إلـى حجرة أمها تقرصها والرجل يضحك.

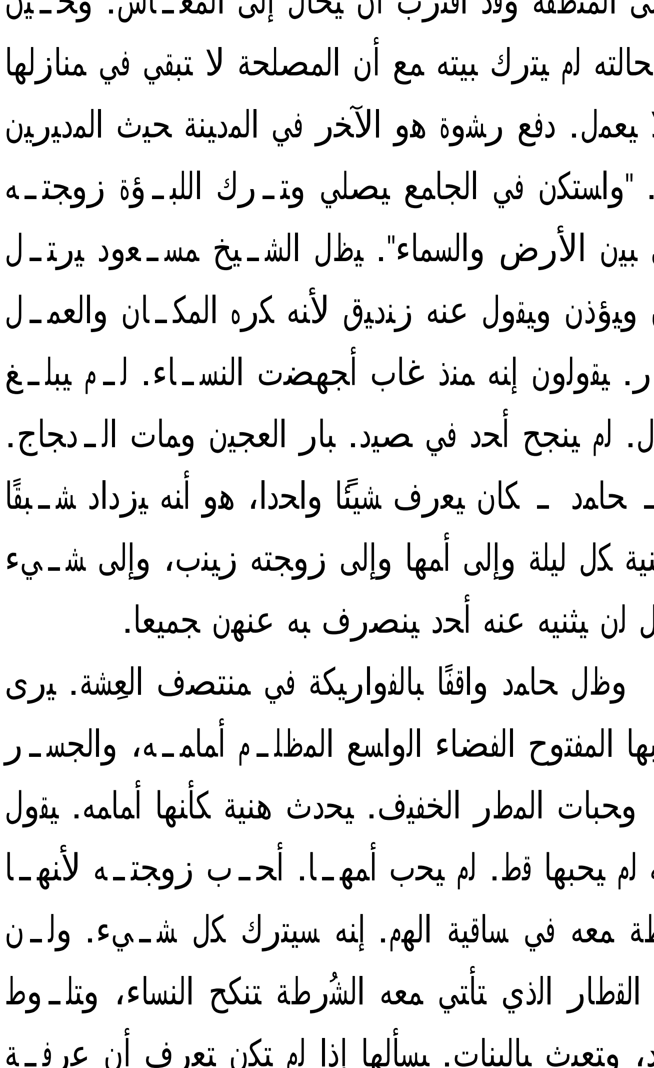
البحيرة في تلك اللحظات بدت بازلتية كجبال بـلاده. كالبيوت التي ينامون فيها. وحامد يعرف أنهم سيحتفلون غدا بعودة القطار بعد الغد. إنهم يهيئون أنفسهم للقطار منذ الليلة. لكنه يعرف أن جابر فقط هو الذي يمضي الليل مثله.

هب شجار مفاجئ لريح ظنها مردة. أحس أن أشياء كثيرة تبعده عن ذلك الجسر اللعين. لن يعود يراه مرة ثانية. هو الذي كان يراه في عمق الليالي.

كان يتسلل بعد أن يرفع ساق زينب من فوق وسطه. يقرصها في فخذها. إذا قامت ينام. دائما لا تنهض. دائما تنام مهدودة كأنها نظفت ورعت العالم، وليس بيتًا صغيرا وثلاثة أطفال. يغطيها ويتجاوزها هابطًا السرير. يشعر بنفسه ثقـيلاً فوق السرير اليقظ الأخشاب مع أنه رفيع كحد الموسي. يقول لنفسه، إنه حامد الذي لم يبلغ الثلاثين بعد، يتعثر بثلاثة أطفال تحت السرير. يخطوهم جميعا. ويفتح باب العِشة في لحظـة طويلة. ينكمش في نفسه يكاد يدخل في بعضه وهـو يتطلـع

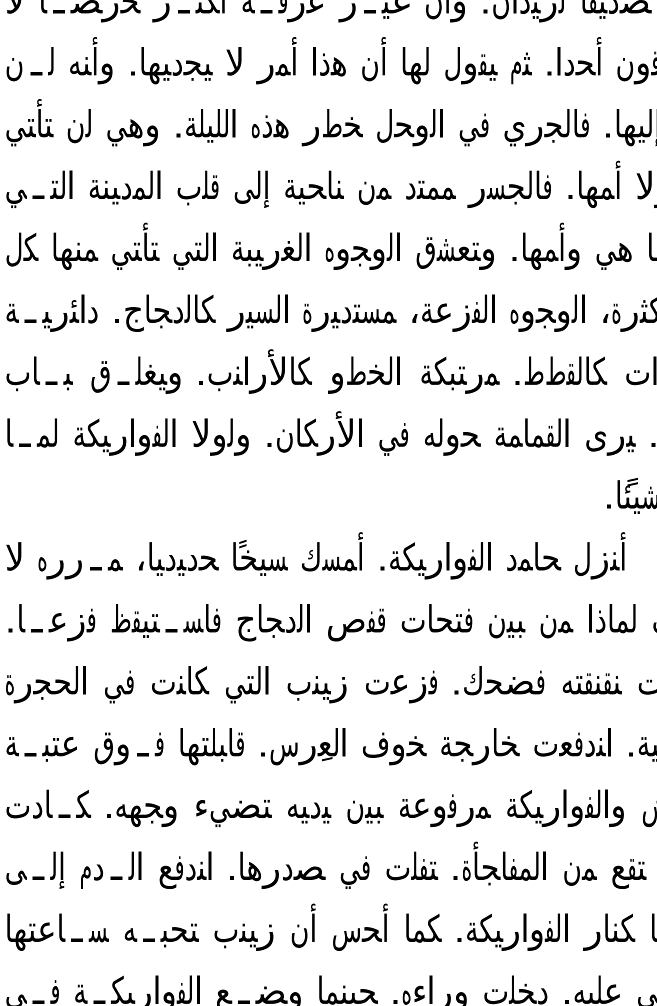


إلى الجسر. يرى الضوء الشحيح كدم القلب. يذهب جاريـا ولا ينسى أنه يجري طوال النهار. يقول دائمـا أن لا أحـد يجري مثله حتى جابر الذي يجري جواره علـى القضـيب الآخر لا يجري في نفس سـرعته. وزيـدان يعمـل قلـيلاً ويضرط كثيرا والكل يضحك عليه. وعبد ا   رجل مـراشٍ دفع نقودا ليعمل العمل المريح. يمشي وراء القضبان علـى مهل. وأين هي الأعطاب الكثيرة التي يكتشفها عبد ا   كـل يوم ...؟ إنه فقط يشكو من مطاردة الشمس له فيلعب بعقول الناس. وما الذي يمنع أحدا من أن يستدير ليرى الشمس ...؟ ولماذا يريد أن يراها أصلاً ...؟ لكن لا أحد يقول إن عبد ا   دفْع في الزمن القديم رشوة. فالناس تغيرت كثيرا ولم يبق من الأولين إلا أم جابر التي مات زوجها. وهي لا تعرف شـيئًا في أمور الرجال. وناظر المحطة نائم دائمـا وإذا نهـض لا يتحدث بشيء مفهوم. لكنه ـ حامد ـ يعرف أن هذا العمـل المريح الذي يعمله عبد ا   لا يحصل عليه أحد إلا برشـوة. ويبقى للآخرين رفع القضبان والعـوارض، وحفـر الأرض وردمها، والخروج في الليل لإصلاح الحوادث الكبيرة حين تتصادم أو تنقلب القطارات. والشيخ مسعود لم يره يعمل. لقد



جاء إلى المنطقة وقد اقترب أن يحال إلى المعـاش. وحـين تمت إحالته لم يترك بيته مع أن المصلحة لا تبقي في منازلها أحد لا يعمل. دفع رشوة هو الآخر في المدينة حيث المديرين الكبار. "واستكن في الجامع يصلي وتـرك اللبـؤة زوجتـه تعلقني بين الأرض والسماء". يظل الشـيخ مسـعود يرتـل القرآن ويؤذن ويقول عنه زنديق لأنه كره المكـان والعمـل والقطار. يقولون إنه منذ غاب أجهضت النسـاء. لـم يبلـغ الأطفال. لم ينجح أحد في صيد. بار العجين ومات الـدجاج. لكنه ـ حامد ـ كان يعرف شيئًا واحدا، هو أنه يزداد شـبقًا إلى هنية كل ليلة وإلى أمها وإلى زوجته زينب، وإلى شـيء مجهول لن يثنيه عنه أحد ينصرف به عنهن جميعا.

وظل حامد واقفًا بالفواريكة في منتصف العِشة. يرى من بابها المفتوح الفضاء الواسع المظلـم أمامـه، والجسـر البعيد، وحبات المطر الخفيف. يحدث هنية كأنها أمامه. يقول لها أنه لم يحبها قط. لم يحب أمهـا. أحـب زوجتـه لأنهـا مربوطة معه في ساقية الهم. إنه سيترك كل شـيء. ولـن ينتظر القطار الذي تأتي معه الشُرطة تنكح النساء، وتلـوط الأولاد، وتعبث بالبنات. يسألها إذا لم تكن تعرف أن عرفـة



صار صديقًا لزيدان. وأن غير عرفة أكثر حرصا لا يصادقون أحدا. ثم يقول لها أن هذا أمر لا يجديها. وأنه لن يأتي إليها. فالجري في الوحل خطر هذه الليلة. وهي لن تأتي إليه ولا أمها. فالجسر ممتد من ناحية إلى قلب المدينة التي تعشقها هي وأمها. وتعشق الوجوه الغريبة التي تأتي منها كل يوم بكثرة، الوجوه الفزعة، مستديرة السير كالدجاج. دائرية النظرات كالقطط. مرتبكة الخطو كالأرانب. ويغلق باب العِشة. يرى القمامة حوله في الأركان. ولولا الفواريكة لما رأى شيئًا.

أنزل حامد الفواريكة. أمسك سيخًا حديديا، مرره لا يعرف لماذا من بين فتحات قفص الدجاج فاستيقظ فزعا. ارتفعت نقنقته فضحك. فزعت زينب التي كانت في الحجرة الداخلية. اندفعت خارجة خوف العِرس. قابلتها فوق عتبة الحوش والفواريكة مرفوعة بين يديه تضيء وجهه. كادت زينب تقع من المفاجأة. تفلت في صدرها. اندفع الدم إلى وجهها كنار الفواريكة. كما أحس أن زينب تحبه ساعتها وتخشى عليه. دخلت وراءه. حينما وضع الفواريكة في

منتصف الحجرة نظر إلى أبنائه الثلاثة الملتفين بـ الخروق. قال لها :

- الليلة نرفعهم فوق السرير.

نظرت إليه في استفهام خجول.

- سننام فوق الحصير.

ظلت تنظر إليه.

- الفواريكة ستدفئ الجو.

ظلت معلقة الاستفهام. لم تفهم ما انتـواه وقـرر ألا يتراجع فيه حين نظر إلى الفواريكة البيضاء بأسى شفيف.

منذ تلك الليلة وحتى الآن، حين انتصف الليل عليهم وهم يسيرون، وأحس أن قدميه لن تحملانه أكثر من ذلـك، وهو ما يزال متعلقًا بالأمل الذي زرعه فيه جابر، وكلمـات الدليل مازالت مطمئنة، لكن الجوع يكاد يقتله، والماء سـينفد بعد شربتين، ولن يستطيع أن يشرب من الحصى دائما!! وما يغيظه حقًا هو هذا الدليل الرفيع مثله والذي لا يعاني جوعـا ولا عطشًا كأنه قد من قلب الصحراء. سـقط حامـد فـوق الأرض. قال الدليل :

- استريحا إذن. ربما في الصباح تعود إليكما القوة.

وجعل يغني. جاس بعيدا وجعل يغني. لم يفهما كلمة واحدة مما يغنيه بلهجته البدوية. حين رآهما يتمـددان فـوق الأرض قال :

- لابد من الحفر.

قال حامد :

- سنحفر في الصباح.

قال الدليل :

- ومن سيوقظكما لتحفرا. قد لا نقوم إلا في المساء التالي. ثم إن الثعابين تعض بالليل كما تعض بالنهار.

جعلا يحفران. أنشب أصابعه هو وجابر في الرمـال ثم جعلا يزيحان أكواما منها إلى الجانبين. شاهدا أظافرهمـا وكيف طالت. أصابعهما وكيف صارت عظامها بارزة. جابر القوى المفتول الجسد ينظر إلى عظام يده في حسرة. وكـان الدليل قد سبقهما وحفر لنفسه حفرة تمدد بها عاقدا ذراعيـه تحت رأسه مستمرا في الغناء. بدا كمن ألقى كل هموم الدنيا خلف رأسه. صارا في غاية الضيق وهما ينظران إليه. قال :

- اعلما إنكما ليس أول من يحاول عبور السلك.

لم يردا. ظلا يحفران بإعياء بالغ.

- لكنكما أول من يتعبني في الطريق.

قالا معا :

- الطريق طويل.

قال :

- ليس طويلاً على من يريد.

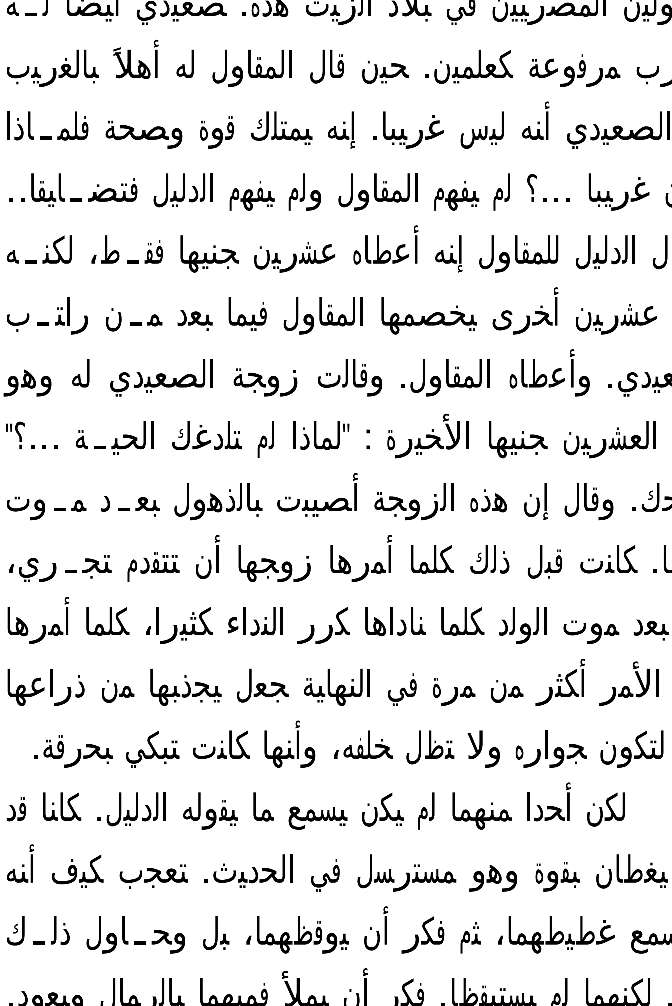
لم يردا. قال :

- آخر ما عبرت به كان رجلاً صـعيديا وزوجتـه وطفلهما.

انتهيا من الحفر. وكانت الليلة بـاردة فـأخرج كـل منهما من مخلاته التي يعلقها على ظهره وهو يسـير دثـارا التف به. لم يحفر كل منهما حفرة لنفسه. حفرا حفرة عريضة غير عميقة وتجاوزا فيها. وظل الدليل يتحدث.

قال إنه لم تكن هناك مشكلة مـع ذلـك الصـعيدي وأسرته. كان معه عشرون جنيها هي كل ما بقـى لـه فـي الدنيا. أخذها الدليل منه أجرا. طلبها الدليل مقدما فأعطاها له الصعيدي وهو واثق مما يفعل. وواثق مما سيفعله الدليل. قال له إنه يعطيه هذه الجنيهات الباقية من عمل عمـره، ليقطـع بذلك كل صلة له بالزمن القديم. وأنه ـ الصعيدي ـ كان قد

قرر في البداية أن يصل للمدن والمواني الكبيرة. لكنه حـين وصل قرر أن يترك البلاد نهائيا، ويذهب إلى تلك البلاد التي يسمع أن بها جازا كثيرا. والتي عاد منها الكثير من أبناء بلده محملين بالهدايا والمال. وإنه قرر أن يأخذ زوجته معه وابنه لأنه لن يعود بالهدايا والمال. بل لن يعود أبدا. وأنه يعـرف أن الرحلة شاقة. وقد يموتون جميعا قبل عبور السلك. لكنـه موقن أن ا لن يتخلى عنهم. إذا جاعوا سينزل عليهم بمائدة من السماء. وإذا عطشوا ستنفجر لهم بئر كزمـزم. وإن لـم يفعل ا ذلك سيفعل هو.. سيصطاد الطيـر بيديـه ويأكـل الثعابين والحيات والسباع والضباع. وابنه هذا ليس أقل مـن إسماعيل بن سيدنا إبراهيم، فسوف يشق الأرض شقًا بقدميه الرقيقتين. وزوجته ليست أضعف من هاجر، سـتقاوم كـل عطش وجوع. وهو معهما ولن يتركهما أبدا كما فعل سـيدنا إبراهيم. لكن حيةً لدغت الطفل ومات خلال دقـائق.. حيـة يسمونها "الطريشة" تُعد أخطر الحيات.. فوجئ الدليل ـ هكذا قال ـ بأن الصعيدي لم يحزن، بل قال الحمد الذي أماتـه في أرض غريبة. وكانوا قد عبروا السلك.



بعد ذلك قال إنه أسلم الصعيدي وزوجته إلى المقاولين المصريين في بلاد الزيت هذه. صعيدي أيضا له شوارب مرفوعة كعلمين. حين قال المقاول له أهلاً بالغريب قال الصعيدي أنه ليس غريبا. إنه يمتلك قوة وصحة فلماذا يكون غريبا ...؟ لم يفهم المقاول ولم يفهم الدليل فتضايقا.. ثم قال الدليل للمقاول إنه أعطاه عشرين جنيها فقط، لكنه يريد عشرين أخرى يخصمها المقاول فيما بعد من راتب الصعيدي. وأعطاه المقاول. وقالت زوجة الصعيدي له وهو يأخذ العشرين جنيها الأخيرة : "لماذا لم تلدغك الحية ...؟" فضحك. وقال إن هذه الزوجة أصيبت بالذهول بعد موت طفلها. كانت قبل ذلك كلما أمرها زوجها أن تتقدم تجري، لكن بعد موت الولد كلما ناداها كرر النداء كثيرا، كلما أمرها أعاد الأمر أكثر من مرة في النهاية جعل يجذبها من ذراعها بقوة لتكون جواره ولا تظل خلفه، وأنها كانت تبكي بحرقة.

لكن أحدا منهما لم يكن يسمع ما يقوله الدليل. كانا قد ناما يغطان بقوة وهو مسترسل في الحديث. تعجب كيف أنه لم يسمع غطيطهما، ثم فكر أن يوقظهما، بل وحاول ذلك فعلاً. لكنهما لم يستيقظا. فكر أن يملأ فميهما بالرمال ويعود.

لكنه آثر أن يفعل ذلك فيما بعد ...! عاد إلى حفرته وقـرر النوم. أجل. لم يكن يحس بحاجة إليه. كان ما يزال قويا غير جوعان ولا عطشان. ويعرف أن القوة التي في جابر وحامد هي الرمق الأخير للروح، وأنه لن ينتصف نهار الغد إلا وقد أسلما هذه الروح.

ظلت الليلة الأخيرة لحامد قبل اختفائه لا تضيع مـن ذهنه. خاصة رؤاه فيها. في تلك الليلة رفعت زينب الأطفال فوق السرير كما أمرها ثم جلست فوق شـلتةٍ علـى الأرض أمامه وقد توسطتهما الفواريكة. وضعا أياديهما فوق النـار. دلك كل منهما كفيه. أعادا وضع الأكف فوق النار. رفع كل منهما كفيه إلى وجهه يدفئه. قالت :

- هل صـحيح أن الـذي يسـير وراء قطـارات الخواجات لا يعود ...؟

لم يرد. وضعت إحدى يديها على صدرها. تراجعت. أفسحت ما بين ساقيها قليلاً. بدأت اللعبة المرهقة الجميلة.

كان حامد يعرف أنها تريده وحدها. وكان هو يريدها ليلة لا تُمحى علاماتُها. عيناها النجلاوان خبا بريقهما. صار وجهها يشف جلده عن العظام. عنقها صار كعنق فراريجها.

بطنها ترهل. زينب خمرية الجبل، طفـرة الطبيعيـة التـي أحصت معه عوارض السكة الحديد في رحلة القوت، صارت كذراع عربة المفتش، وآه من المرأة حينما تكـون كـذراع عربة المفتش. تلسع كالسوط. تنهج فلا تعرف مـا إذا كـان ذلك شبقًا أم صدرا مأزوما. قال لها في تلك الليلة :

- إنت فرحانة..

قالت بهدوء ليالي الشتاء وحزنها :

- طبعا. القطار سيأتي بعد غد.

قال في نفسه : "لكننا ما نزال نلف أبنائنا بالخوارق. كنا كذلك وسنظل كذلك، ويبدو أن هناك قدرا بحق."

سمعت طرقات عنيفة سريعة على البـاب. نهـض بسرعة. فزعت زينب. لم يكن الليل قد انتصف بعد. لكن ليل الشتاء يبدأ من المنتصف دائما. والشتاء بكـر هـذا العـام. وخوف زينب بكر معه. أمسكت يده في ضـراعة. نفضـها عنها. سكنت ذليلة. ظلت زينب فيما بعد لا تنسى ذلك. خرج هو وفتح باب العِشة. دخل جابر خطوة واحدة وتوقف :

- ادخل يا جابر.

- لا داعي.

كانا بالكاد يريان بعضهما ويسمعان نقنقـة الـدجاج. قال جابر الذي يلهث مبتلاً بالمطر:

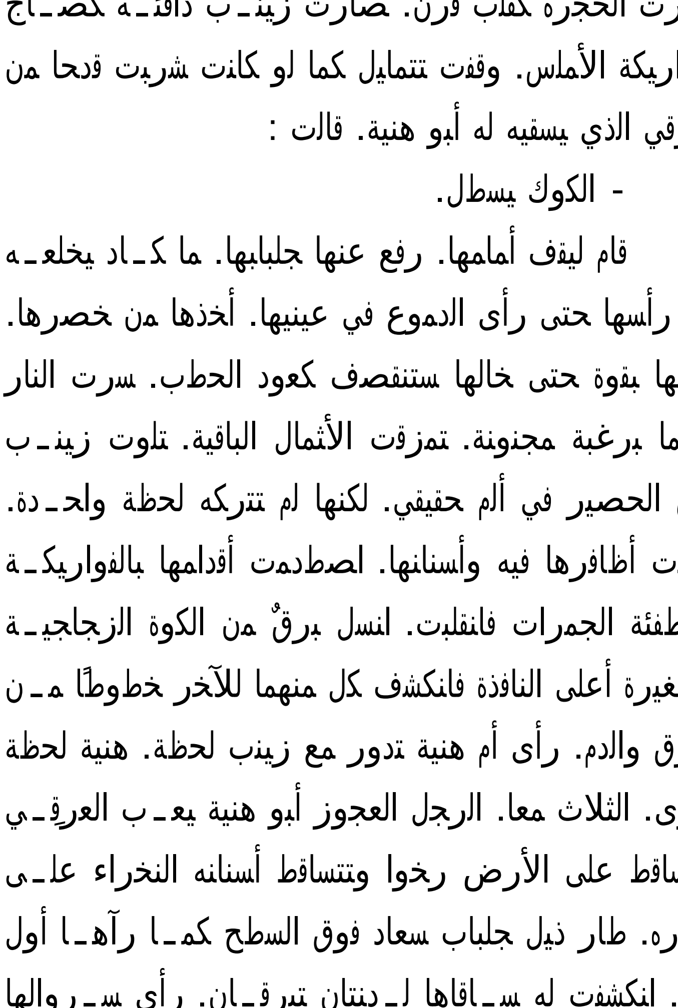
- لقد أعددت نفسي. سنخرج قبل العمال بقليـل. لا تنسى الخطاب الذي أعطيته لك. الخطاب الذي أرسله مسعد. إنه دليلنا في الرحلة. لا تقل شيئًا لأحد.

أراد حامد أن يتحدث فبادره جابر الذي كان يتكلم في سرعة وخوف غريبين.

- لقد قررت. اليوم أفضل من الغد. لا تتراجـع.. لا تأخذ شيئًا يلفت النظر.

انفلت جابر عائدا بسرعة. عاد حامد ليقـف وسـط الحوش لحظة يفكر. لماذا أمسكت به زينب فـي توسـل...؟ أتكون تعرف ...؟ أم تراها ظنت سعاد مثل كل النسـاء...؟ هل كانت تشعر به وهو يتسلل كل ليلة...؟ لم يبد عليها ذلك. لكن لماذا نفض يديها بهذا العنـف ...؟ أيكـون كرههـا..؟ ودخل الحجرة فابتسمت له في تكلف وخوف. قال وهو ينظر إلى الأرض :

- لتعدي لنا شايا ثقيلاً مرا.



بعد أن هدأت نيران الفواريكة وكسا جمرها الرمـاد صارت الحجرة كقلب فرن. صارت زينـب دافئـة كصـاج الفواريكة الأملس. وقفت تتمايل كما لو كانت شربت قدحا من العرقي الذي يسقيه له أبو هنية. قالت :

- الكوك يسطل.

قام ليقف أمامها. رفع عنها جلبابها. ما كـاد يخلعـه عن رأسها حتى رأى الدموع في عينيها. أخذها من خصرها. ضمها بقوة حتى خالها ستنقصف كعود الحطب. سرت النار بينهما برغبة مجنونة. تمزقت الأثمال الباقية. تلوت زينـب فوق الحصير في ألم حقيقي. لكنها لم تتركه لحظة واحـدة. أنشبت أظافرها فيه وأسنانها. اصطدمت أقدامها بالفواريكـة المنطفئة الجمرات فانقلبت. انسل برقٌ من الكوة الزجاجيـة الصغيرة أعلى النافذة فانكشف كل منهما للآخر خطوطًا مـن العرق والدم. رأى أم هنية تدور مع زينب لحظة. هنية لحظة أخرى. الثلاث معا. الرجل العجوز أبو هنية يعـب العرقـي ويتساقط على الأرض رخوا وتتساقط أسنانه النخراء علـى صدره. طار ذيل جلباب سعاد فوق السطح كمـا رآهـا أول مرة. انكشفت له سـاقاها لـدنتان تبرقـان. رأى سـروالها

الدانتيللا الأسود الذي أقسم يومها أنه الوحيد الـذي رآه مـن السكان جميعهم. بل حتى الشيخ مسعود لم يـره مثلـه. رأى نفسه وقد تعذب بها، ثم حين وصل إليها فإذا به يتعلـق فـي الفضاء لا يعرف هل يتقدم أم يتراجع. لعن الشـيخ مسـعود وكلماته. المفتش وعربتـه. الصـيف والقطـار. البحيـرة والخواجات. ودخل الحجرة برقٌ آخر شديد فـرأى صـاعقة قادمة من فوق الجسر بعد أن أحرقت من عليه. رأى هنيـة تجري وأمها والنار مشتعلة بهما، حتى إذا ما وصـلتا إلـى البحيرة، سقطتا فيها فغلت مياهها وعلا بخارهـا، وطـارت منها قذفة لهب طالت أبا هنية، فصار يجري مجنونًـا علـى الجسر حتى سقط في الجهة الأخرى من البحيرة، فطش فـي الماء كمن سقط في زيتٍ مغلي. وانقذفت من حوله الشـواظ أشعلت نبات الحلفاء. وصار السمك الذي كان ميتًـا طـوال العام بعد انقطاع القطار يقفز فوق الماء قفزات هائلـة إلـى السماء ويهوي متفحما. كما صار القطار يقفز فـوق المـاء قفزات هائلة إلى السماء ويهوي متفحما. كما صارت الطيور النائمة وسط النباتات تطير مشتعلة صارخة تشتجر في عراك رهيب في قلب الفضاء السحيق، يلهبها البرق فتهوي محترقة

في الماء كالشهب. ثم ترصدته الشمس فـرأى نفسـه واقفًـا وحيدا تحتها وسط صحراء واسعة، وجـابر مربـوط فـي صارية أعلى جبل تنهش النسور من قلبه وهو واقف يصرخ من رؤية طوابير العقارب التي تقبل عليه من كل ناحية، ثـم سبقتها ثعابين طويلة. وأحس بقدميه تغوصان في الرمال شيئًا فشيئًا حتى لم يبق منه غير رأسـه فـوق الأرض، وثعبـان ضخم يقترب منه يسبقه لسانه. وكانت أشـعة الشـمس قـد حمِيت فأيقظت جابر الذي لم يستطع أن يتحرك. ففي الوقـت الذي رأى فيه حامد ما رآه الليلة الأخيرة قبل الرحيل، كـان جابر يرى العام الذي مضى كله وكيف كـان. لكنـه حـين استيقظ خائفًا وجد شيئًا ثقيلاً فوق بطنه. نظر فلم يسـتطع أن ينهض. أحس بأن هذه هي النهاية التي غابـت عـن ذهنـه طويلاً.. لم يفكر أن ينادي الدليل أو يصرخ. إنه لا يعـرف في الدنيا غير حامد رفيق شقائه ورحلته. وخذه بيـده وهـو يسمعه يخور كالثور، ففتح حامد عينيه وتنفس نفسا عميقًا بدا فيه أنه ارتاح وانعتق من تلك الرؤيا المرعبة. لكـن جـابر أشار إلى بطنه فنظر حامد ليجد ثعبانًا ضخما طـويلاً يعبـر فوقهما.

قال الدليل لهما في بداية الرحلـة أنـه اسـتطاع أن يهرب ألف مصري عبر السلك، فهو يحصـي مـن يقـوم بتهريبهم دائما، وسيبدأ بهما الألف الثانية، ومن ثم لا يجـب أن يخافا فهو يعرف كل نقاط الحدود السهلة والصعبة، بل إنه على علاقة طيبة مع رجال من الدولتين.

قال لهما المهرب الكبير : "هذا دليل ثقة ما جئت بـه إليكما إلا لأنكما خدمتماني كأحسن ما تكون الخدمـة. والآن هل تذكران شيئًا مما حدث ...؟". قالا : "لا". قـال : "هـل حدث شيء أصلاً ...؟" قال: "لا" ... قال: "ألم يمـر العـام بسرعة ...؟" قالا : "أجل".

قبل أن يبدأ هذا العام الذي يحدثهما عنه كان قد قـال لهما: "لأرى الخطاب الذي معكما" وضحك. ثم قال: "من هو مسعد صديقكما ...؟" وأغرق في الضحك بجنون ثم تسـاءل "أين طابع البريد...؟" وشرب بشراهة من زجاجـة ويسـكي أمامه. قالا "لقد أرسله إلينا مع "الأبونية" في أحد القطـارات" نظر إليهما في قرف. قال : "وهل تأتي القطارات من الـدول التي تريدان الهرب إليها. كيف.. أنكما أحمقان ...؟".

أسقط في يدهما. فهذا الرجل الذي قابلاه فـي هـذه المدينة الكبيرة بالقرب من الحدود يبدو يعرف كل شيء. إنه يقول لهما شيئًا لم يدركاه. فليس بالخطاب عنوان لمسعد، ولا اسم لمكان العمل الذي يعمل به، ولا البلدة التي يعمل فيها في الدولة الأخرى. كيف لم يدركا ذلك ...؟ وماذا يفيـدهما إذا كان بالخطاب اسمه الكامل ...؟ ومن في هذه الدنيا الواسـعة سيعرفه...؟ قالا: "إذن نعود من حيث أتينا". ومد حامد يـده يأخذ الخطاب من الرجل الذي طواه ووضعه في جيبه وقال :

- لا داعي للعودة.. لقد قررتما شيئًا لابد أن تكملاه. هكذا يكون الرجال.. بدا عليهما الارتباك. قال :

- أستطيع أن أعبر بكما السلك إلى الدولة الجديـدة. لكن لي شرط واحد.

قالا معا:

- ما هو...؟

قال:

- هل تعرفان قصة النبي موسى مع النبي شعيب.

قالا:

- أجل.

وكانا سمعاها كثيرا من الشيخ مسعود. قال :

- تعملان عندي عاما كاملاً. أجركما يكون بعد هذا العام أن أنقلكما إلى أعظم آبار البترول.

قالا:

- هذا عقد ظالم..

قال بعنف:

- أظنكما تعرفان النبي موسى، عمل أكثر من عـام وكان أجره أن يتزوج ابنة شعيب. أنا أطلـب منكمـا عامـا واحدا ستكسبان بعده ما يزوجكما نساء الدنيا كلها إن أردتما. ثم إنكما اثنين وموسى كان واحدا. وأكثر من ذلك لماذا لـم تسألاني ما هو العمل ربما يرضيكما..

قالا:

- ما العمل ...؟

قال:

- ستأكلان وتشربان ما شئتما فطاقة المعدة محدودة. إن شئتما نساء فستجدان. إن شئتما خمرا ستجدان. المهـم أن لا تتكلما ولا تشتركا في حديث، وتنسـيان مـا قـد تريـان أمامكما.

كانا في حيرة صمما على أن يقطعـا الرحلـة إلـى نهايتها.. قالا:

- أنعمل عاما كاملاً ...؟

قال :

- بلا نقصان.

قالا:

- موافقان.

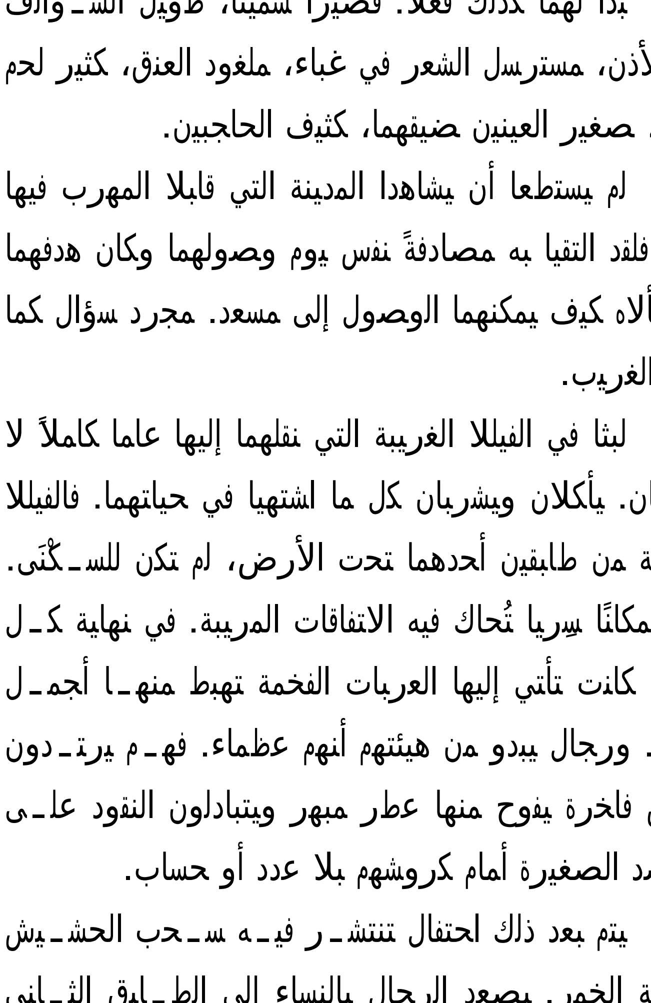
أحسا بأنهما يحرقان السـفن. بـدا العـالم خلفهمـا وأمامهما كذبةً كبيرة قررا مواجهتها. قال جابر ضاحكًا..

- يبدو أن جرينا بعربة المفتش حبب لنا الجري في البلاد..

أحس أنه يخدع نفسه.

نقلهما الرجل إلى فيلا وحيدة وسط الصحراء بعيـدا عن المدينة التي قابلاه فيها. قال لهما بعد أن دخلا خلفه.

- كونا على يقين أن ا نفسـه لـن يرحمكمـا إذا أفسدتما العقد. ولا قوة في الأرض تنجيكما مني. ولابـد أن تعرفا جيدا أنه لا دين لي ولا أخلاق.

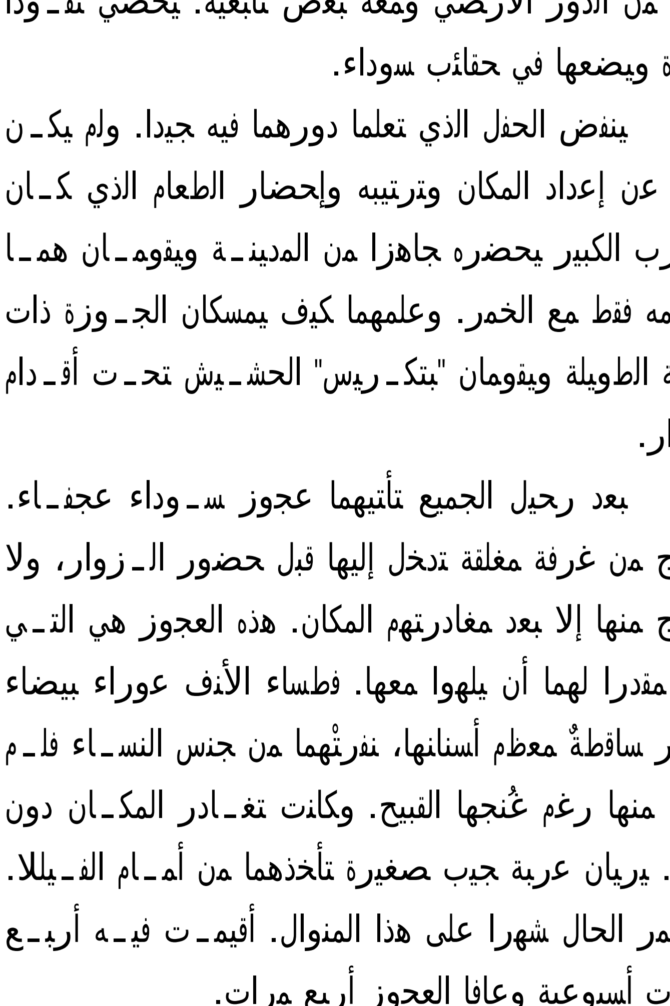


بدا لهما كذلك فعلاً. قصيرا سمينًا، طويل السوالف أمام الأذن، مسترسل الشعر في غباء، ملغود العنق، كثير لحم الوجه، صغير العينين ضيقهما، كثيف الحاجبين.

لم يستطعا أن يشاهدا المدينة التي قابلا المهرب فيها جيدا، فلقد التقيا به مصادفةً نفس يوم وصولهما وكان هدفهما أن يسألاه كيف يمكنهما الوصول إلى مسعد. مجرد سؤال كما يسأل الغريب.

لبثا في الفيللا الغريبة التي نقلهما إليها عاما كاملاً لا يخرجان. يأكلان ويشربان كل ما اشتهيا في حياتهما. فالفيللا المكونة من طابقين أحدهما تحت الأرض، لم تكن للسكْنَى. كانت مكانًا سِريا تُحاك فيه الاتفاقات المريبة. في نهاية كل أسبوع كانت تأتي إليها العربات الفخمة تهبط منها أجمل النساء. ورجال يبدو من هيئتهم أنهم عظماء. فهم يرتدون ملابس فاخرة يفوح منها عطر مبهر ويتبادلون النقود على المناضد الصغيرة أمام كروشهم بلا عدد أو حساب.

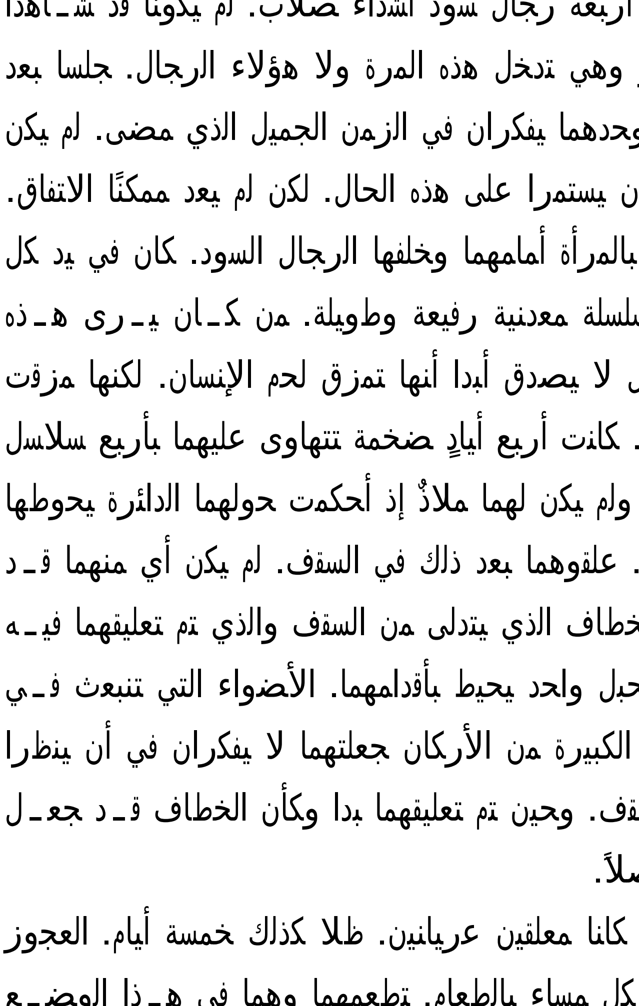
يتم بعد ذلك احتفال تنتشر فيه سحب الحشيش ورائحة الخمر. يصعد الرجال بالنساء إلى الطابق الثاني والمهرب الكبير الذي عرفا الآن عنه ذلك، يظل جالسا في



ركن من الدور الأرضي ومعه بعض تابعيه. يحصي نقودا كثيرة ويضعها في حقائب سوداء.

ينفض الحفل الذي تعلما دورهما فيه جيدا. ولم يكن يزيد عن إعداد المكان وترتيبه وإحضار الطعام الذي كان المهرب الكبير يحضره جاهزا من المدينة ويقومان هما بتقديمه فقط مع الخمر. وعلمهما كيف يمسكان الجوزة ذات الغابة الطويلة ويقومان "بتكريس" الحشيش تحت أقدام الزوار.

بعد رحيل الجميع تأتيهما عجوز سوداء عجفاء. تخرج من غرفة مغلقة تدخل إليها قبل حضور الزوار، ولا تخرج منها إلا بعد مغادرتهم المكان. هذه العجوز هي التي كان مقدرا لهما أن يلهوا معها. فطساء الأنف عوراء بيضاء الشعر ساقطةٌ معظم أسنانها، نفرتْهما من جنس النساء فلم يقربا منها رغم غُنجها القبيح. وكانت تغادر المكان دون كلمة. يريان عربة جيب صغيرة تأخذهما من أمام الفيللا. واستمر الحال شهرا على هذا المنوال. أقيمت فيه أربع حفلات أسبوعية وعافا العجوز أربع مرات.



في المرة الخامسة خرجت من الحجرة بعد الحفل وخلفها أربعة رجال سود أشداء صلاب. لم يكونا قد شاهدا العجوز وهي تدخل هذه المرة ولا هؤلاء الرجال. جلسا بعد الحفل وحدهما يفكران في الزمن الجميل الذي مضى. لم يكن ممكنًا أن يستمرا على هذه الحال. لكن لم يعد ممكنًا الاتفاق. فوجئنا بالمرأة أمامهما وخلفها الرجال السود. كان في يد كل رجل سلسلة معدنية رفيعة وطويلة. من كان يرى هذه السلاسل لا يصدق أبدا أنها تمزق لحم الإنسان. لكنها مزقت لحمهما. كانت أربع أيادٍ ضخمة تتهاوى عليهما بأربع سلاسل رفيعة، ولم يكن لهما ملاذٌ إذ أحكمت حولهما الدائرة يحوطها الرجال. علقوهما بعد ذلك في السقف. لم يكن أي منهما قد رأى الخطاف الذي يتدلى من السقف والذي تم تعليقهما فيه معا وبحبل واحد يحيط بأقدامهما. الأضواء التي تنبعث في الصالة الكبيرة من الأركان جعلتهما لا يفكران في أن ينظرا إلى السقف. وحين تم تعليقهما بدا وكأن الخطاف قد جعل لهما أصلاً.

كانا معلقين عريانين. ظلا كذلك خمسة أيام. العجوز تأتيهما كل مساء بالطعام. تطعمهما وهما في هذا الوضع

المقلوب. بعد الطعام – الذي يتناولانه بشراهة شديدة ويبذلان جهدا كبيرا حتى لا يسقط من الفم – تضع العجـوز عصـاة خيزران في إست كل منهما مرة. لا تنتهي إلا بعد أن تسمع صراخهما تهتز له أركان المنزل. تعود إليهما في مساء اليوم التالي. يكونان في حالة من الجوع عظيمة. تفعل ما فعلـت بالأمس.

لم يعرف أي منهما لماذا التهبا شبقًا بـالعجوز بعـد ذلك. هل هو الخوف أم رغبة فيها حقًا ...؟ كل مـا عرفـاه أنهما صارا ينتظران الأسبوع بسـرعة حتـى يـتم الحفـل وينفض، ويفرغان للعجوز. لم يعودا يهتَما بالصفقات التـي تعقد. بل ولم تعد النساء الجميلات تثير فيهما رغبة. وحـين انتهى العام قال لهما المهرب الكبير.

- هل تذكران شيئًا مما حدث ...؟

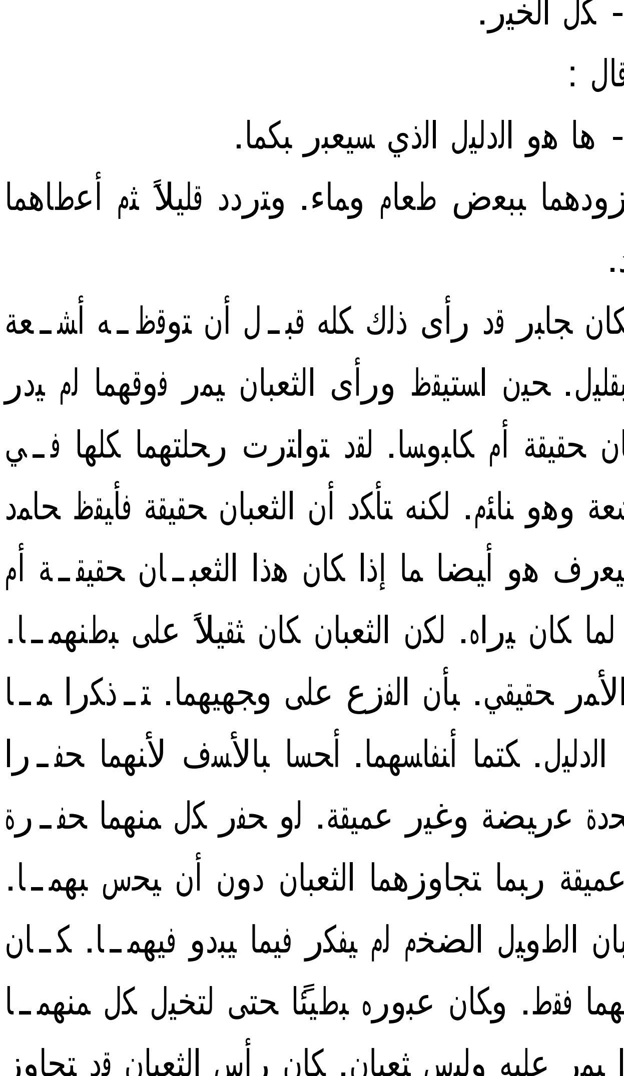
قالا :

- لا.

قال :

- ألم يكن خيرا كله.

قالا:



- كل الخير.

قال :

- ها هو الدليل الذي سيعبر بكما.

زودهما ببعض طعام وماء. وتردد قليلاً ثم أعطاهما قليل نقود.

كان جابر قد رأى ذلك كله قبل أن توقظه أشعة الشمس بقليل. حين استيقظ ورأى الثعبان يمر فوقهما لم يدر ما إذا كان حقيقة أم كابوسا. لقد تواترت رحلتهما كلها في صور بشعة وهو نائم. لكنه تأكد أن الثعبان حقيقة فأيقظ حامد الذي لم يعرف هو أيضا ما إذا كان هذا الثعبان حقيقة أم استكمالاً لما كان يراه. لكن الثعبان كان ثقيلاً على بطنهما. أيقنا أن الأمر حقيقي. بأن الفزع على وجهيهما. تذكرا ما قاله لهما الدليل. كتما أنفاسهما. أحسا بالأسف لأنهما حفرا حفرة واحدة عريضة وغير عميقة. لو حفر كل منهما حفرة واحدة وعميقة ربما تجاوزهما الثعبان دون أن يحس بهما. لكن الثعبان الطويل الضخم لم يفكر فيما يبدو فيهما. كان يعبر فوقهما فقط. وكان عبوره بطيئًا حتى لتخيل كل منهما أن قطارا يمر عليه وليس ثعبان. كان رأس الثعبان قد تجاوز

حامد وذيله لم يتجاوز جابر بعد. بدا لهمـا أصـفر زاهيـا. وبطول جسده خطوط سوداء لامعة. كانت أشعة الشمس كأنما تتركز عليه، فلمع في عيونهما مقززا بشعا. خاصة وأنهمـا سمعا فحيحه عاليا، وشاهدا رأسه يتحرك شمالاً ويمينًا ويطير الهواء الخارج من الفحيح الرمالَ أمامه. ثـم شـاهدا لسـانًا عجيبا يخرج من فمه. لسانًا ينتهي من الأمام بطرفين يزيـد طول كل منهما عن الشبر. وكان بلسـانه يلعـق أشـياء لا يريانها.

في تلك اللحظات النادرة تذكر حامد زينـب. ابنـة الطبيعة البِكر الطيبة. أطفاله الثلاثة الملتفين بالخروق. رثـى لها إذ يموت زوجها بعيدا عنها. عرف كم تكون القسوة بشعة حيه تسير عادة. كم ذاقت زينب المسكينة من قوسته.

رأى جابر أحد طرفي لسان الثعبان كـالخيط الـذي تعثرت أمه في إدخاله إلى سم الإبرة. تذكر عينيها الضيقتين، الساقطتين خاف تجاويف الجلد، وغاب بياضهما على السواد الذي صار حائلاً أصفر. لا يعرف جابر لماذا تضيع دائمـا من مخيلته صورة أمه وهي شابة ...؟ لماذا لا يـذكرها إلا

وهي عجوز ...؟ يعرف أن أمه كانت شابة مثل كل النساء. لكنه لا يستطيع أن يراها على غير صورة العجوز المحطمة.

تذكرا الدليل أخيرا بينما كان الثعبان يكاد ينتهي مـن العبور فوقهما. سمعا شهيقًا غريبا قادما مـن بعيـد. دارت عيونهما ناحية الصوت. الدليل يميل على غزالة من الخلف، وقد انحنى بوسطِه الأعلى فوق ظهرها، وأمسك بيديـه فـي قرونها بقوة. غزالة صغيرة غامقة الصفرة تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف في فزع، وكان الدليل القوي الذي ثنى ركبتيـه ووقف على أطراف أصابع قدميه وثبتها في الرمال، ممسـكًا بها بقوة، ولا يعطيها فرصة الهرب.

عبرهما الثعبان فقاما على الفور. لم يفكرا أن الثعبان قد يشعر بهما فيعود ويدركهما. أسرعا ليمسكا بالغزالة مـع الدليل. إنها أيام من الجوع. أنستهما الغزالة هـول الثعبـان. حين وصلا إلى الدليل. ترك الغزالة التي انطلقـت كـالريح ووقف يلهث.

لم يكن ما هو أمامها شيئًا فكرا فيه من قبـل أو دار بخلد أي منهما. سمعا كثيرا أن بعض بدو الصحراء ينكحون الإبل والماعز والحمير. لكن لم يكن ذلك شيئًا يمكن أن يبقى

في ذهن أحد. كان الدليل واقفًا أمامهما وإيره يتهدل ملطخًا بدم ومخاط. كان جلبابه منحسرا فوق وسطه من الأمام. ولسانه يتدلى إلى الخارج كلسان الثعبان، بينما تدور عيناه بخبث شديد في كل اتجاه وفوق وجهه ابتسامة صفراء غريبة. وسقطت أشعة الشمس على وجهه فوجداه عدوا لئيما قديما أدركاه بعد طول عناء..................

لم يدر أي منهما ماذا حدث بالضبط في تلك اللحظات. غير أنهما بسرعة أوقدا نارا ببعض شجيرات جافة بعد أن حفروا لها حفرة مناسبة. جعلا يشويان فوق النار بعض اللحم. كان أول ما شوياه هو القلب، ثم الكبد. كان ذلك كافيا بعد أيام الجوع. وشربا ما معهما من ماء دون اقتصاد.

أخذا فخذًا واحدا في مخلاة جابر الذي نقل ما بها إلى مخلاة حامد. لم يكن باستطاعتهما حمل ما تبقى. تركا بقية جسد الدليل للطير والوحش والثعابين والحيات. استأنفا المسير وحدهما، ولم ينتظرا قدوم الليل ...!.

لم يكن أي منهما يعرف أن الدائرة لابد أن تنته، وأن الدورة لابد أن تتم، ويختم عليها بأقفال الأبد. الآن لابد أن يفتشا عن أصل البذرة. وإن كان هذا أيضا لا معنى له.

هل فكرا جيدا قبل الرحيل ...؟

ما يعرفه كلاهما هو أنهما التهبا نارا. وكيـف كـان يفكر ذاك الملتهب ...؟

لو فكرا هل كانا قد عدلا ...؟

كان ذلك ضربا من المستحيل. كل تفكير أوغلا فيه وصل بهما إلى قلب دائرة النار. يعرفان أن النـار تنتصـر دائما حتى حين تنطفئ وتخمد أنفاسها. الفواريكة، تلك الآنية التي لا قيمة لها، حين كان جمرها تشف نيرانه، ثم تخمد كل طاقة فيه وتموت، كان ذلك يستغرق معظم الليـل. ويصـبح على الكون كله أن يستجمع كل ما به مـن طاقـة بـرد. أن يستدعي السحب المبعثرة في كل مكان تحت السماء، والريح الشاردة والمطر، وتتكاثف كلها في مؤامرة دنيئة غير عادلة، وتجثم على المكان في تصميم أعمى وغشوم، لينهزم الجمـر وينداح الدفء بعد أن تخمد النيران. وهكذا فإن نيران إنـاء قذر لا معنى له، له اسم لا يعرفون مصدره، كانت هزيمـة تحتاج قوى الكون جميعا، ويستغرق هذا معظم الليل إن لـم يكن كله. كيف كان للفكر إذن أن ينتصر ...؟

وهما الآن يفكران حقًا. لكن بعد أن عجزا وشـاخا. بعد أن نخر الوهن عظامهما، وابيض شعر الرأس، وتغضن جلد الوجه والفخذين، وهدأت الحركة، وزاغـت النظـرات وتخدرت الأذرع.

لم يكن أي منهما يتوقع أنهما سـيكونان منطـرحين هكذا في ركنين متباعدين في بدروم الفـيللا القائمـة وسـط الصحراء من جديد. في السقف أمام عيونهما يبرز الخطـاف الحديدي اللعين، في أحد الأركان العصـا الخيـزران التـي لاطتهما بها العجوز. على الأرض سجاد فاخر داسا عليه من قبل عاما كاملاً. من الجدران تنبعـث الأضـواء الحمـراء والخضراء والصفراء والزرقاء التي تلتقي في بؤرة الصالة، فتعطي ضوءا كلون البحيرة عند الصباح حين تشتعل فوقهـا الشمس وهي تصعد، ولكون الصحراء عند الغـروب حـين تختنق الشمس عند الأفق وهي تسقط.

كل منهما ينظر إلى الآخر منذ ساعة تقريبا ولم تنزل نظراته بعد. ولم يكن هذا هو اليوم الأول لهما. مرت بهمـا أسابيع لا يعرفان عددها. قال لهما التاجر الكبير حين قابلهما هذه المرة : "سوف تعرفان كم ستمضيان هنا من أيام حتـى

تعودان إلى موطنكما" وكل يوم كان يقول لهما ذلك. لكن بلا مبالاة كأنه ميت يتحدث. أحيانًا كان ينظـر إلـى عيونهمـا طويلاً. حين يغمضان أمام نظراته الغريبة يتحدث. ولاحظـا أنه هذه المرة لا توجد عجوز ولا سهرات صاخبة. قالا:

- ماذا سنفعل هنا ...؟

قال :

- لا أعرف. لكن لا أستطيع أن أترككما إلا بعد فترة مناسبة.

في البداية تصورا أنه يعاقبهما على قتلهما للـدليل. عرفا أنه يعلم كل شيء، فحين قابلهما قال :

- أهلاً بالسعار.

لم يفهما الكلمة. نظرا إليه في استعطاف بالغ. قال :

- أهلاً بالكلبين.

خافا. كانت ملابسهما ممزقة سقط معظمها. وأكثـر جسميهما بادٍ، العظام ناتئة، ذقن كل منهما طويل تصل إلـى صدره. شاربه يتهدل إلى الجانبين في طول مفزع، في الوقت الذي سدت أذني كليهما الرمال. أما شعر الرأس فكان متجعدا مغبرا بطريقة توحي أنه لا سبيل إلى تنظيفه أبدا. والأقـدام

متورمة بشكل جعل كليهما يشعر أنه يجـر عارضـة مـن العوارض التي توضع تحت القضبان، فضلاً عن البثور التي انتشرت بها، والشقوق التي ملأت باطن القـدم، ولـم تفلـح الخروق التي مزقاها من ثيابهما، أن تمنع دخول الرمل إليها.

لم يتخيل أحدهما أنه سيعود ليقابل هذا المهرب مـرة ثانية. أقصى أمانيهما بعد أن قتلا الدليل وتاها كان المـوت. ظلا شهرا يدوران على غير هدى، ومعهما فخذ الدليل التـي قددتها الشمس فلم تتعفن. في البداية كانا غير قادرين على أن يأكلا منها. حقًا إنهما أكلا القلب والكبد بسهولة. لكـن تلـك كانت لحظة منسلخة عن حدود العقل. بعد ذلك أدركا أن مـا فعلاه غير إنساني. بدا كل منهما يخشى مرضا لم يعرفاه وإن سمعا به. سمعا كثيرا ـ وهما صغيرين ـ الحكايات الغريبة عن الناس الذين يأكلون لحوم البشر. وعن المـرض الـذي يصيب أولئك الناس فترى الواحد منهم يتكلم كأنه ينبح. يغني كأنه يموء. تستعصي أظافره على التهذيب. ينمو شعر داخل فمه. يتدلى لسانه وتستطيل أذناه. يزداد عموده الفقري طولاً فيظهر له ذنب.

كانت هذه الحكايات تخيفهما وهما صغيرين. وصار كل منهما يتذكر حين بدآ يقطعان قطعة من فخذ الدليل للمرة الأولى، كيف ركز كل منهما ذهنه في شيء آخر وأكلا.

تذكر جابر أباه لأول مرة. أبوه هو الذي حكى له ولأمه عن الذين يأكلون لحوم البشر.

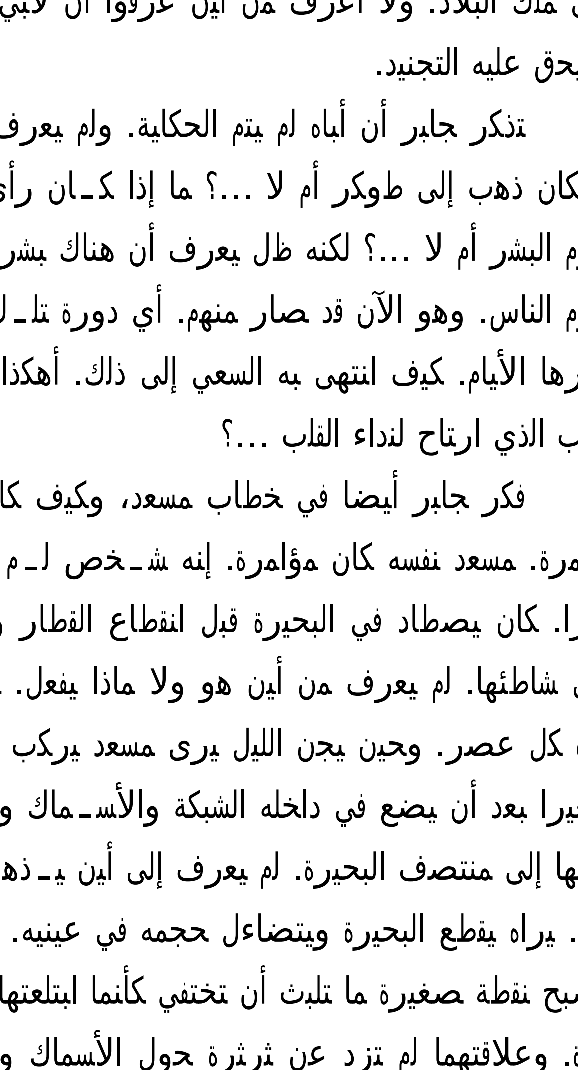
عاصر أبوه أياما كان يسميها أيام السلطة. وقال لهما أنه حين اقترب من سن التجنيد حاول أبوه – جد جابر – أن يهربه بأي طريقة. وأنه سمع أمه – جدة جابر – تقول لأبيه، لو كنت جعلته يحفظ القرآن. لكنه نهرها وقال لها : "وماذا سيفعل بحفظ القرآن ...؟ سيعفى من الجهادية، لكنه سيحرم من أي عمل سوى تلاوة القرآن. وأنا لا أحب لابني أن يتوقف عشاءه على ميت يموت أو حلقة ذكر تقام".

فكر الجد في أكثر من وسيلة. أن يقطع الإصبع السبابة لابنه – أبو جابر – لكنه عدل عن ذلك لأنه عرف أن قطع السبابة لا تعفي من الجهادية. بل سيأخذون الولد، ويوكلون إليه أعمالاً دنيئة. رفض الجد أن يحرم ابنه من شرف الجندية، في الوقت الذي يكون في قلبها. فكر بعد ذلك في أن يضع الكوبيا في عينيه. لكن الجدة صرخت وقالت :

منعه من حفظ القرآن وتجعله أعمى ...! كيف ...؟ ولطمت خديها. وظلا طوال الليل يبكيان.

أما أبو جابر فلم يبك مثل أبويه. فقط كان يفكر فـي "طوكر" التي سيأخذونه إليها كيف تكون ...؟ وهل هي فعلاً كما يقول أبوه بلاد حارة شديدة المطر...؟ هل هي فعلاً بلاد السخرة والعبيد ...؟ هل أهلها لهم ذيول حقيقيـة ...؟ هـل يأكلون لحوم البشر..؟ وكان خائفًا.

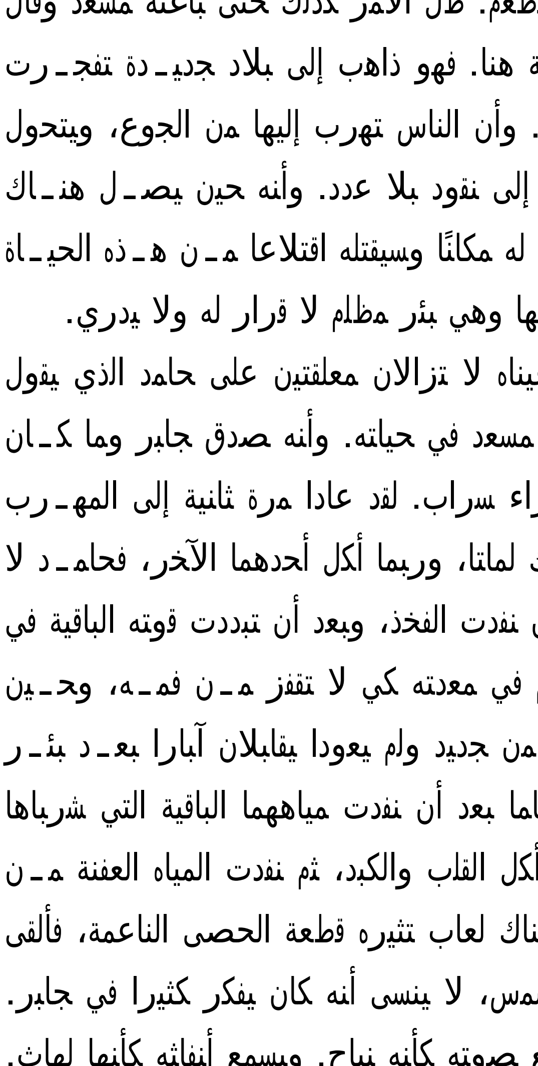
قال لنفسه لو أخذوه وأرسلوه إلى الشام كما أرسـلوا أباه من قبل حين كان الإنجليز يحاربون الأتراك. كان أبـوه في الأربعين في ذلك الوقت لكنهم أخذوه من القرية بـالقوة. وكان زملاؤه يقولون له أنهم محظوظون لأنهم أرسلوهم إلى الشام ولم يرسلوهم إلى بلاد الخواجات كغيرهم. وكان أبـوه يهرب أسلحة الإنجليز للأتراك وأسلحة الكفار للمسلمين. وأبو جابر يقول إنه كان يتمنى لو أخذوه إلى الشام مثل أبيه فيفعل مثله تماما. يهرب أسلحة الكفرة إلى المسلمين. لكنـه كـان يضحك ويقول : "هذا رغم أني لم أكن حتـى ذلـك الوقـت أعرف أولئك من هؤلاء. ولم أكن قد تركت قريتنا المعلقة في بطن الجبل يوما قط. لم يأت إليها إنجليـزي أو تركـي، ولا



حتى ملك البلاد. ولا أعرف من أين عرفوا أن لأبي ابنًا هو أنا يحق عليه التجنيد.

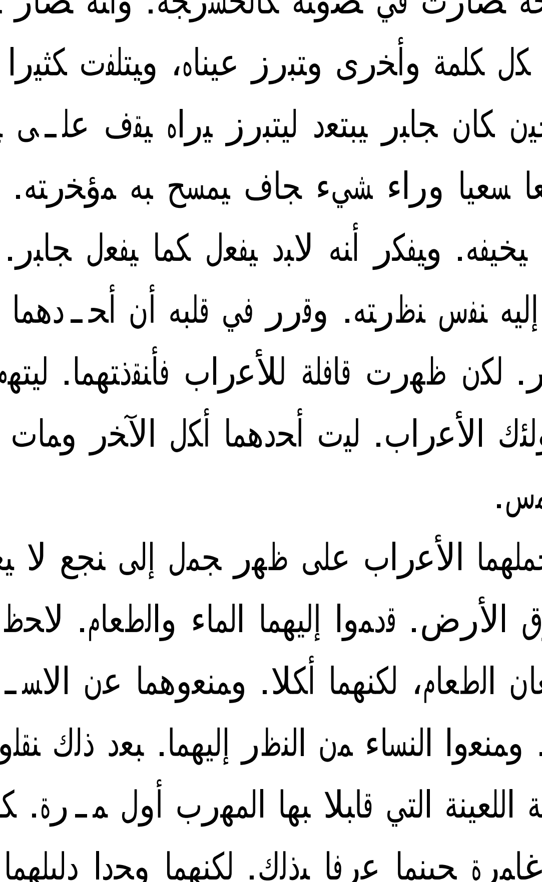
تذكر جابر أن أباه لم يتم الحكاية. ولم يعرف منه ما إذا كان ذهب إلى طوكر أم لا ...؟ ما إذا كـان رأى أكلـة لحوم البشر أم لا ...؟ لكنه ظل يعرف أن هناك بشرا يأكلون لحوم الناس. وهو الآن قد صار منهم. أي دورة تلـك التـي تدورها الأيام. كيف انتهى به السعي إلى ذلك. أهكذا يكـون عقاب الذي ارتاح لنداء القلب ...؟

فكر جابر أيضا في خطاب مسعد، وكيف كانت كلها مؤامرة. مسعد نفسه كان مؤامرة. إنه شـخص لـم يعرفـه كثيرا. كان يصطاد في البحيرة قبل انقطاع القطار وعرفـه على شاطئها. لم يعرف من أين هو ولا ماذا يفعل. كان فقط يراه كل عصر. وحين يجن الليل يرى مسعد يركب زورقًـا صغيرا بعد أن يضع في داخله الشبكة والأسـماك ويجـدف متجها إلى منتصف البحيرة. لم يعرف إلى أين يـذهب بعـد ذلك. يراه يقطع البحيرة ويتضاءل حجمه في عينيه. ثم يشف فيصبح نقطة صغيرة ما تلبث أن تختفي كأنما ابتلعتها البحيرة فجأة. وعلاقتهما لم تزد عن ثرثرة حول الأسماك ومواسـم



الصيد وأنواع الطعم. ظل الأمر كذلك حتى باغته مسعد وقال إنه لن يراه ثانية هنا. فهو ذاهب إلى بلاد جديدة تفجرت بالنفط منذ زمن. وأن الناس تهرب إليها من الجوع، ويتحول النفط في أيديهم إلى نقود بلا عدد. وأنه حين يصل هناك سيراسله وسيجد له مكانًا وسيقتله اقتلاعا من هذه الحياة الميتة التي يعيشها وهي بئر مظلم لا قرار له ولا يدري.

كانت عيناه لا تزالان معلقتين على حامد الذي يقول لنفسه أنه لم ير مسعد في حياته. وأنه صدق جابر وما كان له أن يمشي وراء سراب. لقد عادا مرة ثانية إلى المهرب الكبير ولولا ذلك لماتا، وربما أكل أحدهما الآخر، فحامد لا ينسى أنه بعد أن نفدت الفخذ، وبعد أن تبددت قوته الباقية في محاولاته التحكم في معدته كي لا تقفز من فمه، وحين عضهما الجوع من جديد ولم يعودا يقابلان آبارا بعد بئر قذرة أنقذتهما أياما بعد أن نفدت مياههما الباقية التي شرباها حين انتهيا من أكل القلب والكبد، ثم نفدت المياه العفنة من جديد ولم يعد هناك لعاب تثيره قطعة الحصى الناعمة، فألقى بها في عين الشمس، لا ينسى أنه كان يفكر كثيرا في جابر. كان يتكلم فيسمع صوته كأنه نباح. ويسمع أنفاثه كأنها لهاث.

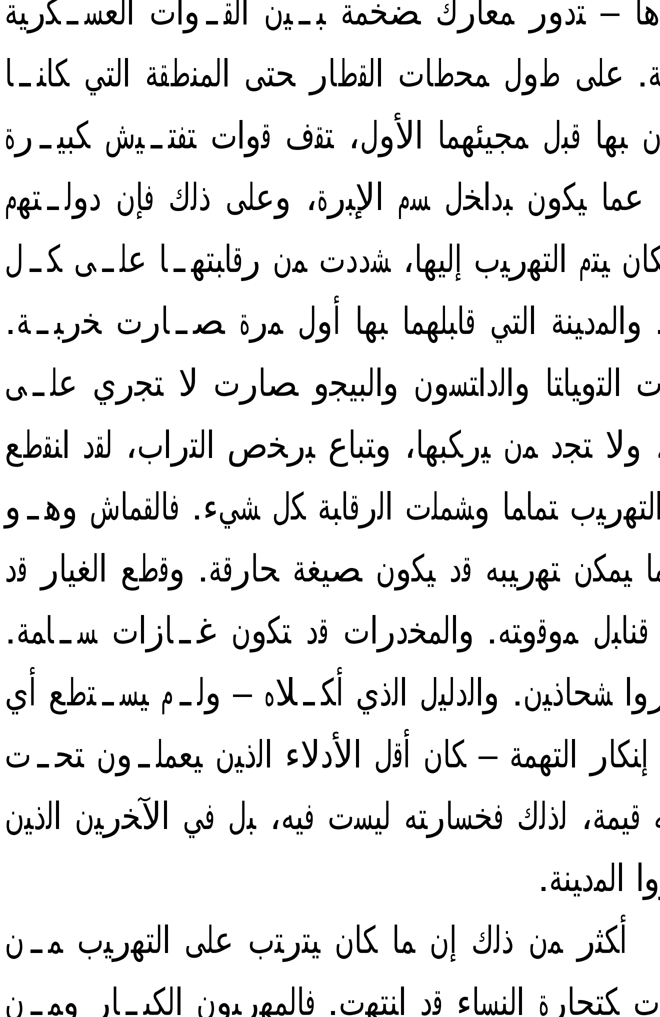


ولاحظ بحة صارت في صوته كالحشرجة. وأنه صار يخرج لسانه بين كل كلمة وأخرى وتبرز عيناه، ويتلفت كثيرا مشنفًا أذنيه، وحين كان جابر يبتعد ليتبرز يراه يقف على يديه وقدميه معا سعيا وراء شيء جاف يمسح به مؤخرته. ذلك القفز كان يخيفه. ويفكر أنه لابد يفعل كما يفعل جابر. ولابد أنه ينظر إليه نفس نظرته. وقرر في قلبه أن أحدهما لابد آكلٌ للآخر. لكن ظهرت قافلة للأعراب فأنقذتهما. ليتهم ما ظهروا أولئك الأعراب. ليت أحدهما أكل الآخر ومات الثاني تحت الشمس.

حملهما الأعراب على ظهر جمل إلى نجع لا يعرفان موقعه فوق الأرض. قدموا إليهما الماء والطعام. لاحظ أنهما لا يستسيغان الطعام، لكنهما أكلا. ومنعوهما عن الاستحمام لقلة الماء. ومنعوا النساء من النظر إليهما. بعد ذلك نقلوهما إلى المدينة اللعينة التي قابلا بها المهرب أول مرة. كانت فرحتهما غامرة حينما عرفا بذلك. لكنهما وجدا دليلهما في العودة، وكان قد اصطحبهما على ظهر جمل أمسك بطرف الحبل المربوط حول عنقه وسبقهما راكبا جملاً هو أيضا، وجدا هذا الدليل يقف أمام الفيللا التي أمضيا بها عاما من

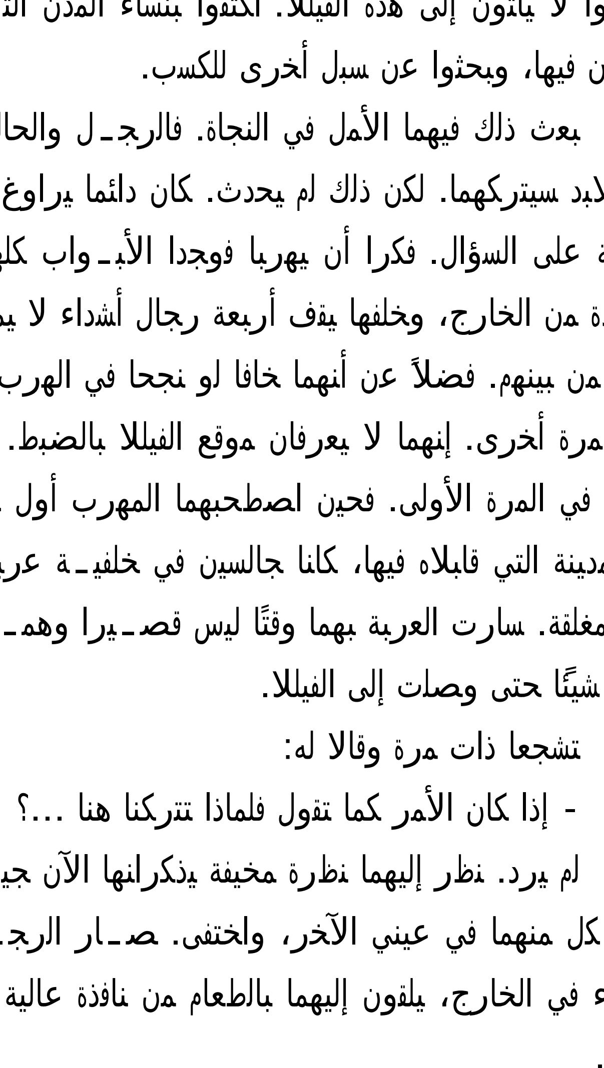
قبل. قال لهما : "سترتاحان هنا الليلة وفي الصباح نعيـدكما إلى دياركما" .. لم يستطعا المقاومـة أو الـرفض. بعـد أن تركهما كان أول ما فكرا فيه أن الدليل الذي عاد بهما وصل بسرعة، ولا يمكن تركهما، ولا يمكن أن يكون للجمل فضل في ذلك، فالأمر لم يستغرق إلا بعض يوم.. ماذا فعل الدليل الأول بهما إذن ...؟ لكنهما انشغلا بأمر الغد. فالفيللا كانـت خالية. والدليل أغلق بابها من الخارج. وفي منتصف الليـل إليهما المهرب الكبير.

لم يفكر أي منهما أن يغير من وضعه. يبدوان وهما منطرحان في الركنين المتباعدين كأنهما شـيئان مهمـلان. وحتى الآن منذ يوم عودتهما الأول لم يصلا إلى إجابة شافية عن سؤالهما لماذا يحتفظ بهما المهرب، شكا لهما في الأيـام السابقة رقة حاله وانقلاب الزمان به. تغيرت الأمور كثيـرا بعد رحيلهما. هكذا قال : قامت حرب طاحنة بين الـدولتين. وتعجب كيف لم يعرفا ذلك. كيف لم يشـاهدا آلات الحـرب وهما تائهان في الصحراء. ذلك كان سيتقذهما بالتأكيد لأنـه يعني التقاطهما. لكن هذا ما حدث على كل حـال. انقطعـت بسبب الحرب سبل التهريب. وعلى طول الحدود – التي لـم



يصلاها – تدور معارك ضخمة بين القوات العسكرية الدولية. على طول محطات القطار حتى المنطقة التي كانا يعيشان بها قبل مجيئهما الأول، تقف قوات تفتيش كبيرة تبحث عما يكون بداخل سم الإبرة، وعلى ذلك فإن دولتهم التي كان يتم التهريب إليها، شددت من رقابتها على كل شيء. والمدينة التي قابلهما بها أول مرة صارت خربة. فعربات التوياتا والداتسون والبيجو صارت لا تجري على الخط، ولا تجد من يركبها، وتباع برخص التراب، لقد انقطع سيل التهريب تماما وشملت الرقابة كل شيء. فالقماش وهو أتفه ما يمكن تهريبه قد يكون صيغة حارقة. وقطع الغيار قد تكون قنابل موقوته. والمخدرات قد تكون غازات سامة. وصاروا شحاذين. والدليل الذي أكلاه – ولم يستطع أي منهما إنكار التهمة – كان أقل الأدلاء الذين يعملون تحت إدارته قيمة، لذلك فخسارته ليست فيه، بل في الآخرين الذين هاجروا المدينة.

أكثر من ذلك إن ما كان يترتب على التهريب من تجارات كتجارة النساء قد انتهت. فالمهربون الكبار ومن ارتبط بهم من السادة، في المواقع السياسية والإدارية،



أصبحوا لا يأتون إلى هذه الفيللا. اكتفوا بنساء المدن التي يعيشون فيها، وبحثوا عن سبل أخرى للكسب.

بعث ذلك فيهما الأمل في النجاة. فالرجل والحالة هكذا لابد سيتركهما. لكن ذلك لم يحدث. كان دائما يراوغ في الإجابة على السؤال. فكرا أن يهربا فوجدا الأبواب كلها موصدة من الخارج، وخلفها يقف أربعة رجال أشداء لا يمكن النجاة من بينهم. فضلاً عن أنهما خافا لو نجحا في الهرب أن يتوها مرة أخرى. إنهما لا يعرفان موقع الفيللا بالضبط. ولم يعرفاه في المرة الأولى. فحين اصطحبهما المهرب أول مرة من المدينة التي قابلاه فيها، كانا جالسين في خلفية عربة جيب مغلقة. سارت العربة بهما وقتًا ليس قصيرا وهما لا يريان شيئًا حتى وصلت إلى الفيللا.

تشجعا ذات مرة وقالا له:

- إذا كان الأمر كما تقول فلماذا تتركنا هنا ...؟

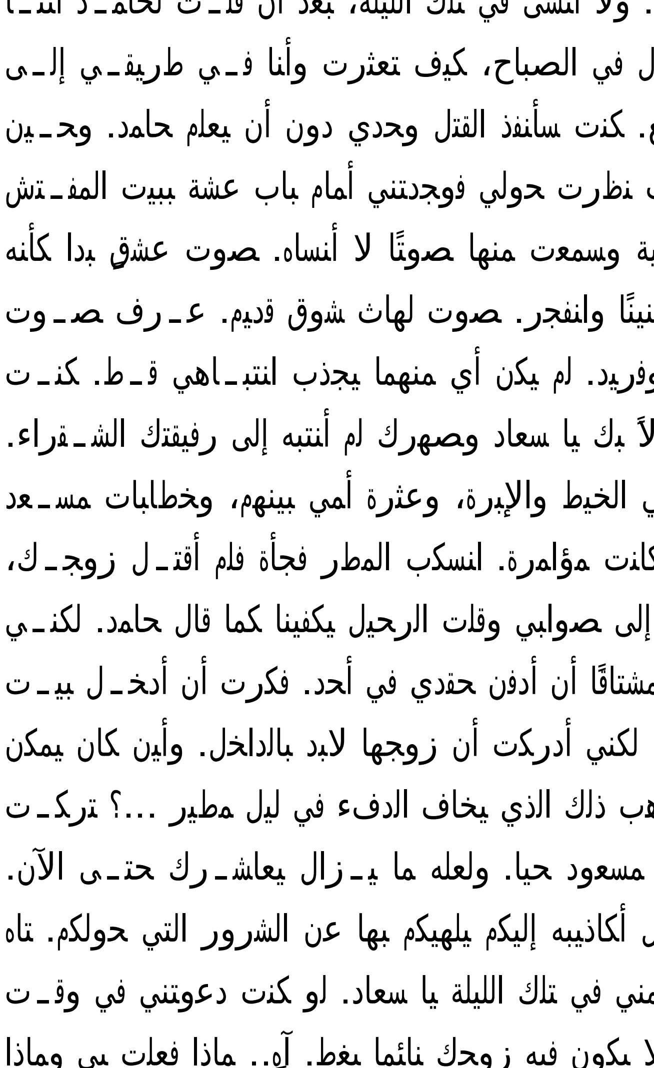
لم يرد. نظر إليهما نظرة مخيفة يذكرانها الآن جيدا وعينا كل منهما في عيني الآخر، واختفى. صار الرجال الأشداء في الخارج، يلقون إليهما بالطعام من نافذة عالية كل صباح.

كست الحسرة وجهيهما وكادا يبكيان. لكنهما غرقـا في بحار من الذكرى الشجية.

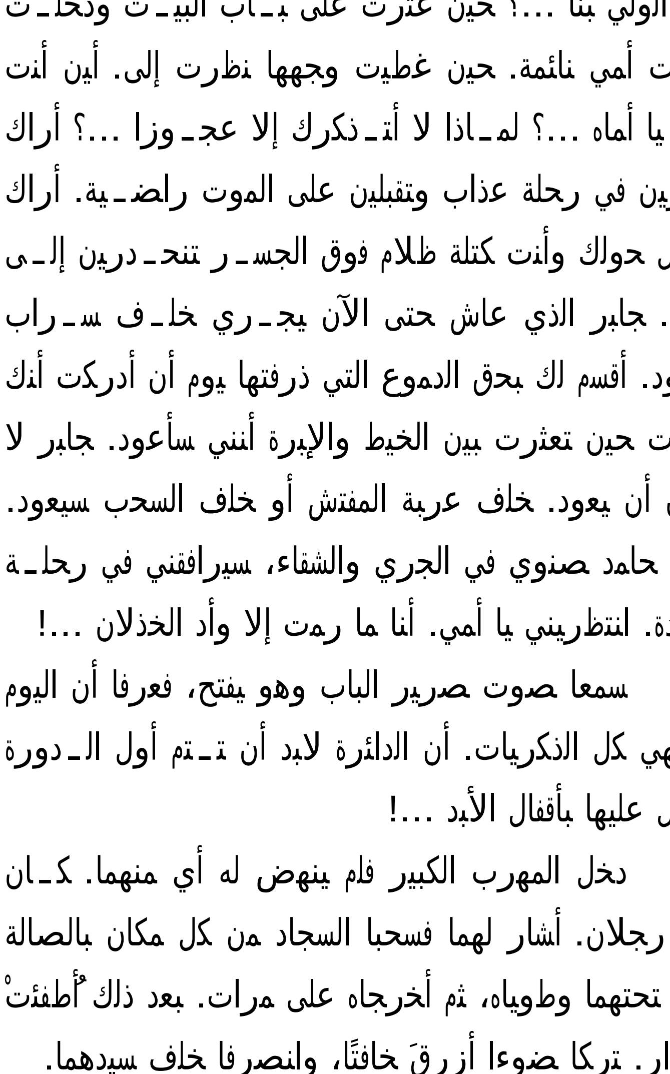
سعاد. سعاد. سعاد. أي نور هذا الذي أوقعنـي فـي شباك الضلال. كان كل شيء سابحا في لجـة مـن النـور الصافي، الذي يجلب النشوة، ويبعث على الطيران في قلـب الفضاء. لكنه أخافني. وحين جريت لم أعـرف إلـى أيـن تقودني قدماي. كنت كالنعش الطائر. أو كالسابح فوق منديل فوق عباب البحر. تلقفتني يدا هنية ويدا أمها وحشيش أبيهـا فسقطت بينهم. كيف سـارت الأمـور علـى هـذا النحـو الغريب ...؟ أغوص في بحار الضلال وأمشي وراء سراب. هكذا قالوا عني دائما وأنا صغير. صبي لـيس كالصـبيان، يريد أن يمسك القمر بيديه، فهو يطارد ضوءه على الجدران، ولا يرعوي حين يجد كفيه فارغتين. ليتني صدقتك يا أبـي حين كنت تعود مكدودا بعد يوم شقاء تمضيه معلقًا فوق سفح الجبل الصلب. ليتني صدقتك حين قلت : إن الـدنيا امـرأة فاجرة عرجاء لا تصطاد إلا الغزال ...! دنياي يا أبي كانت أربع نساء. نور فوق نور كانت سعاد. أغلقت دربها أمـامي فوقعت في درب هنية، وأمها وأبيها ظلام فوق ظلام. وزينب

التي قطعت معي دروبا كثيرة وأخصبت تركتها بأفراخها بلا ريش. ترى من اختارت زينب ابنة الطبيعة البكر ...؟ ليتهـا تختار سعاد. قلبي يحدثني أنها اختارت هنيـة وبئـر أمهـا المظلم. زينب التي كانت حين تضحك أرى زهـور حقـول الفول الباسمة. كنت تقول يا أبي أن رائحـة زهـور الفـول زكية، وأن حقوله واسعة تهدهد الأعصاب. لكن لماذا يا أبي لم أشم هذه الرائحة الزكية ولم تهدهـد أعصـابي، وظللـت أجري خلف ضوء كاذب للقمر ولا أرعوي ...؟ أي زينـب، إنني أراك الآن في الخُص فوق الجسر تحت رجال المدينـة الجبناء. انتظريني يا زينب. اطردي هـذا الـوحش فحامـد سيعود. حتما سيعود في يوم وإن كان لا يعرف حتى الآن.

سعاد. سعاد. سعاد. أي عاهرة أنت وأي قاسية ...؟ ليتك لم تقولي يا أمي أن زوجها ولي من أولياء ا . أي ولي هذا الذي يغط يا أماه ...؟ لم أستطع أن أنـزع قولـك مـن رأسي. دائما كنت تخيفينني وأنا صغير، ولو لم تقولي ذلـك لكنت قفزت. في كل مرة كنت أراها عارية، أنهـار العسـل تسكب من لحمها الأبيض فأخشى الغرق. كان علي أن أقتلك يا شيخ مسعود. كان هذا اتفاقنا أنا وحامد. لكنا تركناك وقلنا



نهرب. ولا أنسى في تلك الليلة، بعد أن قلت لحامد أننا سنرحل في الصباح، كيف تعثرت وأنا في طريقي إلى الجامع. كنت سأنفذ القتل وحدي دون أن يعلم حامد. وحين تعثرت نظرت حولي فوجدتني أمام باب عشة ببيت المفتش الخشبية وسمعت منها صوتًا لا أنساه. صوت عشقٍ بدا كأنه كُتم سنينًا وانفجر. صوت لهاث شوق قديم. عرف صوت ليلى وفريد. لم يكن أي منهما يجذب انتباهي قط. كنت مشغولاً بك يا سعاد وصهرك لم أنتبه إلى رفيقتك الشقراء. أعماني الخيط والإبرة، وعثرة أمي بينهم، وخطابات مسعد التي كانت مؤامرة. انسكب المطر فجأة فلم أقتل زوجك، عدت إلى صوابي وقلت الرحيل يكفينا كما قال حامد. لكني كنت مشتاقًا أن أدفن حقدي في أحد. فكرت أن أدخل بيت روائح لكني أدركت أن زوجها لابد بالداخل. وأين كان يمكن أن يذهب ذلك الذي يخاف الدفء في ليل مطير ...؟ تركت الشيخ مسعود حيا. ولعله ما يزال يعاشرك حتى الآن. ويرسل أكاذيبه إليكم يلهيكم بها عن الشرور التي حولكم. تاه بيتي مني في تلك الليلة يا سعاد. لو كنت دعوتني في وقت آخر لا يكون فيه زوجك نائما يغط. آهٍ.. ماذا فعلت بي وماذا



فعل الولي بنا ...؟ حين عثرت على باب البيت ودخلت وجدت أمي نائمة. حين غطيت وجهها نظرت إلى. أين أنت الآن يا أماه ...؟ لماذا لا أتذكرك إلا عجوزا ...؟ أراك تسيرين في رحلة عذاب وتقبلين على الموت راضية. أراك والليل حولك وأنت كتلة ظلام فوق الجسر تنحدرين إلى الماء. جابر الذي عاش حتى الآن يجري خلف سراب سيعود. أقسم لك بحق الدموع التي ذرفتها يوم أن أدركت أنك هرمت حين تعثرت بين الخيط والإبرة أنني سأعود. جابر لا يمكن أن يعود. خاف عربة المفتش أو خاف السحب سيعود. وهذا حامد صنوي في الجري والشقاء، سيرافقني في رحلة العودة. انتظريني يا أمي. أنا ما رمت إلا وأد الخذلان ...!

سمعا صوت صرير الباب وهو يفتح، فعرفا أن اليوم ستنتهي كل الذكريات. أن الدائرة لابد أن تتم أول الدورة سيقفل عليها بأقفال الأبد ...!

دخل المهرب الكبير فلم ينهض له أي منهما. كان معه رجلان. أشار لهما فسحبا السجاد من كل مكان بالصالة ومن تحتهما وطوياه، ثم أخرجاه على مرات. بعد ذلك أُطفئتْ الأنوار. تركا ضوءا أزرقَ خافتًا، وانصرفا خلف سيدهما.

حين وصل المهرب إلى الباب التفـت إلـى حامـد وجابر المنطرحين كما هما.

قال :

- تريدان أن تعرفا متى سأطلق سراحكما.

لم يبدو أنهما اهتما بذلك. قال :

- من يدخل هنا للمرة الثانية لا يخرج أبدا.

وخرج. لم يحتجا. لم ينظرا حتى إليه. لم يهتز لأيهما هدب. كان كل منهما يعرف النهاية جيدا وراضيا بها...

* * * * * *

المدينة

علي

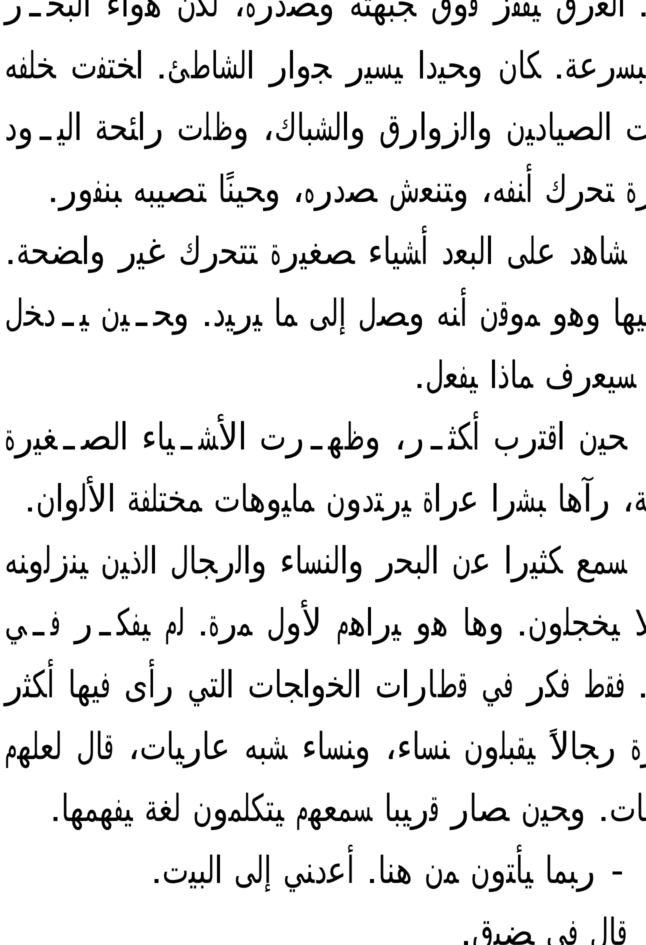
لم يكن علي مندهشًا حين عاد ورأى ما رأى. أحس بذلك منذ اليوم الأول لدخول المدينة. يومها تساءل هل جـاء ليعود بهذه السرعة ...؟ وقرر الانصياع إلى القوى الخفيـة التي أحس بها تظلمه، وفكر أنها لابد في رأسه. فهو بالكـاد يتم الرابعة عشرة، ولقد رأى كثيرين في هذا العمر، أقصـى ما فعلوه هو صيد الأسماك والعصافير. لكن هذه القوى التي استيقظت منذ ليلة كرات النار، حملته هما لا يدركه. أحـس بظلمها حقًا، لكنه فهم أن أمامه عمـلاً سـيؤديه، وطريقًـا سيسلكه.

لم يكن يعرف أن الدنيا يمكن أن تكون مضيئة هكذا، وهو يأخذ طريقه إلى المدينة لأول مرة. حـين ابتعـد عـن المنازل ولم يعد يرى المنطقة كلها، كان أول ما رآه البحـر الذي هو أكبر من البحيرة. والذي تنقلب مياهه فـي أمـواج أعلى من موجات البحيرة الهادئة. كان البحر واسـعا أمـام

عينيه ولا نهائي المدى. وكان الوقـت ضـحى. والشـمس الصغيرة عالية في سماء واسعة زرقاء كلون البحر.

شاهد في البداية مجموعـات مـن زوارق الصـيد. بعضها له شراع وبعضها يجري فيحـدث ضـجة كبيـرة، ويطرد الماء خلفه إذ لابد يدور كما القطار بماكينة بخاريـة. كان فوق أحد هذ الزوارق السريعة كومة عالية من الشـباك ترتخي في الماء، والزورق يجري لمسافة طويلـة صـانعا دائرة واسعة، فعرف أن من فوق هذا الزورق، ينصبون هذه الشبكة الكبيرة جدا، كي يصطادوا سمك الدنيا كلها ...!

كان مجهدا من المشي تحت الشمس. لم يكـن معـه طعام ولا شراب. حين صادف جماعة من الصيادين جالسين في ظل كشك خشبي تغطيه الشباك المبتلة، والتي تتدلى مـن أطرافها كرات الفلين الصفراء، وقطع الرصاص السـوداء، اتجه إليهم، استأذنهم أن يشرب من "قلتهم". كـانوا يشـوون سمكًا فتحركت معدته. لم يطلب منهم طعامـا. سـألهم هـل يمشي كثيرا حتى يصل إلى المدينة ...؟ قالوا إنه في أولهـا. وسألوه أين يريد الذهاب بالضبط..؟ قال : "المدينة" فلم يردوا عليه.



سار ساعة تقريبا صارت فيها الشمس في وسط السماء. العرق يقفز فوق جبهته وصدره، لكن هواء البحر يجففه بسرعة. كان وحيدا يسير جوار الشاطئ. اختفت خلفه جماعات الصيادين والزوارق والشباك، وظلت رائحة اليود والزفارة تحرك أنفه، وتنعش صدره، وحينًا تصيبه بنفور.

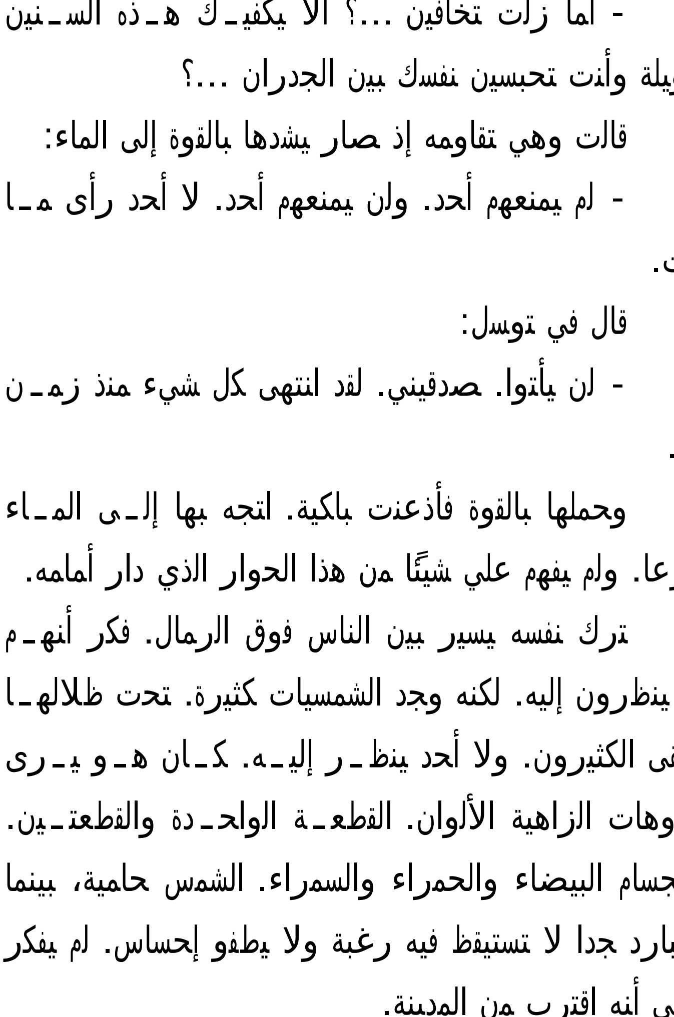
شاهد على البعد أشياء صغيرة تتحرك غير واضحة. اتجه إليها وهو موقن أنه وصل إلى ما يريد. وحين يدخل المدينة سيعرف ماذا يفعل.

حين اقترب أكثر، وظهرت الأشياء الصغيرة واضحة، رآها بشرا عراة يرتدون مايوهات مختلفة الألوان.

سمع كثيرا عن البحر والنساء والرجال الذين ينزلونه معا ولا يخجلون. وها هو يراهم لأول مرة. لم يفكر في خجلهم. فقط فكر في قطارات الخواجات التي رأى فيها أكثر من مرة رجالاً يقبلون نساء، ونساء شبه عاريات، قال لعلهم الخواجات. وحين صار قريبا سمعهم يتكلمون لغة يفهمها.

- ربما يأتون من هنا. أعدني إلى البيت.

قال في ضيق.



- أما زلت تخافين ...؟ ألا يكفيك هذه السنين الطويلة وأنت تحبسين نفسك بين الجدران ...؟

قالت وهي تقاومه إذ صار يشدها بالقوة إلى الماء:

- لم يمنعهم أحد. ولن يمنعهم أحد. لا أحد رأى ما رأيت.

قال في توسل:

- لن يأتوا. صدقيني. لقد انتهى كل شيء منذ زمن بعيد.

وحملها بالقوة فأذعنت باكية. اتجه بها إلى الماء مسرعا. ولم يفهم علي شيئًا من هذا الحوار الذي دار أمامه.

ترك نفسه يسير بين الناس فوق الرمال. فكر أنهم لابد ينظرون إليه. لكنه وجد الشمسيات كثيرة. تحت ظلالها استلقى الكثيرون. ولا أحد ينظر إليه. كان هو يرى المايوهات الزاهية الألوان. القطعة الواحدة والقطعتين. والأجسام البيضاء والحمراء والسمراء. الشمس حامية، بينما هو بارد جدا لا تستيقظ فيه رغبة ولا يطفو إحساس. لم يفكر إلا في أنه اقترب من المدينة.

رائحة الطعام تأتي إليه من كل جهة، لكنه يقاوم. لـم يندم على أنه لم يأخذ شيئًا معه يأكله. ولا نقودا يشتري بهـا شيئًا. لم يعرف لماذا لم يحاول ذلك كان يفكر وهـو يـرى الرجال والنساء شبه العراة، أنه على طول ما استحم، لا يلمع جسمه مثلهم رغم أنه ليس أسمر.. وأنه رغم النور الذي يطل قويا طليا من وجهي سعاد وليلى، إلا أن النساء والفتيات على هذا الشاطئ ينطلق منهن نور باهر، وتلمع أجسادهن بضوء مثير. كان قد اقترب من مجموعة مـن الشـباب والفتيـات يرتدون ثيابا كاملة، يجلسون في حلقة كما يفعل الرجال حول الشيخ مسعود في ليالي رمضان بعد صلاة التراويح. لاحـظ أنهم بعيدون عن الزحام. ولاحظ من بينهم شابا حاد ملامـح الوجه. أسمر تلمع عيناه العسليتان بالنار. بدا له من تكـوين جسمه قويا كأنه خُلق كي يشد القطارات.

- كلمتي الأخيرة إنه بلا حرب لا يبقى إلا المـوت البطيء من الخوف.

- لقد قررنا أن لا نتراجع.

- وهذا ما نريد. لقد مرت أعوام ثلاثة.

لم يفهم للمرة الثانية شيئًا. الآن بعد عام صار يفهم كل شيء. نسي طوال هذا العام وجه الفتاة المضطربة والشاب الذي حملها إلى الماء. ولم ينس قط ذلك الشاب القوي. لكنه بعد أن سمعه ذلك اليوم أحس بأنه لن يستطيع أن يواصل السير. اتجه خلف إحدى الكبائن ونام في الظلال.

حين استيقظ كان المساء. لم يكن هناك أحد على الشاطئ. أيقظه شرطي سواحل يرتدي بذة من الكاكي تلمع أزرارها في عينيه في الظلام. قال وهو لا يدري.

- أنا جوعان.

جلس الشرطي جواره ورآه علي متعبا منكسرا.

- من أين أنت يا ولدي ...؟

- لا أعرف.

كان يجيب على الشرطي كأنه يحلم.

- كيف ...؟ لو رآك غيري لقبض عليك. نحن في زمان حرب.

لم يفهم علي. قال مرتبكًا.

- أنا من هناك.

وأشار إلى الغرب. لكنه وهو يشير رأى الظلام أمام عينيه.

- من أين بالضبط.

- لا أعرف. صدقني. عند آخر حدود القطار وجوار البحيرة. وتمر علينـا قطـارات كثيـرة يركبهـا الجنـود والخواجات.

بدا أن الشرطي لا يفهم شيئًا. صمت قليلاً ثم قال :

- وماذا تفعل هنا ...؟

لم يرد علي.

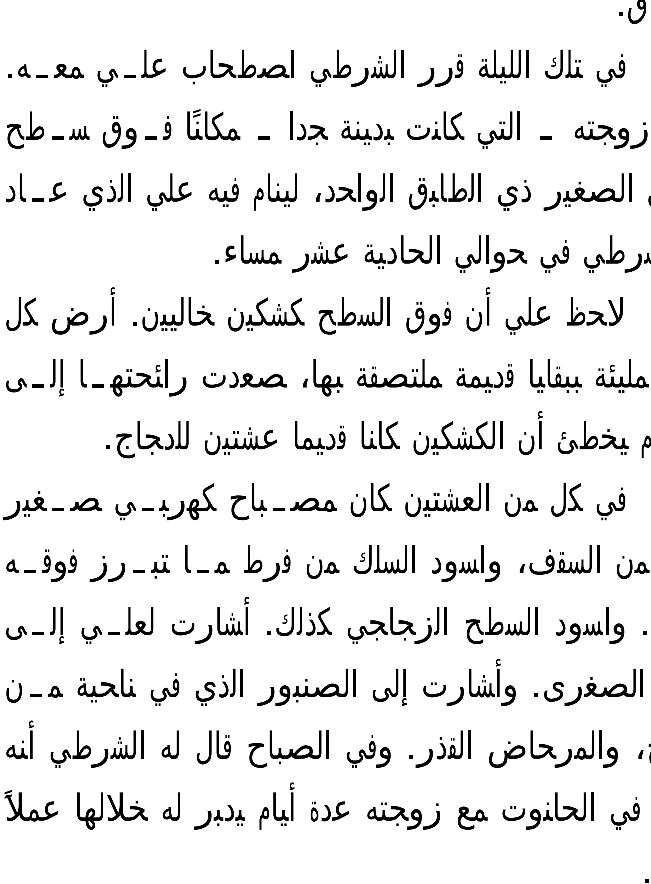
- أليس لك أهل ...؟ هل أنت هارب من شيء ...؟

قال علي وهو لا يدري.

- أنا يتيم. وأريد أن أعمل في المدينة.

دقق الشرطي النظر فيـه. رأى عينيـه الواسـعتين لامعتين. جبهته عالية. قوي الجسم. استغفر ا . وكان علـي أثناء ذلك يفكر كيف قال عن نفسه أنه يتيم. وأحـس للكلمـة مذاقًا ومعنى غريبين.

كان للشرطي حانوت صغير تديره زوجه في أحـد أحياء المدينة الفقيرة حانوت يبيع الحلوى للأطفال، والسجائر


والشاي والسكر للكبار، والورق وأغلفة الخطابات للغرباء والعشاق.

في تلك الليلة قرر الشرطي اصطحاب علي معه. هيأت زوجته - التي كانت بدينة جدا - مكانًا فوق سطح المنزل الصغير ذي الطابق الواحد، لينام فيه علي الذي عاد مع الشرطي في حوالي الحادية عشر مساء.

لاحظ علي أن فوق السطح كشكين خاليين. أرض كل منهما مليئة ببقايا قديمة ملتصقة بها، صعدت رائحتها إلى أنفه فلم يخطئ أن الكشكين كانا قديما عشتين للدجاج.

في كل من العشتين كان مصباح كهربي صغير يتدلى من السقف، واسود السلك من فرط ما تبرز فوقه الذباب. واسود السطح الزجاجي كذلك. أشارت لعلي إلى العِشة الصغرى. وأشارت إلى الصنبور الذي في ناحية من السطح، والمرحاض القذر. وفي الصباح قال له الشرطي أنه سيقف في الحانوت مع زوجته عدة أيام يدبر له خلالها عملاً مناسبا.

لم يعرف علي إلى أين ستنتهي الأمور. لكنه وهو مع المرأة البدينة في الحانوت، وبينما كان يتأملها وهي تتحـرك بصعوبة، قال لها :

- يا خالة. ألا تعرفين أيـن أجـد هندسـة السـكة الحديد ...؟

نظرت إليه متحيرة. خاف أن يكون أخطأ. لكنه كان على يقين من صوابه، إذ أنه سمع أباه كثيرا يتحـدث عـن الإدارة العامة التي يتبعون لها، والتي تقع بالمدينة، وتسـمى هندسة السكة الحديد. وكان على يقين، كما سمع أباه، أنه في هذه الإدارة تدار أعمال القطارات وشئون العمال.

- ماذا تريد من هناك ...؟

كانت قد نظرت إليه مليا. وبدا علـى وجههـا أنهـا تعرف كل شيء : "أمعقول هذا". قال :

- لا شيء. فقط أريد أن أعرفها.

قالت : بارتياب.

- فقط....؟

لم يرد. انصرفت عنه إلى بيع بعض الأشياء لأحـد الزبائن الذي نظر إليه متفرسا فأربكه. هل يكون وجهه غريبا

عن وجوه الناس هنا...؟ هل يعرف من ينظر إليه أنه ليس من المدينة ...؟ أو من منطقة معزولة تحدها البحيرة والصحراء، ومحطة قديمة للقطارات ناظرها نائم منذ عشرات السنين، ولا يركب منها أو يهبط فيها أحد ...؟ لكن الزبون انصرف بسرعة، ثم توقف بعد خطوات قليلة. التفت ينظر إليه بعينين ثاقبتين ومضى من جديد.

لم يكد علي يفكر في نظرة الزبون الأخيرة حتى قالت المرأة :

- في آخر هذا الشارع ستجد شارعا واسعا تسير فيه الترام. تركب وتنزل بعد ثلاث محطات. هناك ستجدها. مبنى أحمر من طوب أصفر قديم ومن طابقين. إنها واضحة جدا.

انتشر الفرح في دمه وأعصابه وإن كان لا يعرف لماذا، أو ماذا سيفعل هناك. لكنه فجأة أحس بأن جسمه نما نموا غريبا ولما يمضي عليه يومان في المدينة. قال في نفسه إنها القوى الخفية وراء الفرح والنمو. فليترك نفسه لها تحركه، وإن ظلمته بما حملته له مما هو فوق العمر والقدرة. قال :

- هل أذهب الآن...؟

قالت بحزم :

- غدا.

في المساء، بعد أن تناول عشاءه فوق السطح وحيدا كالكلاب الأجرب – هكذا أحس والمرأة البدينة تضع أمامه طبق الفول والرغيفين ثم تمضي صامتة – تذكر أن أباه كان كثيرا، في ليالي الصيف، قبل أن ينقطع القطار عن المجيء يصعد إلى السطح ليتناول عشاءه وحيدا، ثم يجلس مرتكنا على السياج بظهره، ويشعل سيجارة ناظرا إلى السماء، فيبدو كمن يعد النجوم. تاق إلى سيجارة رغم أنه لم يدخن من قبل قط. لكنه حين رأى شابا يصعد إلى السطح نسى ذلك. رأى الشاب يقف قليلاً ناظرا حوله في يقظة، ثم يشير ناحية السلم يدعو أحدا إلى الصعود. عرفَه علي وانقبض قلبه. إنه نفس الشاب القوي الذي رآه أمس على الشاطئ. تراجع زاحفًا إلى الخلف ليدخل العِشة وهو يرى فتاة مقبلة ناحية الشاب، وعلى وجهها خوف شديد. حين وصل إلى العِشة رأى فتاة أخرى وشابا آخر ثم شابا ثالثًا. ثم فوجئ بالشاب الأول يشير إليه كمن كان يعرف وجوده. نهض خائفًا لأول مرة من أحد.

حين صار أمام الشاب أخفض بصره كـي لا يـرى أحدا. في الحقيقة كان لا يريد لأحد أن يـراه. لكنـه أحـس بالفتاتين تبتسمان وتتبادلان النظرات. تاقت نفسه لأول مـرة إلى ليلى وسعاد. هذه المدينة لابد أن يتركها فـورا. وهنـاك لابد سيختفون إذا تأخر كثيرا. لكن هل جـاء ليعـود بهـذه السرعة ...؟ لماذا يفكر في ذلـك ويـرى نفسـه كالكلـب الأجرب ...؟ القوى الخفية تستيقظ في رأسه الآن من جديد، الطريق إذن ما يزال مفتوحا أمامه.

- هل تسـتطيع أن تحضـر إلينـا سـجائر مـن الدكان ...؟ ها هو المفتاح. لم ينتظر الشاب إجابته.. أعطـاه المفتاح فعرف علي أنه ابن للشرطي والمرأة البدينـة. هـبط السلم مسرعا ومنتشيا.

سار في شارع ضيق متسخ مليء بالأطفـال الـذين يجرون خلف بعضهم، يقذفون بعضهم بالحصى، ويعفـرون وجوههم بالتراب. نظر إلى جانبي الشارع عله يجد مصباحا مضيئًا يتجمع الأطفال تحتـه يعـدون الشـص أو الفخـاخ المكسورة، يلعبون "الورق" بأغلفة علب السجائر أو "المـال" بزلط السكة الحديد الصغير، يجهـزون الكـرة القمـاش أو

يتفرقون مسرعين وهم يلعبون "الاستغماية"، أو حتى يتحلقون صبيا يحكي لهم حكاية مسلية. لم يجد. لـم يـر إلا أطفـالاً يجرون ويعفرون وجوههم بالتراب. رأى كل النوافذ مغلقـة والأبواب. بدا له أن أولئك الأطفال ينزلون في كل ليلة مـن السماء يعفرون وجوههم بالتراب ويصعدون، إذ لا يبدو مـن النوافذ والأبواب المغلقة، أن لهم بيوتًا ينامون فيها.

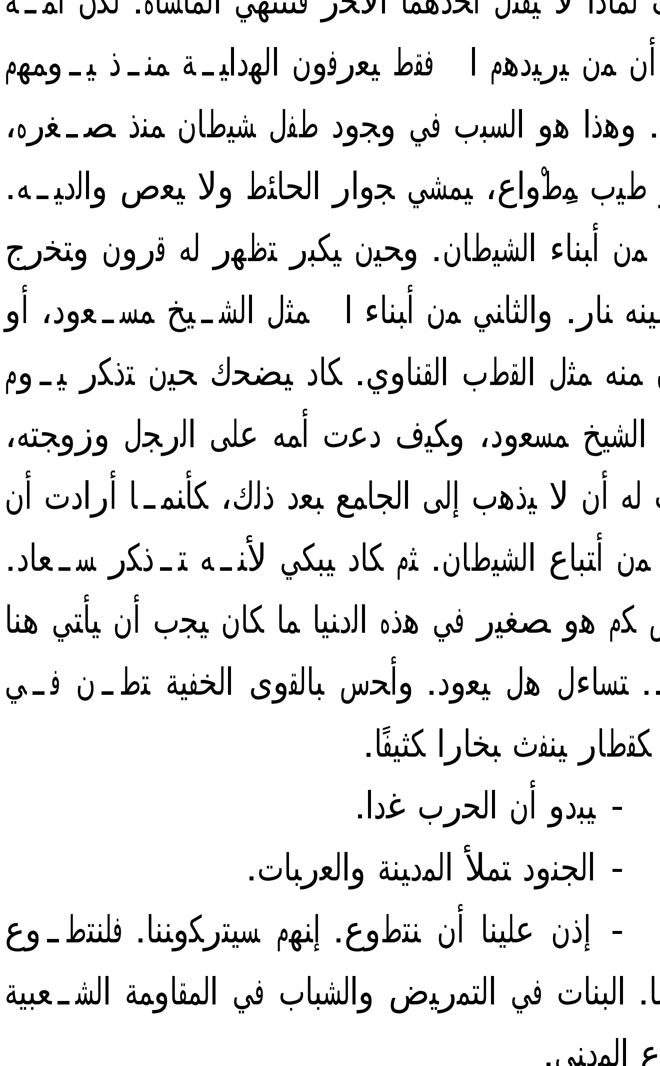
أسرع وأنجز مهمته دون خوف أن يكون بالدكان أحد ينظر إليه. فكر وهو يصعد السلم أن يصعد بهدوء النمس. ثم فكر أن يسير كما يفعل بحثًا عن القنفذ. لكن السلم ضيق ولن يتح له فرصة الدوران كالضبع! صعد متمهلاً سـعيدا. عنـد نهاية السلم رأى القمر جميلاً يكشف السطح فيبدو كبحيرة من النور. ويبدو الكشكان الخشـبيان كمحطتـي سـكة حديـد صغيرتين متباعدتين. وكان ضوء القمر ساطعا بهيـا حتـى لأحس وكأن القمر يسكن داخل صدره.

حين كان القمر يسطع فوق البحيرة كانت المياه تلمع أمام عينيه ويقول لنفسه أن الأسـماك الآن تـرى بعضـها، فالقمر لابد يضيء لها الدنيا المظلمة تحت المـاء. ويتخيـل الأسماك وهي تسبح هناك منتشية بالنور وتـرقص، وأزواج

منها تنفرد لتتحدث بعيدا وتلهو. كان القمر يفسد فقط ألعـاب الاستخفاء. فكل من يختفي كان يصير له خيال. لكنه تعلم أن لا يكون له ذلك، فلم يكن أحد يعثر عليه بسهولة. كان يجلس فوق الأرض ويتكوم حول نفسه بطريقة تجعل خياله تحتـه. حين يمر صبي من أترابه يبحث عنه، يقفز في وجهه فيفزعه ثم يفر من أمامه. سأله الصبية كثيرا كيـف لا يكـون لـه خيال ...؟ فضحك ولم يقل شـيئًا. وحـين انقطـع القطـار وانقطعت ألعابهم، وأنامهم الأهل مبكرين كالدجاج، لم يفكـر أن يقول أحد عن سره. كان يقول لنفسه، من يدري قد يعـود القطار ويعود كل شيء إلى سيرته ...؟ وسأل أمه عن الذي لا يكون له ظل أو خيال، قالت على الفور : "النور". قـرر وهو يشعر بالزهو، أن يلقن أبناءه حين يكبر، أن يكونوا بلا ظل أو خيال! أن يكونوا نورا..

لكنه أحس فجأة وهو يقف عند نهاية السلم أن الـدنيا كبيرة حقًا كما قالت أمه :

أن ابن آدم ضئيل لا قيمـة لـه. أن ا قـد أنزلـه الأرض عقابا لأنه أطاع الشيطان، لذلك فهو معذب في الدنيا ومسكين. الشيطان يطارده وا يهديه. وهو ضائع بينهما لا



يعرف لماذا لا يقتل أحدهما الآخر فتنتهي المأساة. لكن أمـه تقول أن من يريدهم ا فقط يعرفون الهدايـة منـذ يـومهم الأول. وهذا هو السبب في وجود طفل شيطان منذ صـغره، وآخر طيب مِطْواع، يمشي جوار الحائط ولا يعص والديـه. الأول من أبناء الشيطان. وحين يكبر تظهر له قرون وتخرج من عينه نار. والثاني من أبناء ا مثل الشـيخ مسـعود، أو أحسن منه مثل القطب القناوي. كاد يضحك حين تذكر يـوم طرده الشيخ مسعود، وكيف دعت أمه على الرجل وزوجته، وقالت له أن لا يذهب إلى الجامع بعد ذلك، كأنمـا أرادت أن يكون من أتباع الشيطان. ثم كاد يبكي لأنـه تـذكر سـعاد. وأحس كم هو صغير في هذه الدنيا ما كان يجب أن يأتي هنا وحده.. تساءل هل يعود. وأحس بالقوى الخفية تطـن فـي رأسه كقطار ينفث بخارا كثيفًا.

- يبدو أن الحرب غدا.

- الجنود تملأ المدينة والعربات.

- إذن علينا أن نتطوع. إنهم سيتركوننا. فلنتطـوع بأنفسنا. البنات في التمريض والشباب في المقاومة الشـعبية والدفاع المدني.

- هل ستكون هناك حاجة للمقاومة الشعبية ...؟

- كل الاحتمالات قائمة.

- لو لم يمت فريد. كان من الممكن أن يتغير.

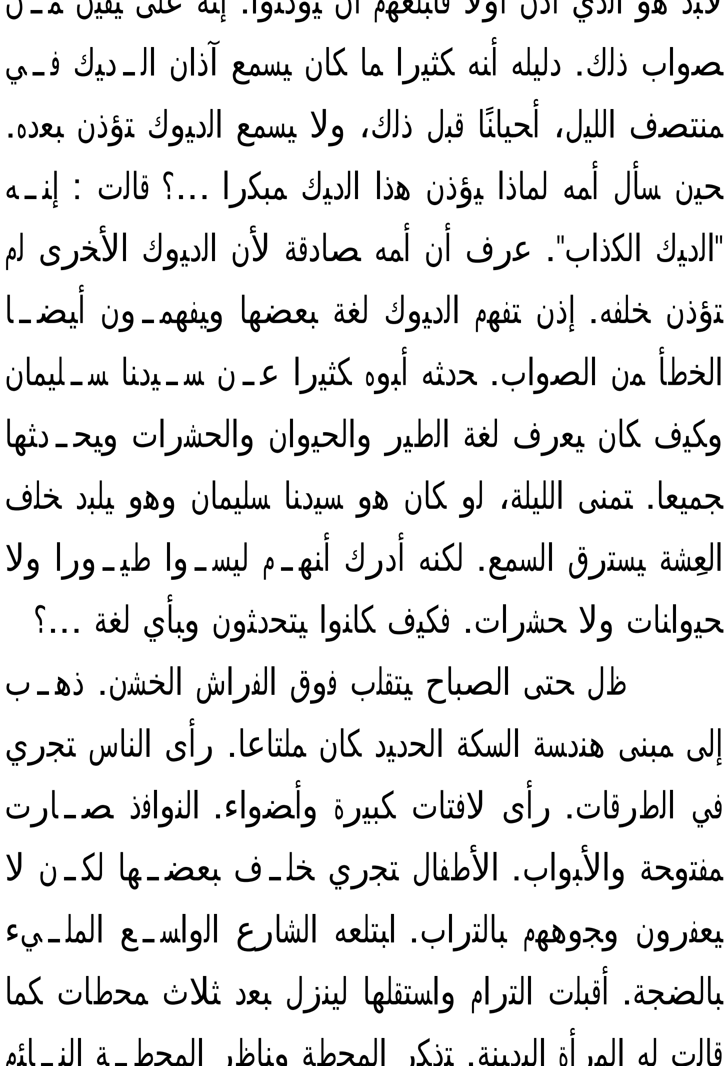
أمضى ليلة لائبة. أيكون سر كل شيء هنا في هذه العِشة الصغيرة الحقيرة ...؟ إنه على يقين أنهم يتحدثون عن فريد ابن المفتش. أيكون كل شيء في بطن هذه المدينة لم ير منها إلا شارعا ضيقًا قذرا حتى الآن ...؟ ثم هذه الحرب ما هي ...؟ وما هذا الخوف الذي سمعهم يتحدثون عنه على الشاطئ ...؟ حين قال الشاب للفتاة المضطربة أنه قد انتهى كل شيء ماذا كان يقصد ...؟ أي حرب هذه التي ستقوم بعد يومين من دخوله المدينة ومع من ...؟ كيف أنهم هناك لم يعرفوا شيئًا عن ذلك ...؟ أولئك الجنود الجرحى الذين حدثوه ماذا كانوا يقصدون ...؟ لماذا لم يوضحوا له شيئًا ...؟

هؤلاء الشباب يعرفون كل شيء عنهم ولا شك بذكرهم لفريد. أما هم فقد دارت حياتهم حول قطار انقطع. رأوا قطارات وجنودا مبهمة. شاهدوا خواجات لا يعرفون عنهم إلا أنهم خواجات ...! اصطادوا سمكًا نتنًا. ماتت طيورهم. ورحل الرجال والنساء. والمرأة البدينة التي سألها

عن مقر هندسة السكة الحديد لماذا ارتابت ...؟ والزبون الذي إليه ...؟ أي ظلام هنا أو أي نور ...؟ القوى الخفية التي في رأسه تتدافع. موجها لاهب يكاد يفجر رأسه.

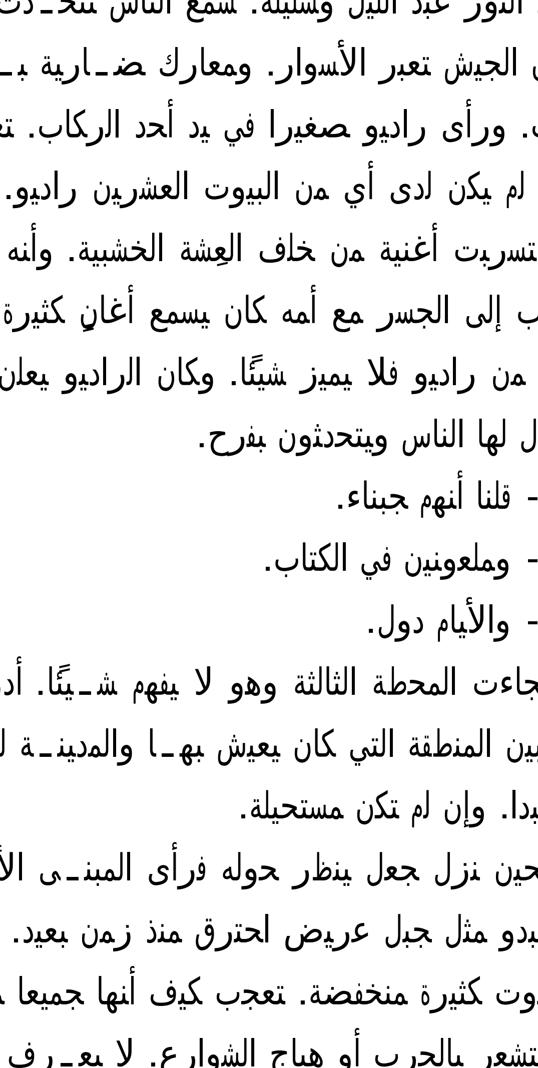
انقطع حديثهم بعد أن أعطاهم السجائر، ولم يعد يسمعهم. حين سار على قدميه ويديه، ولبد خلف الكشك الذي يجلسون فيه يسترق السمع، لم يسمع شيئًا. صمتوا طويلاً حتى كاد الليل ينتصف. لم يعرف كيف ظلوا صامتين كل هذا الوقت. لابد أنهم كانوا يتحدثون بلغة غير مسموعة. مياه البحيرة تفعل ذلك. أمواجها الهادئة تأتي إلى الشاطئ في حنو. يكون للموجة الكبيرة صوت. الموجات الصغيرة لا يكون لها صوت. تأتي وادعة تفرش الشاطئ في قوس رقيق ولا تعود. تتشربها الأرض من فرط رقتها. تكون دائما أحلى الموجات وأبهاها. كان ينتشي وهو يرى مسام الأرض تتشرب المياه الرقيقة. وحين تهب نسمة ندية تكون بلا صوت أيضا ويشعر أن جسمه صار ناحلاً كخيط رفيع لا يرى، معلق في الفضاء الوادع يتثنى في دعة، ويسبح بانتشاء فائق. ويكاد وهو يشعر بذلك يدخل في بعضه وهو واقف من الغبطة والجذل، فائق ويغمض عينيه. والأسماك أيضا تتحدث

بلا صوت. لم يكذب أبوه حين قال له أن لكل شـيء لغـة. فالأسماك لابد تتكلم تحت الماء لكن لا نسـمعها. وغمـزات السمكة للطعم وعدم إقبالها عليه مباشرة، ما هـو إلا نتيجـة لمكرها، أو لتحذيرات تسمعها من الأسماك الأخرى فتـردد. وحين تكون الأسماك في السلة الصغيرة بعد الصـيد، تقفـز دائما سمكة كبيرة إلى الخارج وتنتفض فوق الأرض. ما يكاد يحاول إمساكها حتى تقفز سمكة أخرى ثم ثالثة فرابعة. أمـه قالت له أن يغطي السلة. لكنه كان كثيرا ما يرفـع الغطـاء، وينتظر حتى تقفز السمكة ووراءها الأسماك الأخرى. يراقب المشهد في متعة. وكلما تنتفض السمكة الكبيـرة، انتفضـت الأسماك الصغيرة. الأكبر فالأصغر على الترتيب. إنه متأكد من ذلك. حين تكف السمكة الكبيرة يكف السـمك الصـغير. يقول لنفسه أن السمك الصغير يطيع السمكة الكبيرة، وحـين يئست يئس. يتساءل لماذا تيأس السمكة الكبيرة بسرعة فتعلم الصغير اليأس ...؟ أبـوه أيضـا قـال أن للطيـور لغتهـا وللحشرات جميعا حتى النمل. وهو لا ينسى أنه حـين كـان يسمع ديكًا يؤذن للفجر يسمع بعده بقية الديوك تؤذن. إنها لا تؤذن مع بعضها مع أن موعد الفجر واحد. لكن الديك الكبير



لابد هو الذي أذن أولاً فأبلغهم أن يؤذنوا. إنه على يقين من صواب ذلك. دليله أنه كثيرا ما كان يسمع آذان الديك في منتصف الليل، أحيانًا قبل ذلك، ولا يسمع الديوك تؤذن بعده. حين سأل أمه لماذا يؤذن هذا الديك مبكرا ...؟ قالت : إنه "الديك الكذاب". عرف أن أمه صادقة لأن الديوك الأخرى لم تؤذن خلفه. إذن تفهم الديوك لغة بعضها ويفهمون أيضا الخطأ من الصواب. حدثه أبوه كثيرا عن سيدنا سليمان وكيف كان يعرف لغة الطير والحيوان والحشرات ويحدثها جميعا. تمنى الليلة، لو كان هو سيدنا سليمان وهو يلبد خلف العِشة يسترق السمع. لكنه أدرك أنهم ليسوا طيورا ولا حيوانات ولا حشرات. فكيف كانوا يتحدثون وبأي لغة ...؟

ظل حتى الصباح يتقلب فوق الفراش الخشن. ذهب إلى مبنى هندسة السكة الحديد كان ملتاعا. رأى الناس تجري في الطرقات. رأى لافتات كبيرة وأضواء. النوافذ صارت مفتوحة والأبواب. الأطفال تجري خلف بعضها لكن لا يعفرون وجوههم بالتراب. ابتلعه الشارع الواسع المليء بالضجة. أقبلت الترام واستقلها لينزل بعد ثلاث محطات كما قالت له المرأة البدينة. تذكر المحطة وناظر المحطة النائم



وعم عبد النور عبد الليل وسليله. سمع الناس تتحدث عن قوات من الجيش تعبر الأسوار. ومعارك ضارية بدبابات وطائرات. ورأى راديو صغيرا في يد أحد الركاب. تعجب كيف أنه لم يكن لدى أي من البيوت العشرين راديو. وأنه قليلاً ما تسربت أغنية من خلف العِشة الخشبية. وأنه حين كان يذهب إلى الجسر مع أمه كان يسمع أغانٍ كثيرة تنطلق من أكثر من راديو فلا يميز شيئًا. وكان الراديو يعلن عن أرقام يهلل لها الناس ويتحدثون بفرح.

- قلنا أنهم جبناء.
- وملعونين في الكتاب.
- والأيام دول.

جاءت المحطة الثالثة وهو لا يفهم شيئًا. أدرك أن المسافة بين المنطقة التي كان يعيش بها والمدينة ليست قصيرة أبدا. وإن لم تكن مستحيلة.

حين نزل جعل ينظر حوله فرأى المبنى الأحمر الضخم يبدو مثل جبل عريض احترق منذ زمن بعيد. حول المبنى بيوت كثيرة منخفضة. تعجب كيف أنها جميعا مغلقة كأنها لا تشعر بالحرب أو هياج الشوارع. لا يعرف لماذا

تذكر قوله للشرطي إنه يتيم. ثم رأى اللافتة الكبيرة، وصورة قطار على الواجهة. سأل نفسه ماذا يريد بالضبط ...؟

إن أحدا لم يأت هنا من قبل ويسأل عن القطار. حين قالوا أن المفتش يتولى أمر ذلك كانوا كذابين. المفـتش لـم يتحدث في ذلك قط. أما هو فسيعرف الآن كل شيء.

رأى شرطيا نحيلاً جالسا فوق أريكة لامعـة أمـام الباب الواسع فاتجه إليه :

- هل هذه هي هندسة السكة الحديد ...؟

- أجل.

نظر إليه الشرطي نظرة ذكرته بالزبون أمس. فكـر أنه قد تكون ثيابه هي السبب. فقميصه الواسع جدا والممزق من فوق الكتف، يختلف عن القمصان الضيقة التي يرتـديها كل من شاهدهم من شباب وصبية. سرواله واسع جـدا مـن أعلى وضيق من فوق القدمين، بينما هو يرى سراويل الناس عكس ذلك. حذاؤه صندل قديم من كاوتش السيارات لم يـر أحدا يرتدي مثله.

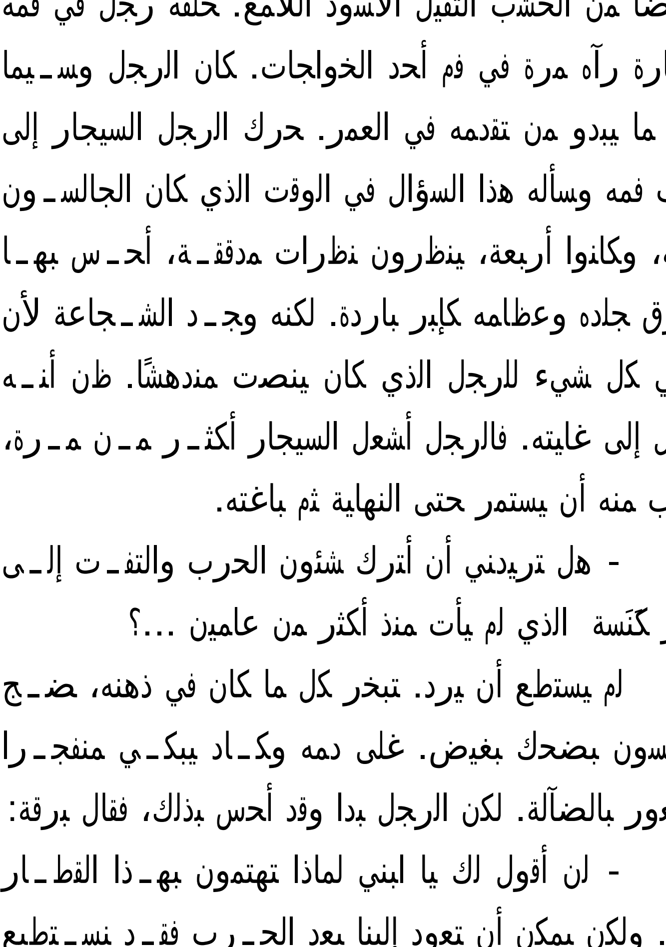
- أين مكتب الكبير ...؟

- أي كبير ...؟ تقصد المدير العام ...؟

سأل علي مرتبكًا وأجاب الشرطي مندهشًا. هز علي رأسه بالإيجاب، وقرر أن لا يتحدث أكثر من ذلك فهو لا بد يخطئ في الحديث. أشار الجندي إلى أعلى بلا مبالاة، وبـدا كأنه يهش ذبابة بيده. تركه علي ودلف من البـاب الواسـع. أحس بالجو رطبا. فكر أن الجو بالخارج كان جحيما وهو لا يدري. ثم وقف متحيرا في الردهة الواسعة المعتمـة قلـيلاً. كانت الردهة تفضي إلى طرقتين طويلتين عن يمينه ويساره. في نهاية كل منهما سلم خشـبي عـريض، درجاتـه مـن العوارض المسيجة بالحديد. تماما مثل سـلم البلـوك. كـان بعض الرجال يمرون من خلفه وأمامه في سـرعة طائشـة. بعضهم كان يحمل أوراقًا تحت إبطه أو في يده. أدهشه أنـه رأى أحدهم يضع صفارة في فمه!

جعل يتلفت عله يستأنس وجها يحدثه. كانت الوجـوه كلها جهمة. والملابس كلها خضراء قاتمة تذكره بملابس أبيه والرجال. قال في نفسه لعل عمال السكة الحديد كلهم يرتدون هذه البذات الخضراء. قرر أن يدخل أو حجرة عن يمينـه، تلك التي يسمع أصواتًا تصدر منها وضحكات.

- من أنت يا ابني ...؟



كان قد دخل من باب الحجرة فـرأى أمامـه مكتبـا عريضا من الخشب الثقيل الأسود اللامع. خلفه رجل في فمه سيجارة رآه مرة في فم أحد الخواجات. كان الرجل وسـيما رغم ما يبدو من تقدمه في العمر. حرك الرجل السيجار إلى جانب فمه وسأله هذا السؤال في الوقت الذي كان الجالسـون حوله، وكانوا أربعة، ينظرون نظرات مدققـة، أحـس بهـا تخترق جلده وعظامه كإبر باردة. لكنه وجـد الشـجاعة لأن يحكي كل شيء للرجل الذي كان ينصت مندهشًا. ظن أنـه وصل إلى غايته. فالرجل أشعل السيجار أكثـر مـن مـرة، وطلب منه أن يستمر حتى النهاية ثم باغته.

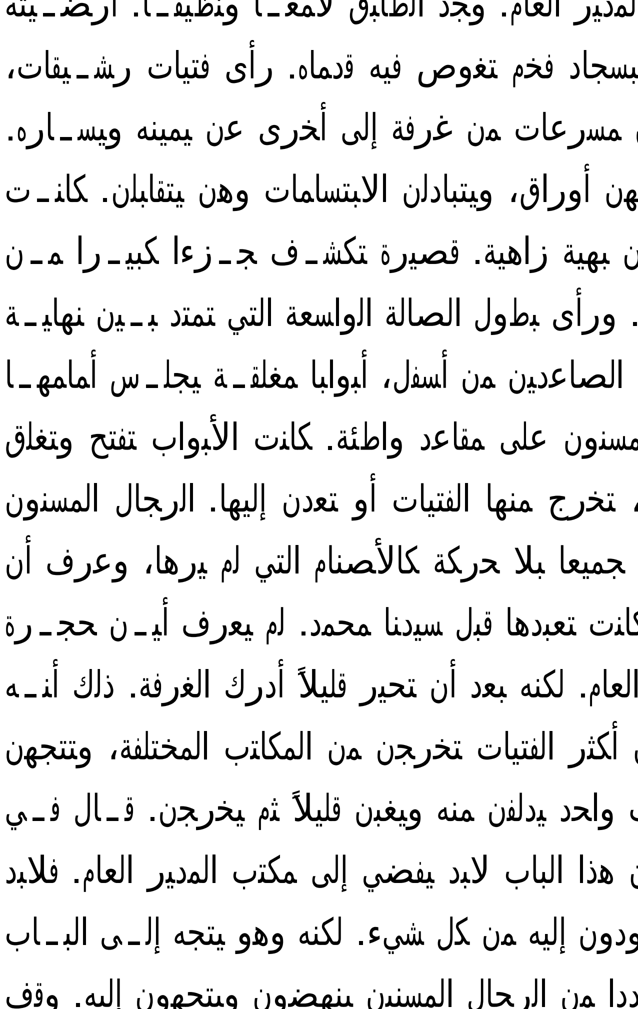
- هل تريدني أن أترك شئون الحرب والتفـت إلـى قطار كَنَسة الذي لم يأت منذ أكثر من عامين ...؟

لم يستطع أن يرد. تبخر كل ما كان في ذهنه، ضـج الجالسون بضحك بغيض. غلى دمه وكـاد يبكـي منفجـرا بالشعور بالضآلة. لكن الرجل بدا وقد أحس بذلك، فقال برقة:

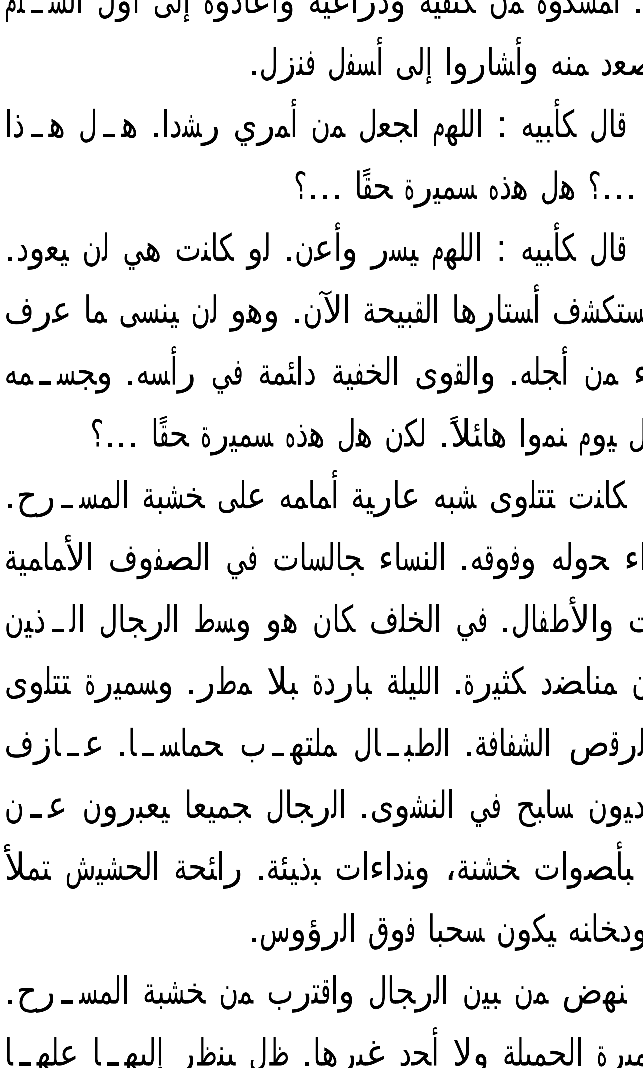
- لن أقول لك يا ابني لماذا تهتمون بهـذا القطـار هكذا. ولكن يمكن أن تعود إلينا بعد الحـرب فقـد نسـتطيع

مساعدتكم – ثم صمت برهة – ألا يوجد يا ابني شخص كبير عندكم ...؟ رجل يعني بدلاً منك ...؟

انتظر في تلك الليلة صعود الشاب وزملائه إلى السطح فلم يحدث. تذكر أن المرأة البدينة لم تحدثه بكلمة بعد عودته. أدرك أكثر من أي وقت أن ما سيجده حين يعود لن يدهشه. لقد كانت رحلته إلى مقر الهندسة على غير ما توقع. فبعد أن خرج من المكتب الأول قرر أن لا ينصرف قبل أن يصل إلى حل. دلف إلى مكتب آخر فأشار له الموظف الجالس بيده إلى المكتب المجاور دون أن يسمعه أو يعرف منه شيئًا. في المكتب الثالث وجد ثلاثة رجال تسبقهم نظاراتهم اللامعة، يبسطون أوراقًا عريضة فوق منضدة واسعة، وفي أيديهم عصي طويلة يشيرون بأطرافها فوق الورق ويتحدثون همسا. كانت قمصانهم بيضاء لامعة وسراويلهم منضبطة عليهم. أرهبته العصي الطويلة وخرج إلى غرفة أخرى. وجد بها رجلاً يشرب شايا ويدخن سيجارة. حكى له الحكاية كلها والرجل صامت. في النهاية قدم له الرجل كوبا من الشاي فرفضه وخرج. صعد الطابق الثاني متذكرا أن الشرطي كان قد أشار إلى أعلى حيث



مكتب المدير العام. وجد الطابق لامعا ونظيفًا. أرضيته مغطاة بسجاد فخم تغوص فيه قدماه. رأى فتيات رشيقات، تخطرن مسرعات من غرفة إلى أخرى عن يمينه ويساره. في أيديهن أوراق، ويتبادلن الابتسامات وهن يتقابلن. كانت ملابسهن بهية زاهية. قصيرة تكشف جزءا كبيرا من السيقان. ورأى بطول الصالة الواسعة التي تمتد بين نهاية السلمين الصاعدين من أسفل، أبوابا مغلقة يجلس أمامها رجال مسنون على مقاعد واطئة. كانت الأبواب تفتح وتغلق بسرعة، تخرج منها الفتيات أو تعدن إليها. الرجال المسنون جالسين جميعا بلا حركة كالأصنام التي لم يرها، وعرف أن الناس كانت تعبدها قبل سيدنا محمد. لم يعرف أين حجرة المدير العام. لكنه بعد أن تحير قليلاً أدرك الغرفة. ذلك أنه وجد أن أكثر الفتيات تخرجن من المكاتب المختلفة، وتتجهن إلى باب واحد يدلفن منه ويغبن قليلاً ثم يخرجن. قال في نفسه أن هذا الباب لابد يفضي إلى مكتب المدير العام. فلابد أنهم يعودون إليه من كل شيء. لكنه وهو يتجه إلى الباب رأى عددا من الرجال المسنين ينهضون ويتجهون إليه. وقف



متحيرا. أمسكوه من كتفيه وذراعيه وأعادوه إلى أول السلم الذي صعد منه وأشاروا إلى أسفل فنزل.

قال كأبيه : اللهم اجعل من أمري رشدا. هل هذا معقول ...؟ هل هذه سميرة حقًا ...؟

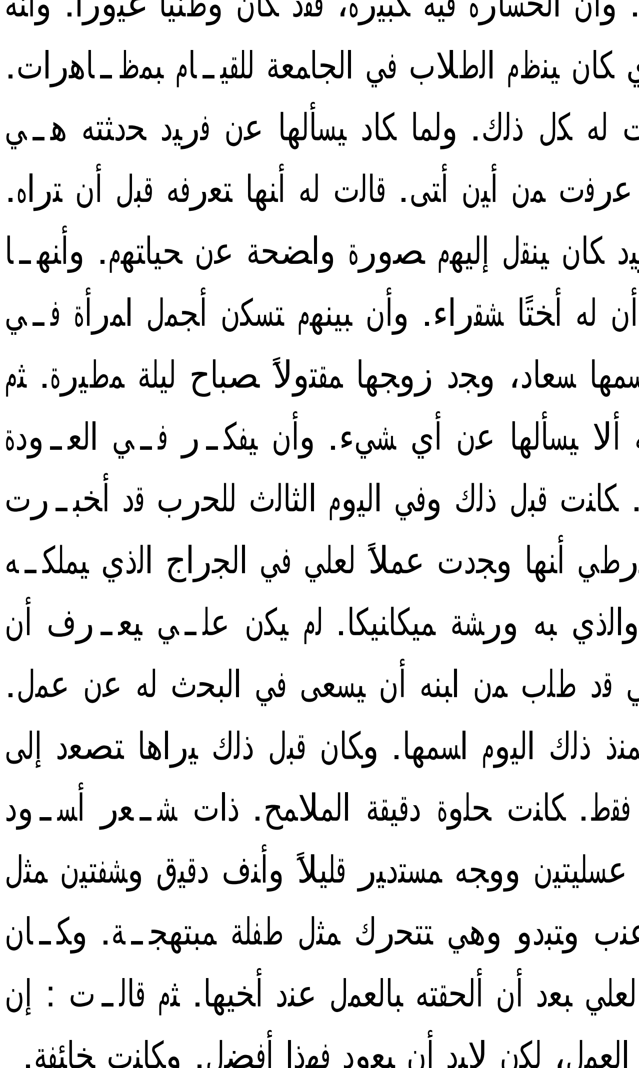
قال كأبيه : اللهم يسر وأعن. لو كانت هي لن يعود. فالدنيا ستكشف أستارها القبيحة الآن. وهو لن ينسى ما عرف أنه جاء من أجله. والقوى الخفية دائمة في رأسه. وجسمه ينمو كل يوم نموا هائلاً. لكن هل هذه سميرة حقًا ...؟

كانت تتلوى شبه عارية أمامه على خشبة المسرح. الأضواء حوله وفوقه. النساء جالسات في الصفوف الأمامية والفتيات والأطفال. في الخلف كان هو وسط الرجال الذين يتحلقون مناضد كثيرة. الليلة باردة بلا مطر. وسميرة تتلوى ببدلة الرقص الشفافة. الطبال ملتهب حماسا. عازف الأكورديون سابح في النشوى. الرجال جميعا يعبرون عن متعتهم بأصوات خشنة، ونداءات بذيئة. رائحة الحشيش تملأ الجو، ودخانه يكون سحبا فوق الرؤوس.

نهض من بين الرجال واقترب من خشبة المسرح. إنها سميرة الجميلة ولا أحد غيرها. ظل ينظر إليها علها

تنتبه له. قرر أن يحادثها في النهاية. لكنها بعد أن انتهت، ولم تكن قد انتبهت إليه، داف خلف السرادق حيث أقيمت غرفة للفرقة. غابت قليلاً بينما كان هو قد انتقل ليقف على باب الغرفة ينتظرها. حين خرجت كان حولها الطبال وعازف الأكورديون. كانت في يدها حقيبة صغيرة سوداء ذات سلسلة معدنية مذهبة. رأى على وجهها أصباغًا ثقيلة. هتف: "سميرة" لكن خرج الصوت مختنقًا، ولم تنظر إليه. فقط رشقه الطبال بنظرة غضب. رآها تتجه إلى تاكسي قريب كان فيما يبدو ينتظرها. رأى الطبال وعازف الأكورديون يركبان خلفها. رأى على المقعد الأمامي جوار السائق عجوزا قبيحة جدا. اختفى التاكسي في الشوارع الضيقة.

ظل واقفًا في مكانه للحظات يسأل نفسه هل تدور الأرض حقًا كما سمع الشيخ مسعود يقول ذات مرة ...؟ أم تدور الشمس كما تقول أمه دائما ...؟ لقد انتهت الحرب بعد أيام قليلة، وعرف القصة كلها. قالت له صفاء أن الشباب استطاعوا أن يجبروا الدولة أن تحارب. قالت بعد ذلك أن ابن الشرطي قد استشهد بعد أن التحق بفرقة المقاومة


الشعبية. وأن الخسارة فيه كبيرة، فقد كان وطنيا غيورا. وأنه هو الذي كان ينظم الطلاب في الجامعة للقيام بمظاهرات. وشرحت له كل ذلك. ولما كاد يسألها عن فريد حدثته هي بعد أن عرفت من أين أتى. قالت له أنها تعرفه قبل أن تراه. وأن فريد كان ينقل إليهم صورة واضحة عن حياتهم. وأنها تعرف أن له أختًا شقراء. وأن بينهم تسكن أجمل امرأة في الدنيا اسمها سعاد، وجد زوجها مقتولاً صباح ليلة مطيرة. ثم قالت له ألا يسألها عن أي شيء. وأن يفكر في العودة بسرعة. كانت قبل ذلك وفي اليوم الثالث للحرب قد أخبرت ابن الشرطي أنها وجدت عملاً لعلي في الجراج الذي يملكه أخوها والذي به ورشة ميكانيكا. لم يكن علي يعرف أن الشرطي قد طلب من ابنه أن يسعى في البحث له عن عمل. عرف منذ ذلك اليوم اسمها. وكان قبل ذلك يراها تصعد إلى السطح فقط. كانت حلوة دقيقة الملامح. ذات شعر أسود وعينين عسليتين ووجه مستدير قليلاً وأنف دقيق وشفتين مثل حبتي عنب وتبدو وهي تتحرك مثل طفلة مبتهجة. وكان حديثها لعلي بعد أن ألحقته بالعمل عند أخيها. ثم قالت : إن هذا هو العمل، لكن لابد أن يعود فهذا أفضل. وكانت خائفة.

زارت صفاء بعد ذلك أخاها بالورشة أكثر من مرة. في كل منها كان علي هو الذي يقدم إليها الشاي. كانت تسمح له بالجلوس معها في المكتب خلف الجراج الكبيـر. سـمعها توصي أخاها الذي كان في سن الأب أن يعلمـه الميكانيكـا. ودائما كانت تقول له أن علي لن يظل في الجـراج طـويلاً. حاول هو أكثر من مرة أن يسألها لماذا استحق فريد ما حدث له لكنه عجز. وفي إحدى المرات كاد ينطق لكنه لمح دمعـة تترقرق في عينيها ...! قالت : لم يكن فريد مخلصا دائما..

ظل طوال الشهور الستة التي انقضـت يحـاول أن يصل إلى إجابة في مبنى هندسة السكة الحديدي. لكن كـان دائما يتكرر معه ما حدث أول مرة. بعد الحرب قال له نفس الرجل الأول أنهم يعيدون ترتيب القطارات، بعدها ينظـرون في أمرهم.

ظل على أمل واهٍ، ويدرك أنه أمل واهٍ. يسأل نفسـه ما شأن القطارات بالحرب التي حدثت بعيدا جدا، في الوقت الذي تقدم فيه في فهم الميكانيكا فقرر أن يفهم أكثر. صارت السينما هي ملاذه حين يضيق صدره، فجعل كل مساء يتـوه في خيالاتها. ثم يعود لينام في الجراج، وهو يشعر أن القوى

الخفية تدوم في خلايا مخه، حتى اصطحبه زملاؤه بعد هـذه الشهور الستة، إلى هذا العرس الذي رأى فيه سميرة ترقص، فطار منه العقل، وتاق لرؤية صفاء وسؤالها عله يجد إجابة. هل يمكن أن يقول لسميرة لماذا لا تذهب وتبحث عن مرسي فيحدث كل هذا ...؟ تذكر عبد ا أبا سميرة وهو يسير رفيع العنق عالي حدبة الظهر، حاملاً المقطف العالي المعلق فـي العتلة فوق كتفه، مرتديا الزي الأخضر القاتم المرتـق فـي أكثر من مكان. لقد خرج بعد اختفاء سميرة ولم يعد قبـل أن يغادر هو المنطقة. وبالتأكيد لم يعد حتـى الآن. فهـا هـي سميرة الجميلة حقًا أمامه راقصة بالمدينة الغريبة.

قرر أن يحضر كل الأعراس التي يسـمع عنهـا أو يراها عله يجد سميرة مرة أخرى ويحدثها. لو نظرت إليـه ستعرفه. لا يمكن أن تنسى آخر مرة التقيا فيهـا، وتخيلتـه مرسي خطيبها المسفر فوق القطارات. والذي سأل عنه فـي أحد مكاتب الهندسة فلم يصل إليه. قال له الرجل الذي لديـه كشوف أسماء العاملين جميعا : "أنت تسأل عن وهم. شـاب اسمه مرسي يعمل مسافرا فوق القطارات ...؟! هـذه مهنـة مؤقتة. فالمستقر قد يعمل عملاً آخر. ثم إنك لا تعرف الاسم

كاملاً. وهناك مئات باسم مرسي. ثم صمت قليلاً وقال : يـا ولدي أنت أسئلتك غريبة وحكاياتك عجيبة!". وفي مرة أخرى قال له : "صرت تتردد أكثر مما ينبغي حتى صرت معروفًا ومشبوها، وأخشى عليك بعد ذلك".

صارت المدينة مشغولة بأحاديث غريبة. فهناك سخط وهناك تأييد. بعض الناس يقولون لماذا كانـت الحـرب إذا كانوا سيأتون هنا ...؟ وآخرون يقولـون أنهـم شـاهدوهم يمشون في أماكن مختلفة من المدينة يشـربون البيبسـي أو يلحسون الجلاس في عز البرد. وعرف أن تلك المخلوقـات التي عاشت تهدد الدولة قد ظهرت في المدن. وأن الأعـداء تصالحوا على دم الشهداء. فأدرك أن ما قالته صـفاء عـن ضرورة عودته في أسرع وقت هام لكن كيف، وماذا ...؟

لكنه فكر إذا كانت فعلاً حدثت حروب كثيرة مـات فيها شهداء كثيرون فكيف تنقلب الأمور بهذه السـرعة ...؟ إن صبيا كان يعتدى على المنطقة التي يصطاد فيهـا كـان يتشاجر معه ويضربه، ويظلان متخاصمين. فما بالك إذا كان في الأمر دم سال ...؟ اقتنع أنه لا قِبل له بما يحدث حولـه وأن ما قالته صفاء ضروري ولكن كيف ...؟!

عرف أن صفاء غادرت المدينة مع والـدها الـذي انتقل للعمل بمدينة أخرى. وظلت كلماتها في آخر مرة حين قالت له أن يعود فيدرك أهله تتردد في أذنيه كأنهـا عالقـة بهما. لكن من جديد، كيف ...؟

كان بين أهله فلم يدركهم، وأحس ببعض المقت لهم. جاء هنا فلم يدركهم أيضا. تضايقه القوى الخفية التي لا تريد أن تنزاح عنه. ويضايقه كبر جسمه على هذا النحو.

صار الآن مثل شاب في الخامسة والعشرين يحـس بطاقات كثيرة تغلي في عروقه. كره السـينما لأن صـورها العارية تثير فيه غرائز قوية لا قبل له بكبحها. خاصة حـين يعود لينام وحده ليلاً في الجراج المعتم. وهـو لا يريـد أن تزكم أنفه الرائحة الكثيفة التي كانت تتسلل إليه من سـرواله منذ أكثر من عامين مرة أخرى. وبالسينما أيضا راقصـات كثيرات يرددن ذهنه إلى سميرة التي اختفت ولم يعد يعـرف كيف يجدها.

لكنه سمع العاملين بالجراج يتحدثون ذات صباح عن راقصة تملأ المدينة اسمها "نانا". وعن السرادقات التي تقـام

في الخرابات وعلى الشاطئ تقدم ألعاب السيرك والبهلوانات وألعاب القمار. وأن "نانا" هذه تقدم نمرها في كل مكان.

قرر أن يذهب ليرى هذه الراقصة وفي داخله يقـين أنها سميرة. وأنه قد فشل تماما في الوصول إلى شيء عـن القطار في مبنى الهندسة، فلابد سيصل إلى سميرة الجميلـة ويعود بها. بعدها سينفض يده من الأمر كله. وهذه المدينـة سيتركها. ولن يهمه أن يتصالح الأعداء على دم أو فوق ماء!

صار يدخل كل مساء أكبر قدر من السرادقات. يرى على واجهة السرادق صورة قبيحة لراقصة تتـأود، وجههـا قريب الشبه بوجه سميرة لولا أنه يشع بذاءة. إنه لن ينسـى وجه سميرة البريء كوجه طفلة أبدا. تحت الصورة مانشـت ضخم يعلن عن الراقصة النارية "نانا زمبلك". يدخل السرادق الذي يقف أمامه باعة لكل شيء. وأصحاب ألعاب لم يرهـا من قبل. ألعاب نارية وورق وقذف أثقال ورمايـة. يفـض الزحام بيديه ويوسع لنفسه طريقـًا. يرى وجوهـا غريبـة شوهاء لبشر سود وبيض. ونسـاء متشـحات وسـافرات، والأصباغ تعلو وجوههن بطريقة مقززة. فوق خشبة المسرح رجل يعلن عن الساحر ثم البهلوان ثم عن الراقصة الناريـة.

تظهر سميرة ترقص بقرف شديد وهو ينظر إليها يكاد يبكي. حين تخرج يجري على الباب عله يحدثها. لكنها الآن صارت تخرج محاطة بالطبال وعازف الأكورديون، ومعهما اثنـان يبدو أنهما حارسان خصوصيان، قويان يستطيعان الفتك بمائة رجل. يترك السرادق ويذهب إلى آخر. يحدث نفس الشيء.

ظل ليال كثيرة يفعل ذلك، وكل ليلة حتى الفجر. لـم يفز إلا بعناوين اللافتات التي صار يحفظها. والتي تعلن عن الراقصة النارية، والراقصة البهلوانية، وراقصة كل ليلة، نانا زمبلك وكبريت وهواء وكهرباء ونحو ذلك. بعد أن أمضـى حوالي شهرين في هذه المطاردة الخائبة، اكتشف أنه نسـى كل شيء عن أهله وعشيرته، فقرر للمرة الأخيرة أن يحدث سميرة ولو كلفه ذلك حياته، وبالفعل استطاع. رآها تخـرج من أحد السرادقات فتوجه إليها كطلقة نارية. أمسك بذراعها ولم يدر ما حدث بعد ذلك أو كيف ...؟

وحتى الآن، بعد انقضاء عام كامل، وقـد قـرر أن يعود في الصباح، والجراج يتسع أمامه متوحشًا في هذه الليلة الصيفية التي تجمعت فيها حرارة ورطوبـة السـنين كلهـا، والعربات الواقفة أمامه تبدو مثل قبور مهدمة. حتـى الآن لا

يعرف هل كانت الضحكة الطويلة الممدودة الرفيعة العميقـة التي انقذفت إلى أحشائه كسكين ثملة، ضحكة سميرة حقًّـا أم لا ...؟

هل كانت سميرة التي ضحكت أم أن شيطانًا داعـرا تلبسها ...؟ حتى الآن لا يذكر صورة لما حدث إلا كصـور أفلام العصابات. حين تحدث معركة سـريعة تطيـر فيهـا الأجساد بطريقة محكمة، وتنتهي في ثوان مختلفـة وراءهـا قتلى وجرحى. ثم يقف بطل الرواية سليما معافى ويتقدم إلى الأمام معيدا ترتيب ثيابه في أناقة، ويقبل الفاتنة الحسناء.

لكنه في تلك الليلة لم يرتب ثيابـه ولا قبـل الفاتنـة الحسناء. فما كاد يمسك بذراعها حتى هجم عليه الشخصـان القويان. أسرع من الخفاش طار في الهواء، وضرب أحدهما بقدميه والآخر بيديه معا في وقت واحد فسقطا فوق الأرض فاقدي الوعي. وقف ينظر إليهما والنار تطير من عينيه، ولا يكاد يصدق أنه هو الذي فعل ذلك. الذي ينظر إليـه حـين هجما عليه كان يرى أنه ميت لا محالة، فجسمه الـذي نمـا نموا هائلاً لا يضاهي نصف جسم أي منهما. وهو لا يعرف من أين واتته هذه السرعة في الحركة. ولا كيف استطاع أن

يتفوق عليهما. وقف عازف الأكورديون والطبال مبهـوتين وقد تملكهما الخوف، فرفع كل منهما آلته أمام وجهه يحتمي بها. لكنه قد أدرك ما يريده بالضبط. أسـرع إلـى سـميرة وأمسك بذراعها فصرخت إذ أحست أن ذراعها تكاد تنفصـم تحت أصابعه. كان يعرف أن الزحام الشديد أمام السـرادق مركز الإبصار عليه، وكان يتوقع هجوما مـن كـل جهـة، فصار متحفزا كله. لكنه وجد نفسه يقول لها بألم بالغ :

- أنت سميرة. ألا تذكريني ...؟ أنا علي أخو ليلى.

لكن سميرة نظرت إليه من أعلى إلى أسفل. وكان قد ترك ذراعها فتنفست. بدا أنهـا تتـذكره. راحـت عيناهـا تترقرقان بدمع شفيف. ثم انطلقت في ضحكة فاجرة طويلـة رفيعة عميقة كسكين ثملة تلوت في أحشائه. وتركته واقفًا لا يعرف ماذا يفعل ...؟

غير أنه بعد ساعة، وجد نفسه يدق بعنف باب بيـت أحد زملائه من العاملين في الجراج. حينما خرج له زميلـه قال بسرعة وحدة :

- ارتد ثيابك فورا.

- ماذا جرى ...؟

- ستعرف في الطريق.

أحس بالذل والتفاهة. كان غاضبا. وكان مشتاقًا. قال لزميله في الطريق:

- المرأة التي حدثتني عنهـا كثيـرا هـل نجـدها الآن ...؟

قهقه زميله مندهشًا. فطالما عرض عليه أن يـذهب معه إلى هذه المرأة التي حدثه عنها كثيرا، لكنه كان دائمـا يرفض.

أخذه الزميل إلى شارع ضيق بعد أن استقلا تاكسـيا قطع بهما مسافة وأنزلهما على شاطئ البحر عنـد الطـرف الشرقي للمدينة. كانت البيوت على جانبي الشـارع الضـيق مغلقة. والوقت بعد منتصف الليل بساعتين. أسلمهما الشارع الضيق إلى حارة أضيق، قذرة امتلأت أرضها بمصاصـات القصب والبراز الذي تصعد رائحته إليهما. عند باب واسـع أكثر مما ينبغي دخلا. وضع زميله سبابته على شفتيه إشارة له أن لا يصدر صوتًا. صعدا طابقين. عند الطـابق الثالـث الذي كان مظلما جدا توقف على مقطـوع الأنفـاس يشـعر

بالعرق يغطي جسمه، وبشعر رأسه يقف مثل شوك القنفـذ، بينما جعل زميله يطرق الباب ثلاث طرقات خفيفة.

بعد لحظات أضيئت لمبة صغيرة معلقة أعلى البـاب من الخارج. فُتحت الشراعة وأطل منها وجه عجوز متلفحـة بشال أبيض. أشار لها زميله إشارة متفق عليها ففتحت الباب بهدوء. دخل وعلي خلفه.

وكأنما قرر شيء ما في الكون أن يواجه بكل شـيء مرة واحدة، بدا كأن القوى الخفية التي دوت في رأسه ومـا تزال، ودفعته إلى مدينة يجهلها، قد قررت أن تكشف له عن المستور كله.

في تلك اللحظات ما كان يريد غير أن يدفن غضـبه في ساعة هروب عقيمة. وكان قد نسـى تمامـا أن المكـان الوحيد الذي يمكن أن يجد عنده حلاً، هـو هندسـة السـكة الحديد، لم يصل فيه إلى شيء. إن سميرة التي ملأت المدينة قد سخرت منه، ولم يستطع أن يعود بها فيكسر دائرة الزمن الجهنمية. وصفاء التي أضاءت ذهنه رحلت، ولم تتم حديثها الذي كم ود لو اكتمل، بينما كادت سعاد أن تمحي من ذاكرته تماما، وأحس وهو جالس في الردهة يتطلـع إلـى المقاعـد

العريضة المغطاة بقماش مورد حالت ألوانه، وإلى المناضد الصغيرة في الأركان فوقها أكياس قطن وزجاجات صغيرة لا يعرف ما بها، أن هناك إصرارا في الكون على سحقه.

كانت العجوز المتشحة بالبياض قد دخلت حجرة مواجهة وعادت بعد لحظات فقدمت لهما سجائر وهي تقول: "قليلاً وسيخرج الزبون. لقد تأخرتما كثيرا...!"

دخن لأول مرة في حياته، ود لو أكل السيجارة وابتلعها، لم يغب عن ذهنه أن الكون مصمم على سحقه. وخرج الزبون الذي رآه رجلاً أسود ضخما ذكره وجهه المليء بالحفر بوجه زيدان الذي لا يعرف أين وصل الآن. وبعد لحظات قليلة يئس خلالها من كل شيء، ولم يعد يشعر حتى بوجود زميله جواره، خرجت إليهما زينب زوجة حامد!

إنها زينب ولا أحد غيرها. يعرفها جيدا وإلا ما دب النمل في ساقيه، وما اضطرب قلبه. زينب التي ما رآها إلا محتشمة فوقها تل من الثياب، وفي ذيل جلبابها تعلق أطفالها الثلاثة ومخاطهم سائل حتى صدورهم. ترتدي الآن قميص نوم أبيض يفضح جسدها البرونزي. يقف زميله لاستقبالها ويبتسم وهو يقول أنه جاء من أجله، يعني علي، وأنه يتركه

لها. ثم يقول متخابثا أنه غشيم! ويقهقه بينما تبتسم زينب وهو محترق الصدر والرأس، يشعر أن شخصا فتح رأسه وقلـب داخله فحم الفواريكة كله.

انصرف زميله وظلت هي واقفة أمامه متعجبة لأمره إذ وضع رأسه بين كفيه، وأطرق ناظرا إلى الأرض من بين ركبتيه.

كان يحس بالعجوز وهي تقف بعيدا أمام باب إحدى الحجرات تنظر إليهما في دهشة، ويفكـر أن زينـب قـد لا تعرفه أبدا. إن جسمه هذا الذي نما نموا هائلاً لا شـك أمـر مضلل. أما وجهه الذي لم يره في المرآة منذ شـهور، فلـن يختلف عن جسمه بالتأكيد.

جست زينب فوق الأرض باسمة متحيرة قليلاً. كانت جميلة تبدو كمصباح صغير شاحب في ليلة مظلمة. قال :

- كيف حالك يا زينب ...؟

اضطربت. قالت : بهدوء.

- ماذا تقول.

رفع وجهه ونظر إليها نظرة طويلة ثابتة. قال :

- كيف حالك يا زينب. ألست زينب ...؟

أخذت شفتاها في الارتعاش. لم تستطع أن تسـيطر عليهما. أشارت للعجوز أن تدخل لم ينتظر أن تتكلم. قال :

- انظري إلى وجهي جيدا.

نظرت.

وحدثته كثيرا بعد ذلك. كان طـوال حـديثها يـردد لنفسه: "أي روح شريرة تلبستنا جميعا ...؟". قالت له أنه قد كبر كثيرا كأن أعواما طويلة قد مرت ولا أحد يدري. فقـال لها دون إرادة أنه قد شاخ وانتهى. وبكت في النهاية.

أخذته بعد ذلك إلى حجرة مغلقة. حين فتحتهـا رأى أمام جابر العجوز متكومة في ركن والأطفال الثلاثـة فـي ركن. قالت أنها – العجوز – صارت تخرف ولا تتحـرك، وتبول على نفسها وتطلب الموت الذي لا يجيء. تقـول إن جابر خدعها وناداها وهي توشـك أن تغـرق فقـررت أن تنتظره لكنه لم يأت.

لم يكن علي يعرف أن أم جابر قد غادرت المنطقـة هي أيضا. سألها كيف جاءت إلى هنا، فقالت لـه أن الـذي أحضرها هو الذي عاد وأحضر أم جابر والأطفال. وجـدهم فوق الجسر نائمين جوار خص مهجور. سألها عن ذلك الذي

أحضرهم، فقالت له المهم الآن أن تراه كثيرا فهـو رائحـة طيبة من الماضي الجميل!

خرج ساخطًا. قال يا ربي لماذا حملتني أن أخـرج خلف مالا أعرفه دون العالمين ...؟ وكان أبوه حين ينتهـي من الصلاة يدعو ا قائلا: "اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا". وقال إنه لو كان واظب على الصلاة خلف الشـيخ مسـعود لأسعفته الذاكرة بأدعية كثيرة. فهذا زمن لم يبق لبني آدم فيه غير الدعاء. يصل إلى السماء أو تطيره الرياح! ثـم قـال : "اللهم إن لم تكن لي عونًا فلا تكن على نقمة". وأسرع يمشي في الطرقات.

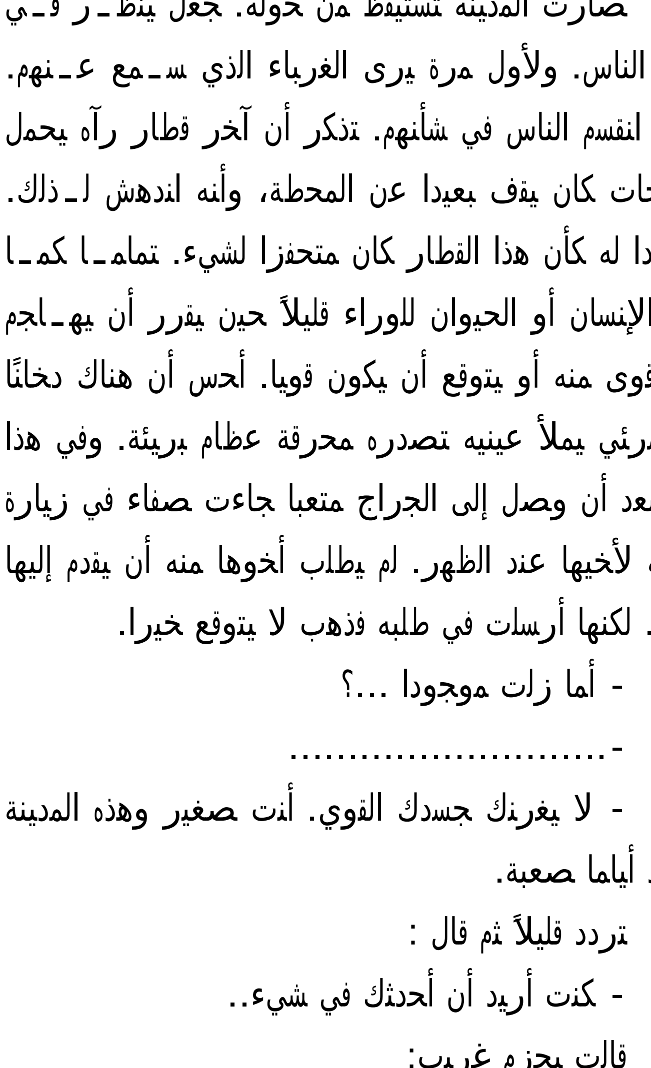
كان الفجر قد مضى، وشابورة كثيفة تغطي المدينـة فأحس كما لو كانت قد انتقلت إلى السماء. تذكر حين يخـرج مبكرا لصيد السمك والشابورة تغلف الدنيا، وهو يتبارى مـع أترابه في من يخرج من فمه مع الزفير بخار ماء أكثر.

حين بدأت موجات البخار تشف، وظهرت له المباني العالية وكادت تملأ عينيه، وكان قد وصل إلى شاطئ البحر، أحس بها تكاد تسقط فوقه. كانت أرض الشارع مبللة. رائحة البحر تملأ أنفه، برد الصباح يكاد يطويه على بعضـه. لـن

صوت الموج الهادر كان داعيا مبهما فخلع ثيابه وهبط إلى البحر. غطس بسرعة في الماء ثم وقف بالقرب من الشاطئ متخشبا يقاوم الارتعاش، نصفه الأسفل تحت الماء والموج يضرب في نصفه الأعلى.

المدينة حوله طويلة منحنية كأنها حضن أم غريبة ...! خلفه وأمامه قوارب كثيرة فارغة متفرقة بلا نظام، وشباك منشورة فوقها، أو على الرمال فوق أعمدة خشبية رفيعة، فتذكر يوم مجيئه، وأول ما قابله من المدينة عند طرفها الغربي. لكنه حين رأى الكورنيش الطويل الممتد منحنيا مع امتداد الشاطئ وخاليا، والبيوت العالية الممتدة بإزائه مغلقة النوافذ، تساءل على أي شيء نامت وعلى أي شيء تنهض هذه المدينة..؟ أحس بالخطايا تملأ الأركان، وتشع من خلاف الجدران، وتمرح في الطرقات تزحم الفضاء الذي خلقه ا   رائقًا نظيفًا ولم يعد يعتني به ...!

غادر الماء وارتدى ثيابه وهو يتساءل متى كان حضن الأم الغريبة حنونًا ...؟ أخذ طريقه إلى الجراج ماشيا رغم بعد المسافة.



صارت المدينة تستيقظ من حوله. جعل ينظـر فـي وجوه الناس. ولأول مرة يرى الغرباء الذي سـمع عـنهم. والذي انقسم الناس في شأنهم. تذكر أن آخر قطار رآه يحمل الخواجات كان يقف بعيدا عن المحطة، وأنه اندهش لـذلك. الآن بدا له كأن هذا القطار كان متحفزا لشيء. تمامـا كمـا يبتعد الإنسان أو الحيوان للوراء قليلاً حين يقرر أن يهـاجم شيئًا أقوى منه أو يتوقع أن يكون قويا. أحس أن هناك دخانًا غير مرئي يملأ عينيه تصدره محرقة عظام بريئة. وفي هذا اليوم بعد أن وصل إلى الجراج متعبا جاءت صفاء في زيارة سريعة لأخيها عند الظهر. لم يطلب أخوها منه أن يقدم إليها الشاي. لكنها أرسلت في طلبه فذهب لا يتوقع خيرا.

- أما زلت موجودا ...؟

-............................

- لا يغرنك جسدك القوي. أنت صغير وهذه المدينة ستشهد أياما صعبة.

تردد قليلاً ثم قال :

- كنت أريد أن أحدثك في شيء..

قالت بحزم غريب:

- لا معنى لأي شيء.

أراد أن يحدثها في أمر سميرة وزينب فسدت الطريق بكلام ملغز. أحس بالالتياع يجتاح صدره، وبالشوق العـارم للأيام القديمة. لكن تبقى له بعض أيام يقضيها يتحـدث مـع زينب.

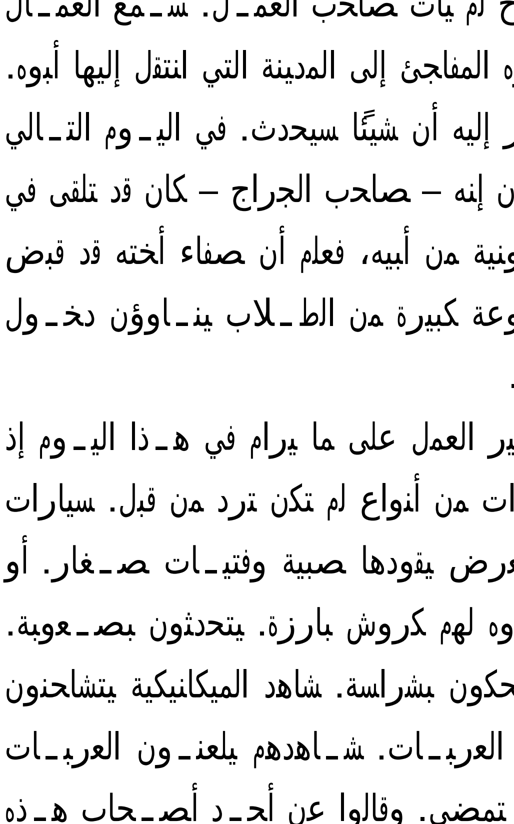
أصبحت حياته في الجراج على وتيرة واحدة، عمـل بالنهار ونوم بالليل. لم يعد يذهب إلى السرادقات التي عرف بعد ذلك أنها أزيلت عن آخرها. وأن الأجانب الذين يفـدون على المدينة بكثرة هذه الأيام، قد استغلوا أماكنها في إقامـة فنادق ضخمة يقول الناس عنها أنها ستكون بيـوت دعـارة لأجمل فتيات العدو القـديم. ويتحـدث الـبعض بسـخرية، الآخرون يتحدثون بشبق، ويقولون أن الشوق قد طال لهـذا النوع من الفتيات والنساء اللاتي كُن يمـلأن المدينـة قبـل دوران السنين. عزف عن حضور الأفراح. وعرف بيقـين قاطع أن سميرة لن تظهر في المدينة مرة أخرى.

زار زينب للمرة الثانية بعد أيام قليلة. حدثها بـأمر سميرة فقالت له : "كثيرا ما يكون الخيال كالحقيقة". وأنها لو كانت سميرة لتحدثت إليه كما فعلت هي. وحين رأته يتلفـت

حوله ليرى أم جابر والأطفال إذ أن الوقت نهار، قالت لـه: "إنهم لا يخرجون من الحجرة". وبكـت وهـي تقـول: "إن الأطفال لم يعودوا يكبرون بينما تتضاءل أم جابر يوما بعـد يوم" .....!

لكنه رأى على وجه زينب صفرة عميقة، وفي عينيها هروب إلى شيء غامض اتضح له في الزورة التاليـة. لقـد وجد العجوز التي فتحت الباب أول مرة ووجد معها امـرأة أخرى. حين سألها عن زينب قالت : "إنها لا تعـرف أحـدا بهذا الاسم". حدثها عن أم جابر والأطفال فقالت : "إنه يخرف بأشياء غريبة". انطلق كمجنون يبحث في الحجرات فلم يجـد إلا ثلاث نساء عاريات قبيحات، وثلاث رجال سود مكتهلين. خرج بعد أن توقف في الردهة قليلاً يكاد ينفجر بالغضب. لم يفعل شيئًا للمرأة الأخرى التي تقدمت نحوه بعهر عارم.

بات تلك الليلة يتساءل أين الحقيقة وأين الخيال ...؟ أين ما قالته زينب التي لم يمسسها ...؟ أين زينب ...؟ جعل يحصي الأيام التي أمضاها في المدينة فوجدها إحدى عشـر شهرا لم ينجز فيها شيئًا، ففكر أنه قد آن أوان الانطلاق.



في الصباح لم يأت صاحب العمل. سمع العمال يتحدثون عن سفره المفاجئ إلى المدينة التي انتقل إليها أبوه. حدس غامض أسر إليه أن شيئًا سيحدث. في اليوم التالي سمع العمال يقولون إنه – صاحب الجراج – كان قد تلقى في منزله مكالمة تليفونية من أبيه، فعلم أن صفاء أخته قد قبض عليها ضمن مجموعة كبيرة من الطلاب يناوؤن دخول الأعداء إلى البلاد.

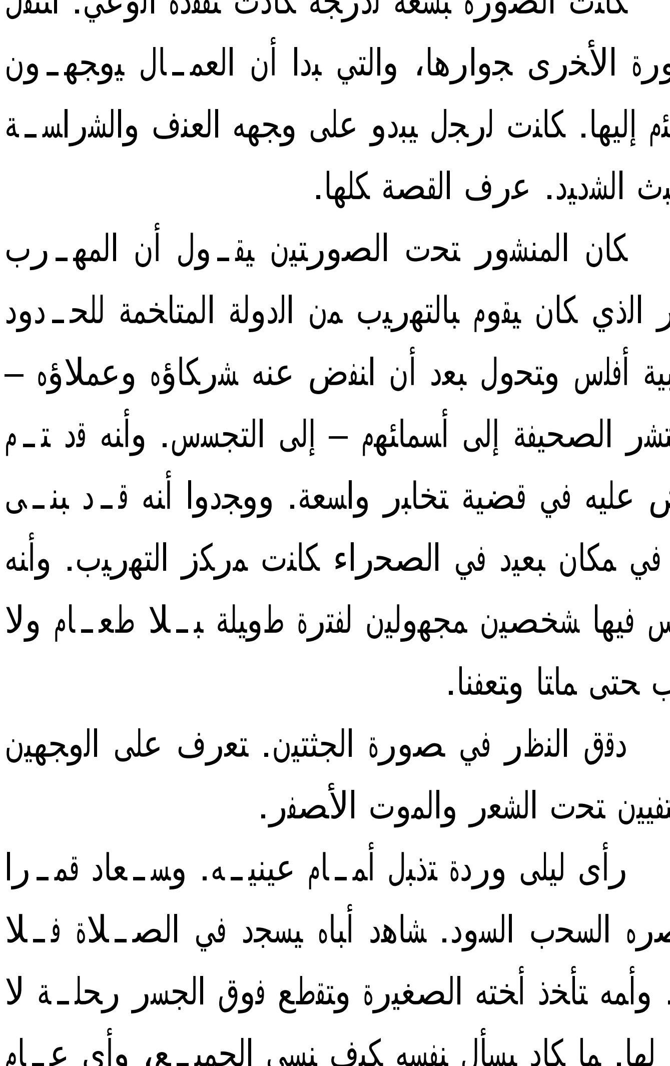
لم يكن سير العمل على ما يرام في هذا اليوم إذ وردت إليهم سيارات من أنواع لم تكن ترد من قبل. سيارات فارهة الطول والعرض يقودها صبية وفتيات صغار. أو رجال قبيحو الوجوه لهم كروش بارزة. يتحدثون بصعوبة. وإذا ضحكوا يضحكون بشراسة. شاهد الميكانيكية يتشاحنون على استقبال هذه العربات. شاهدهم يلعنون العربات وأصحابها بعد أن تمضي. وقالوا عن أحد أصحاب هذه السيارات، وكان يجلس في الخلف ويقود سيارته سائق أسود، إنه بدأ حياته حمالاً في الميناء، ثم استطاع أن يضرب ضربة كبرى في صفقة مخدرات، تحول بعدها إلى تاجر أخشاب في

البلد. والغريب أن معظم هذه السيارات لـم تكـن مصـابة بأعطال ...!

ابتعد هو وقبع في ركن. تذكر فريد فارتعـد خوفًـا على صفاء. فتلك الفتاة الجميلة، صغيرة الجسـم كالفراشـة تتحرك كالعصفور حين يدور قافزا حول "الناطور" الحجري، ويقفز ويتقافز فوقه قبل أن يأكل الطُعم الذي في الفخ المغطى بالتراب، فيطبق عليه الفخ. وأحس بشيء يطبق على قلبه.

قالت له أمه: "إن الطائر لا يقع في الفخ لأنه غبـي، ولكن لأنه يستسلم للجوع. من يستسلم للجوع يفقـد العقـل". فقال لها وكيف إذن يقاوم الجوع ...؟ قالت: "بأن يفكر كيف يأكل ...!" لكنه لم يفهم إلا أن الطائر الجميل يقع في نهايـة الأمر. رأى صفاء تنظر إليه من خلف سور عالٍ، وتناديـه عبر فضاء النهار، قائلة لقد طال الانتظار.

في اليوم التالي وجد كل العاملين متكـومين حـول أحدهم يقرأ لهم من صحيفة والدهشة على وجوههم. سـمعهم يقولون ألفاظًا بذيئة يوجهونها لأحد الأشخاص تظهر صورته في الصحيفة. اقترب منهم ونظر مثلهم فرأى صورة غريبـة لجثتين متجاورتين.



كانت الصورة بشعة لدرجة كادت تفقده الوعي. انتقل للصورة الأخرى جوارها، والتي بدا أن العمال يوجهون الشتائم إليها. كانت لرجل يبدو على وجهه العنف والشراسة والخبث الشديد. عرف القصة كلها.

كان المنشور تحت الصورتين يقول أن المهرب الكبير الذي كان يقوم بالتهريب من الدولة المتاخمة للحدود الغربية أفلس وتحول بعد أن انفض عنه شركاؤه وعملاؤه – ولم تشر الصحيفة إلى أسمائهم – إلى التجسس. وأنه قد تم القبض عليه في قضية تخابر واسعة. ووجدوا أنه قد بنى فيللا في مكان بعيد في الصحراء كانت مركز التهريب. وأنه احتبس فيها شخصين مجهولين لفترة طويلة بلا طعام ولا شراب حتى ماتا وتعفنا.

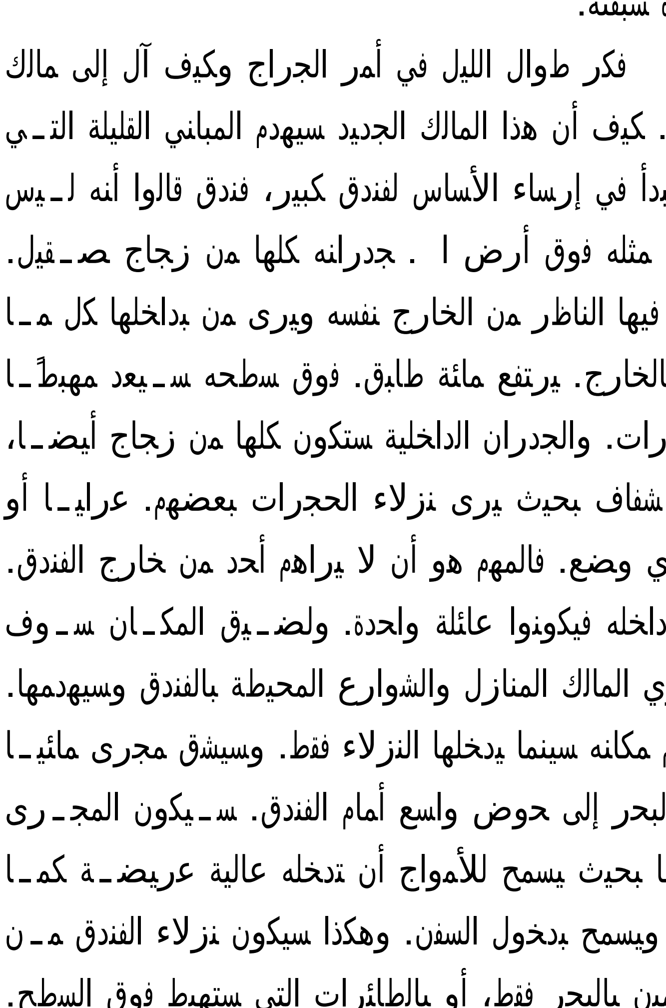
دقق النظر في صورة الجثتين. تعرف على الوجهين المختفيين تحت الشعر والموت الأصفر.

رأى ليلى وردة تذبل أمام عينيه. وسعاد قمرا تحاصره السحب السود. شاهد أباه يسجد في الصلاة فلا يقوم. وأمه تأخذ أخته الصغيرة وتقطع فوق الجسر رحلة لا نهاية لها. ما كاد يسأل نفسه كيف نسى الجميع، وأي عام

قضاه، حتى ملأت عينيه سيارة كاديلاك سوداء وقفت أمامـه تماما. كانت الشمس لاهبة. وكان العام قد دار دورة كاملة.

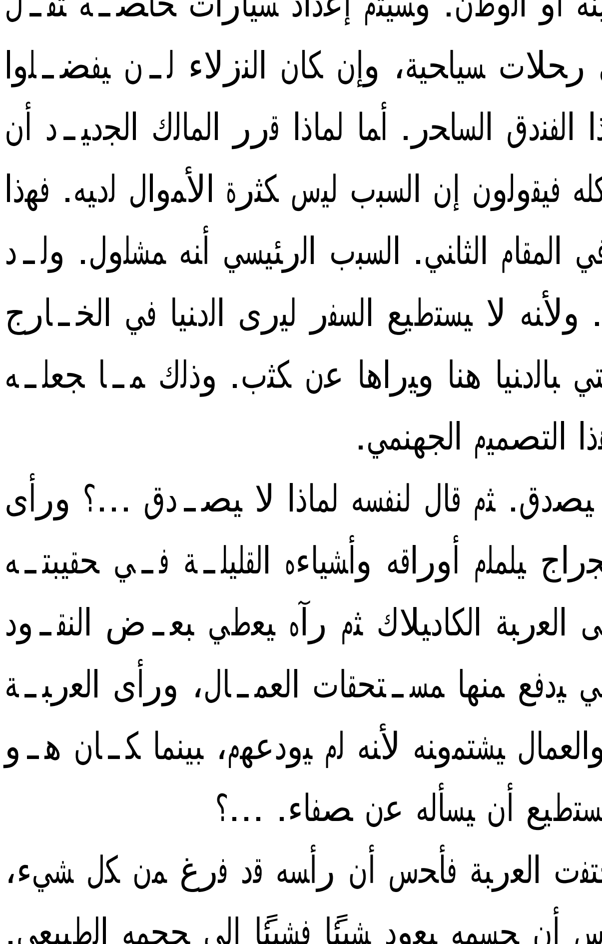
هبط من العربة صاحب الجراج الذي لم ينظر إلـى أحد واتجه مباشرة إلى مكتبه، خلفه رجلان غريبـا الهيئـة. وقف العمال مبهورين وشل المشهد حركتهم وعقد الألسـنة. أما هو ـ علي ـ فقد اتخذ قراره.

أقبل اليوم الذي لم يكن يتصور أنـه سـيأتي. كـان الجراج يتسع أمامه موحشًا في هذه الليلـة الصـيفية التـي تجمعت فيها حرارة ورطوبة السنين كلها ...! وبدت العربات التي ستختفي في الصباح أمامه مثل القبور المهدمة...! وكان ما يزال لا يعرف هل كانت الضحكة الطويلة التي تلوت في أحشائه كسكين ثملة ضحكة سميرة أم لا ...؟ ...! لكن الذي صار يعرفه جيدا أنه لو فتش في أركان المدينة سيجد نعمـة زوجة زيدان وسيجد المفتش وزوجته. ولعله يجـد زيـدان وعبد ا . والذي صار يعرفه جيدا أيضا أن القوى الخفية لم تعد تطن في رأسه. بل صار يحس به فارغًا يكـاد يسـمع داخل صوت الهواء السابح في فجواته. هذه الليلة الأخيـرة، كيف كانت كعام كامل. لا يعرف إحساس الإنسان إذا وضـع



داخل فرن، لكنه يشعر أنه داخل فرن مترب برمـاد عظـام كثيرة سبقته.

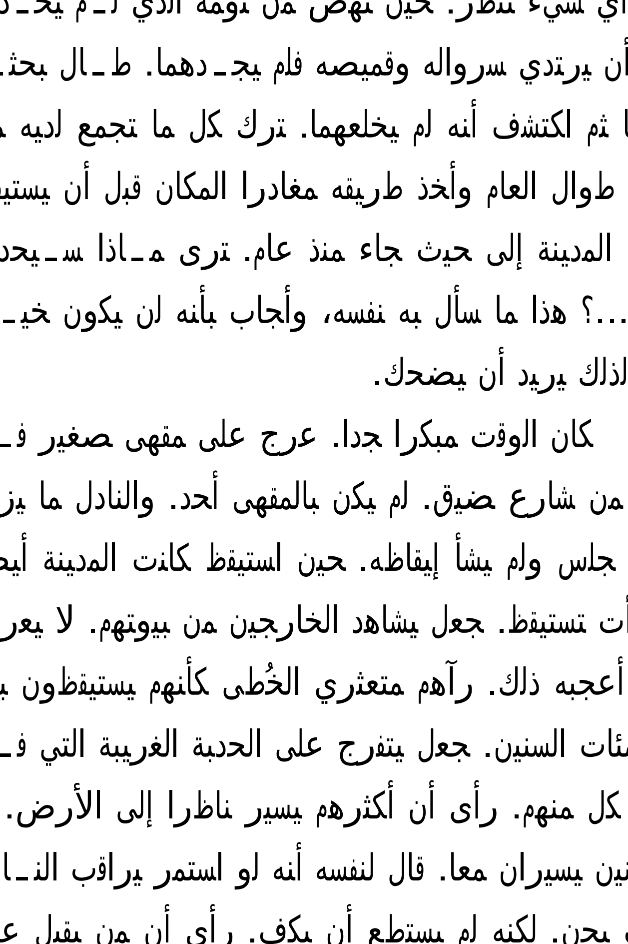
فكر طوال الليل في أمر الجراج وكيف آل إلى مالك جديد. كيف أن هذا المالك الجديد سيهدم المباني القليلة التـي به ليبدأ في إرساء الأساس لفندق كبير، فندق قالوا أنه لـيس هناك مثله فوق أرض ا . جدرانه كلها من زجاج صـقيل. يرى فيها الناظر من الخارج نفسه ويرى من بداخلها كل مـا هو بالخارج. يرتفع مائة طابق. فوق سطحه سـيعد مهبطًـا للطائرات. والجدران الداخلية ستكون كلها من زجاج أيضـا، لكنه شفاف بحيث يرى نزلاء الحجرات بعضهم. عرايـا أو في أي وضع. فالمهم هو أن لا يراهم أحد من خارج الفندق. أما بداخله فيكونوا عائلة واحدة. ولضـيق المكـان سـوف يشتري المالك المنازل والشوارع المحيطة بالفندق وسيهدمها. سيقيم مكانه سينما يدخلها النزلاء فقط. وسيشق مجرى مائيـا من البحر إلى حوض واسع أمام الفندق. سـيكون المجـرى واسعا بحيث يسمح للأمواج أن تدخله عالية عريضـة كمـا هي، ويسمح بدخول السفن. وهكذا سيكون نزلاء الفندق مـن القادمين بالبحر فقط، أو بالطائرات التي ستهبط فوق السطح.



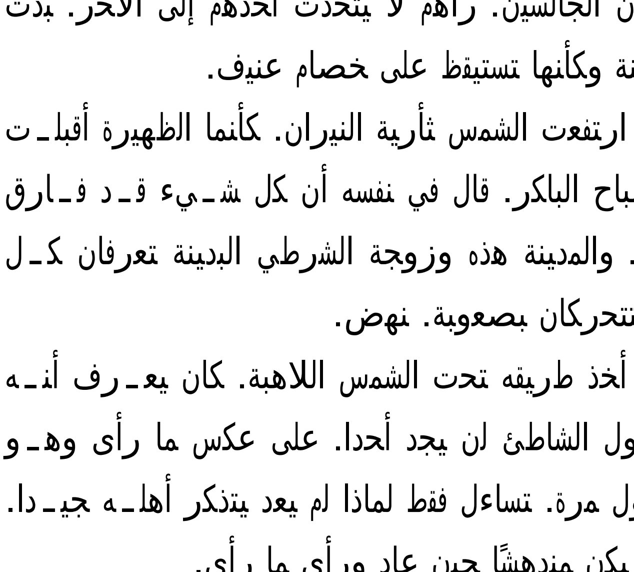
ولن يسمح لأحد أن يأتي بسيارة لأن هذا يعني أنه أتى من داخل المدينة أو الوطن. وسيتم إعداد سيارات خاصة تقل النزلاء في رحلات سياحية، وإن كان النزلاء لن يفضلوا مبارحة هذا الفندق الساحر. أما لماذا قرر المالك الجديد أن يفعل هذا كله فيقولون إن السبب ليس كثرة الأموال لديه. فهذا أمر يأتي في المقام الثاني. السبب الرئيسي أنه مشلول. ولد هكذا قعيدا. ولأنه لا يستطيع السفر ليرى الدنيا في الخارج قرر أن يأتي بالدنيا هنا ويراها عن كثب. وذلك ما جعله يفكر في هذا التصميم الجهنمي.

لم يصدق. ثم قال لنفسه لماذا لا يصدق ...؟ ورأى صاحب الجراج يلملم أوراقه وأشياءه القليلة في حقيبته ويحملها إلى العربة الكاديلاك ثم رآه يعطي بعض النقود للملاحظ كي يدفع منها مستحقات العمال، ورأى العربة تنطلق به والعمال يشتمونه لأنه لم يودعهم، بينما كان هو يفكر هل يستطيع أن يسأله عن صفاء. ...؟

اختفت العربة فأحس أن رأسه قد فرغ من كل شيء، وبالليل أحس أن جسمه يعود شيئًا فشيئًا إلى حجمه الطبيعي. نظر إلى النجوم المتزاحمة في السماء، إلى القمر، وتساءل


على أي شيء تنتظر. حين نهض من نومه الذي لـم يحـدث أراد أن يرتدي سرواله وقميصه فلم يجـدهما. طـال بحثـه عنهما ثم اكتشف أنه لم يخلعهما. ترك كل ما تجمع لديه من أشياء طوال العام وأخذ طريقه مغادرا المكان قبل أن يستيقظ سكان المدينة إلى حيث جاء منذ عام. ترى مـاذا سـيحدث الآن ...؟ هذا ما سأل به نفسه، وأجاب بأنه لن يكون خيـرا أبدا، لذلك يريد أن يضحك.

كان الوقت مبكرا جدا. عرج على مقهى صغير فـي ركن من شارع ضيق. لم يكن بالمقهى أحد. والنادل ما يزال نائما. جلس ولم يشأ إيقاظه. حين استيقظ كانت المدينة أيضا قد بدأت تستيقظ. جعل يشاهد الخارجين من بيوتهم. لا يعرف لماذا أعجبه ذلك. رآهم متعثري الخُطى كأنهم يستيقظون بعد نوم مئات السنين. جعل يتفرج على الحدبة الغريبة التي فـي ظهر كل منهم. رأى أن أكثرهم يسير ناظرا إلى الأرض. لم ير اثنين يسيران معا. قال لنفسه أنه لو استمر يراقب النـاس سوف يجن. لكنه لم يستطع أن يكف. رأى أن من يقبل على المقهى يقف قليلاً ويتلفت حوله أكثر من مرة، ثم يختار مقعدا


بعيدا عن الجالسين. رآهم لا يتحدث أحدهم إلى الآخر. بدت له المدينة وكأنها تستيقظ على خصام عنيف.

ارتفعت الشمس ثأرية النيران. كأنما الظهيرة أقبلت في الصباح الباكر. قال في نفسه أن كل شيء قد فارق الميزان. والمدينة هذه وزوجة الشرطي البدينة تعرفان كل شيء وتتحركان بصعوبة. نهض.

أخذ طريقه تحت الشمس اللاهبة. كان يعرف أنه على طول الشاطئ لن يجد أحدا. على عكس ما رأى وهو قادم لأول مرة. تساءل فقط لماذا لم يعد يتذكر أهله جيدا. لذلك لم يكن مندهشًا حين عاد ورأى ما رأى.

* * * * * *

القيامة

ناظر المحطة

- ماذا ستفعل أنت الآن ...؟

ابتسم ناظر المحطة العجوز ذو العينين الصغيرتين لا يميز لونهما، والشعر الأبـيض والوجـه الأحمـر المـليء بالغضون. وأشار إلى الأريكة.

نظر علي حيث أشار فبادره الرجل.

- هذه المرة لن تطول. فغدا على الأكثر سيأتي شاب من هؤلاء ليحل محلي.

وأشار إلى المنطقة أمـام البحيـرة. إلـى البيـوت المهدمة. بينما كان علي ينظر إلى السلة الكبيـرة المغطـاة بقطعة الشاش الأبيض وتبدو عليه الحيرة. قال ناظر المحطة:

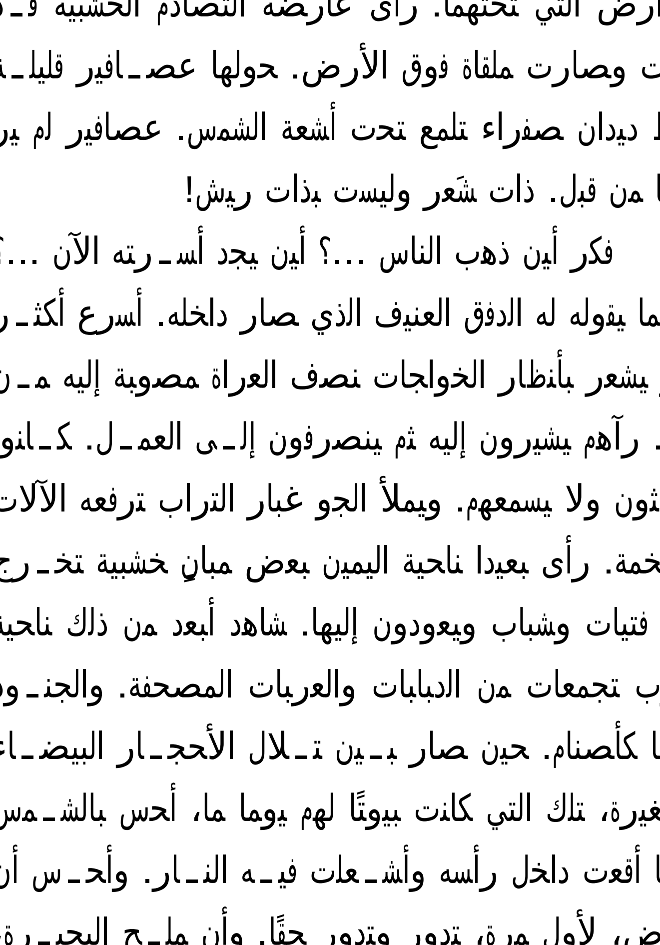
- لا تبتئس. فها هو بائع الروبابكيا يأتي من المدينة بعربته وحماره ويمكن أن يحملكما إليها.

كان علي قد أمضى ليلة أمس مع نـاظر المحطـة. سمع منه خلال الليل ما لن ينساه. كان قد وصل من المدينـة فرأى الشمس تبرح مكانها في منتصف السماء. بدا له أنهـا

مثله تلقي نظرة أخيرة على البيوت التي صـارت مهدمـة. ورأى من بعيد نباتات الحلفاء جامدة لا تتحرك، وهو الـذي كان يعشق هسيسها حين تمر بها نسمة ليل أو ريح نهار.

وقف عند رصيف الحطة ينظر إلى البيـوت التـي صارت أكوام أحجار يرفعها بلدوزر ضـخم، يقـوده شـاب عاري الصدر يلمع جسمه من بعيد، ويلقي بالأحجار في مياه البحيرة. تخيل مئات الأسماك وهـي تمـوت تحـت تـلال الأحجار والتراب. الأسماك التي لا شك قد تكـاثرت طـوال انقطاع الصيد كي يحصدوها يوما إذا انفك الكرب. أدرك من زحام البلدوزرات، ومعـدات وأدوات البنـاء الضـخمة أو الأعداد الكبيرة التي تلمع من الأجساد نصف العارية، أنه لا يجب أن يقترب من هناك. خاصة أنه رأى ثلاثة يمدون سلكًا شائكًا يحاصرون به المنطقة. لكن هل يستطيع أن يمنع الدفق العنيف الذي يتفجر داخله ويكاد يطيره في الفضاء دافعا بـه إلى الاقتراب ...؟.

أسرع يعبر القضيبين الرئيسيين اللذين تمر فوقهمـا القطارات الذاهبة إلى الصحراء والقادمة منها، واللذين كـان يصطاد القنافذ من بينهما. وحين وصل إلى قضيبي القطـار



اللعين، وجدهما حائلين، التويا في أكثر من مكان وارتفعا عن العوارض التي تحتهما. رأى عارضة التصادم الخشبية قد أزيلت وصارت ملقاة فوق الأرض. حولها عصافير قليلة تلتقط ديدان صفراء تلمع تحت أشعة الشمس. عصافير لم ير مثلها من قبل. ذات شَعر وليست بذات ريش!

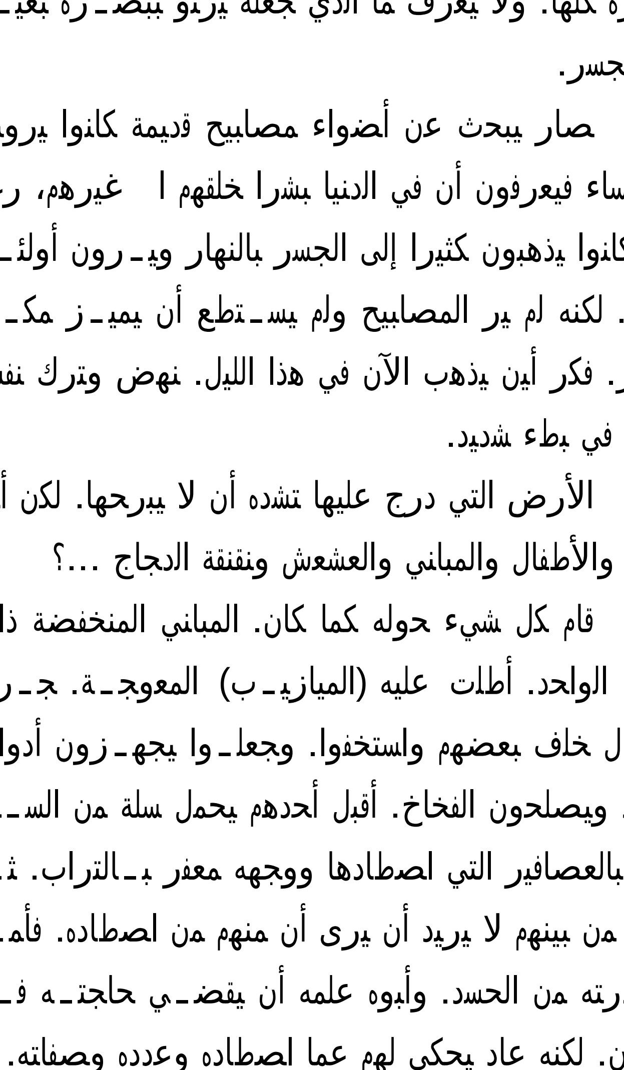
فكر أين ذهب الناس ...؟ أين يجد أسرته الآن ...؟ هذا ما يقوله له الدفق العنيف الذي صار داخله. أسرع أكثر وهو يشعر بأنظار الخواجات نصف العراة مصوبة إليه من بعيد. رآهم يشيرون إليه ثم ينصرفون إلى العمل. كانوا يتحدثون ولا يسمعهم. ويملأ الجو غبار التراب ترفعه الآلات الضخمة. رأى بعيدا ناحية اليمين بعض مبانٍ خشبية تخرج منها فتيات وشباب ويعودون إليها. شاهد أبعد من ذلك ناحية الغرب تجمعات من الدبابات والعربات المصفحة. والجنود فوقها كأصنام. حين صار بين تلال الأحجار البيضاء الصغيرة، تلك التي كانت بيوتًا لهم يوما ما، أحس بالشمس كأنها أقعت داخل رأسه وأشعلت فيه النار. وأحس أن الأرض، لأول مرة، تدور وتدور حقًا. وأن ملح البحيرة،

والبحر الذي هو أكبر منها، هما من دموع النـاس، وسـقط جالسا فوق التراب جامدا كحجر.

ظل طويلاً ساقطًا فوق الأرض. حين أفاق أدرك أن النهار قد انقضى لأنه رأى حوله الظلام. لم يشعر بـالجوع ولا بالعطش. تذكر فقط أن النهار الذي بدا بمدينة متخاصمة، انتهى بماضٍ تبخر.

قرر القيام بعد أن سمع صوت طلقات ناريـة أدرك أنها التي أيقظته. تلفت حوله فوجد صواريخ زاهية الألـوان تطير في الظلام. سمع صوت ضحكات عربيدة، وصرخات عاهرة، قادمة إليه من المباني الخشبية البعيدة. كانت أضواء المباني شديدة فرآهم يرقصون في عنف. حين غمر الأرض ضوء متسع رنا ببصره إلى السماء، فوجد القمر مسرعا في الصعود.

بانت له البحيرة كما عهدها صافية جميلة تلمع علـى سطحها أضواء القمر السارة. لكن شاطئ البحيـرة، وبدايـة مياهها في أكثر من مكان، صار بشعا مـن أكـوام التـراب والأحجار الكثيرة التي ألقيت عليه. فكر أنهم لابد سـيردمون



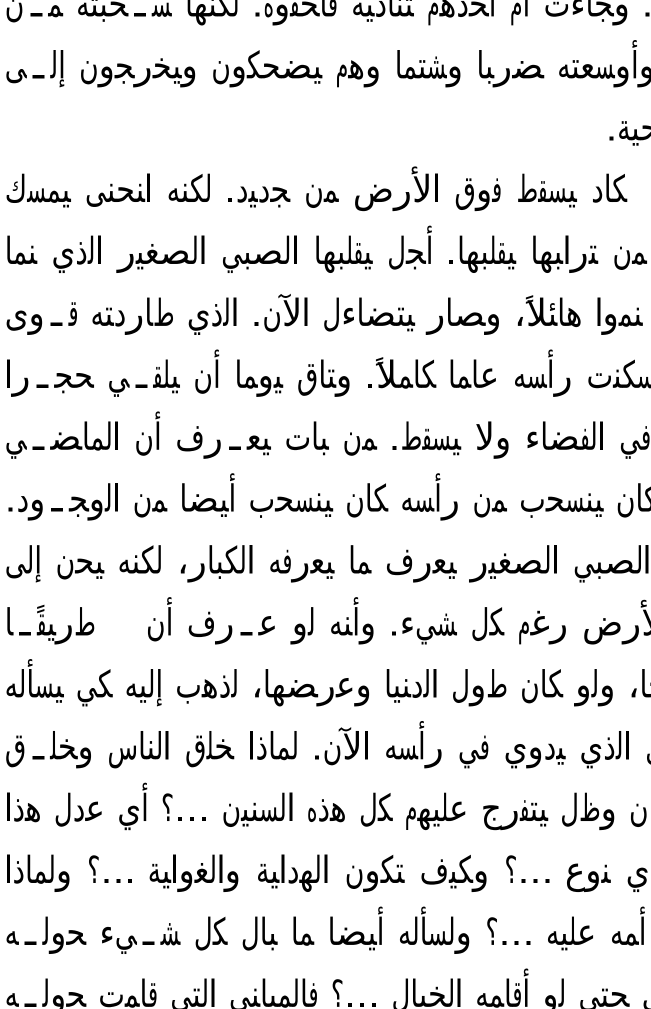
البحيرة كلها. ولا يعرف ما الذي جعله يرنو ببصره بعيدا إلى الجسر.

صار يبحث عن أضواء مصابيح قديمة كانوا يرونها كل مساء فيعرفون أن في الدنيا بشرا خلقهم ا غيرهم، رغم أنهم كانوا يذهبون كثيرا إلى الجسر بالنهار ويرون أولئك البشر. لكنه لم ير المصابيح ولم يستطع أن يميز مكان الجسر. فكر أين يذهب الآن في هذا الليل. نهض وترك نفسه يمشي في بطء شديد.

الأرض التي درج عليها تشده أن لا يبرحها. لكن أين الناس والأطفال والمباني والعشعش ونقنقة الدجاج ...؟

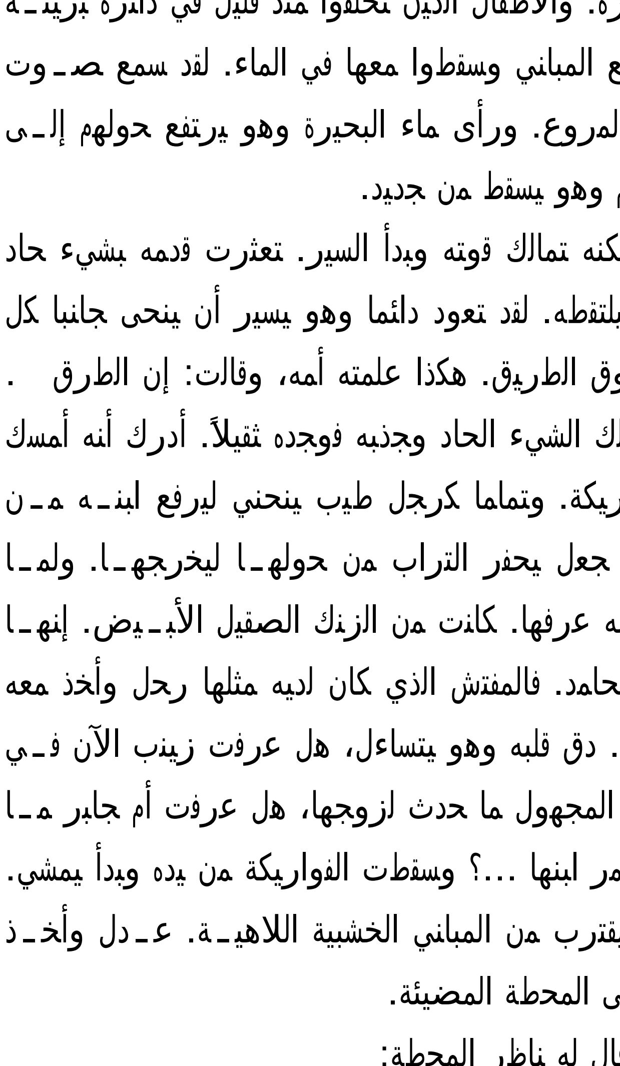
قام كل شيء حوله كما كان. المباني المنخفضة ذات الدور الواحد. أطلت عليه (الميازيب) المعوجة. جرى الأطفال خلف بعضهم واستخفوا. وجعلوا يجهزون أدوات الصيد ويصلحون الفخاخ. أقبل أحدهم يحمل سلة من السلك مليئة بالعصافير التي اصطادها ووجهه معفر بالتراب. ثم جرى من بينهم لا يريد أن يرى أن منهم من اصطاده. فأمه قد حذرته من الحسد. وأبوه علمه أن يقضي حاجته في الكتمان. لكنه عاد يحكي لهم عما اصطاده وعدده وصفاته. ثم

حكى لهم كثيرا عن أبيه الذي يشخر طول الليل ويضـرط! ضجوا بالضحك وضربوه استحسانًا. وتهامسوا حول سـعاد والرجال. وحول روائح التي تجلـس بعيـدا ولا تـدري أن فخذيها يظهران من تحتها. قال أحدهم أن عرفة عسكري لئيم وابن كلب لأنه يضرب النساء على مؤخراتهن. ضحكوا على زيدان الذي كان يبكي وهو منطرح علـى الأرض بعـد أن دفعته نعمة زوجته وهددته بالرحيل. وقال آخـر إن أقـوى رجل هنا هو عم حامد لأنه نحيف ويستطيع أن يجري بعربة المفتش طول النهار. لكن إحدى بنات عبد ا قالت إن أباهـا أقوى لأنه عجوز ويمشي وحده طول النهار وسط الصحراء ولا يخاف. ثم قرروا جميعا أن يذهبوا كـي يقـذفوا الشـيخ مسعود بالزلط الصغير وهو جالس وحده في الجامع. وبعـد ذلك يذهبون ليقذفوا ناظر المحطة النائم بالتراب. قام هو من بينهم ليصطاد القنافذ. أخذ يدعو أن تأتي سحابة تغطي القمر حتى لا يكون له خيال وهو يسير. أن يشتري له أبوه صندلاً من فوق الجسر حتى لا يؤلم الـزلط قدميـه ولا تتسـخان بالمازوت. ثم قال ولد أن فريد سيكون رئيسا للسكة الحديـد وأنه سيمنع قطار الكَنَسة، ويرسل بدلاً منـه قطـار سـمن



وثياب. وجاءت أم أحدهم تناديه فأخفوه. لكنها سحبته من بينهم وأوسعته ضربا وشتما وهم يضحكون ويخرجون إلى كل ناحية.

كاد يسقط فوق الأرض من جديد. لكنه انحنى يمسك بحفنة من ترابها يقلبها. أجل يقلبها الصبي الصغير الذي نما جسمه نموا هائلاً، وصار يتضاءل الآن. الذي طاردته قوى خفية سكنت رأسه عاما كاملاً. وتاق يوما أن يلقى حجرا يطير في الفضاء ولا يسقط. من بات يعرف أن الماضي الذي كان ينسحب من رأسه كان ينسحب أيضا من الوجود. صار الصبي الصغير يعرف ما يعرفه الكبار، لكنه يحن إلى هذه الأرض رغم كل شيء. وأنه لو عرف أن طريقًا واضحا، ولو كان طول الدنيا وعرضها، لذهب إليه كي يسأله السؤال الذي يدوي في رأسه الآن. لماذا خلق الناس وخلق الشيطان وظل يتفرج عليهم كل هذه السنين ...؟ أي عدل هذا ومن أي نوع ...؟ وكيف تكون الهداية والغواية ...؟ ولماذا كذبت أمه عليه ...؟ ولسأله أيضا ما بال كل شيء حوله يتهاوى حتى لو أقامه الخيال ...؟ فالمباني التي قامت حوله منذ لحظات طارت في الفضاء مجللة بالأضواء ثم سقطت



في البحيرة. والأطفال الذين تحلقوا منذ قليل في دائرة بريئة طاروا مع المباني وسقطوا معها في الماء. لقد سمع صوت السقوط المروع. ورأى ماء البحيرة وهو يرتفع حولهم إلى السماء ثم وهو يسقط من جديد.

لكنه تمالك قوته وبدأ السير. تعثرت قدمه بشيء حاد فانحنى ليلتقطه. لقد تعود دائما وهو يسير أن ينحى جانبا كل ما قد يعوق الطريق. هكذا علمته أمه، وقالت: إن الطرق . أمسك بذلك الشيء الحاد وجذبه فوجده ثقيلاً. أدرك أنه أمسك بأذن فواريكة. وتماما كرجل طيب ينحني ليرفع ابنه من الأرض، جعل يحفر التراب من حولها ليخرجها. ولما خلصت له عرفها. كانت من الزنك الصقيل الأبيض. إنها فواريكة حامد. فالمفتش الذي كان لديه مثلها رحل وأخذ معه كل شيء. دق قلبه وهو يتساءل، هل عرفت زينب الآن في مستقرها المجهول ما حدث لزوجها، هل عرفت أم جابر ما آل إليه أمر ابنها ...؟ وسقطت الفواريكة من يده وبدأ يمشي. فكر أن يقترب من المباني الخشبية اللاهية. عدل وأخذ طريقه إلى المحطة المضيئة.

قال له ناظر المحطة:

- هذه يا ولدي الحكاية من أولها. ولم يبق غير ما حدثتني به سعاد.

بدا له الرجل الذي نام طويلاً كأنما قد أغلق عينيه على الدنيا. كان الوقت قد صار منتصف الليل. خلال حديث الناظر كان النوم يدور بعلي بعد أن أمضى يوما صعبا. كانت سعاد في مخدعها الجديد في ركن من غرفة الناظر، الذي كان يلقي إليها بين الحين والحين بلقمة صغيرة من الخبز الجاف. قال علي في نفسه علها قد نامت الآن. ولم يكن قد رأى وجهها بعد. لم يكن يعرف كيف يكون نوم هذا المخلوق الجديد!

تساءل هل كان هناك من يعرف قصة ناظر المحطة ...؟ كل من كانوا هنا كانوا لا يعرفون إلا أنهم هنا فقط. حتى المدينة كان ما يربطهم بها بائع روبابكيا يأتي كل أسبوع ليبتاع ما يكونوا قد جمعوه من فوق القطار. لكن بائع الروبابكيا انقطع مع انقطاع القطار، فهل كان يعرف ...؟ وهل كان عليهم أن يعرفوا ما حكاه الناظر مما حدث قبل حضورهم، وربما، بل وبالتأكيد، قبل ميلادهم جميعا بعشرات السنين ...؟

ما حكاه الناظر عن أول قطار جاء هنا منذ مائة عام، تاريخ لم يذكره أحد. حتى ولا الشيخ مسعود الذي كان عالمهم.

قال ناظر المحطة أن ذلك القطار كان مكونًا من ثلاث عربات مكشوفة الجانبين، تجرها آلة بخارية صغيرة، تخرج دخانًا كثيفًا كأنه سحب. بداخل هذه العربات الثلاث التي كانت بيضاء، كان هناك عدد من الإنجليز الذين يرتدون قبعات ذات جوانب عريضة، وعدد من الأتراك برموا شواربهم ورفعوها من الجانبين، وأمالوا طرابيشهم الحمراء إلى الخاف. وأنهم جميعا نزلوا في هذا المكان فأشاروا إلى موقع المحطة الذي كان خاليا فصار محطة. ثم أشاروا إلى موقع عارضة التصادم الخشبية التي صارت الآن ملقاة على الأرض، وكان أيضا خاليا، فكانت العارضة، وكان القضيبان اللذان كان يأتي فوقهما القطار. وأشاروا أيضا إلى الصحراء فامتد القضيبان اللذان جاء فوقهما قطارهم إلى قلب الصحراء وبلغا نهايتها.

قال ناظر المحطة أنهم بعد أن أشاروا تلك الإشارات عادوا بقطارهم ذي العربات الثلاث، ثم جاء قطار آخر وبدأ

بناء كل شيء. حمل القطار الآخر مئات من الرجـال مـن شمال البلاد وجنوبها يقودهم إنجليزي عنيف، وبعض الأتراك الذين كانوا يمسكون بسياط يلوحون بها قليلاً، ويضربون بها كثيرا.

كانت الرمال رقيقة لكن تحتها قشرة صخرية صـلدة لابد من حفرها بامتداد القضبان. مد الرجال من شمال البلاد وجنوبها قضيبي قطار الكَنَسة أولاً، ثم استغرقوا وقتًا طويلاً في مد القضيبين المتجهين إلى الصحراء.

حين انتهوا من بناء المحطة جيء بأول نـاظر لهـا كان هو سائق القطار الأول، وهو أيضا جد ناظر المحطـة الحالي. وهذا الناظر الأول هو الذي رأى ذلك كلـه. وهـو الذي رأى الرجال من شمال البلاد وجنوبهـا يغيبـون عـن بصره في الصحراء وراء القضيبين اللذين يمدونهما. لكن ما هي إلا أيام قليلة تمضي، ثم يراهم يعودون اثنين اثنين كـل يوم، محمولين على العربة التي صارت فيمـا بعـد عربـة المفتش، وكان يدفعها رجلان فيهما بعض القوة.

كانت العربة تتوقف عند المحطة. ويحمل الـرجلان اللذان يدفعانها الميتَين من فوقها إلى البحيرة ويلقيان بجثتهما

فيها. ولاحظ ناظر المحطة الأول أن بعض من كان يدفع العربة يعود محمولاً عليها بعد أيام جثة هامدة، يلقى به رجلان آخران إلى البحيرة. وحين يسأل ناظر المحطة الأول لماذا لا يعيدونهم إلى بلادهم فيدفنون هناك، كان الرجلان اللذان يدفعان العربة يقولان له لا أهل ولا وطن لأحد هنا. كان ناظر المحطة الأول قد رأى من قبل الإنجليز والأتراك حين أشاروا بإهمال إلى البحيرة وتحدثوا بلغتهم ...!

بعد ذلك عاد القطار ذو الثلاث عربات يقود سائق جديد. سأله ناظر المحطة الأول لماذا جاء. أجاب السائق كي يعود بمن بقى. وتوغل بالقطار في الصحراء. بعد أيام عاد يحمل الأتراك والرجل الإنجليزي فقط. لم يسأل ناظر المحطة الأول عن أهل البلاد من شمالها وجنوبها. أدرك أن من لم يفز بالإلقاء في البحيرة، طوته رمال الصحراء التي تطوي كل شيء. وذلك كان السبب في أن ناظر المحطة الأول قال لابنه – والد ناظر المحطة الحالي – أنه لا يجب أن يعيش حتى يرى اليوم الذي تضج فيه البحيرة بأرواح القتلى. لأنه في هذا اليوم لن ترحم الدنيا أحدا.

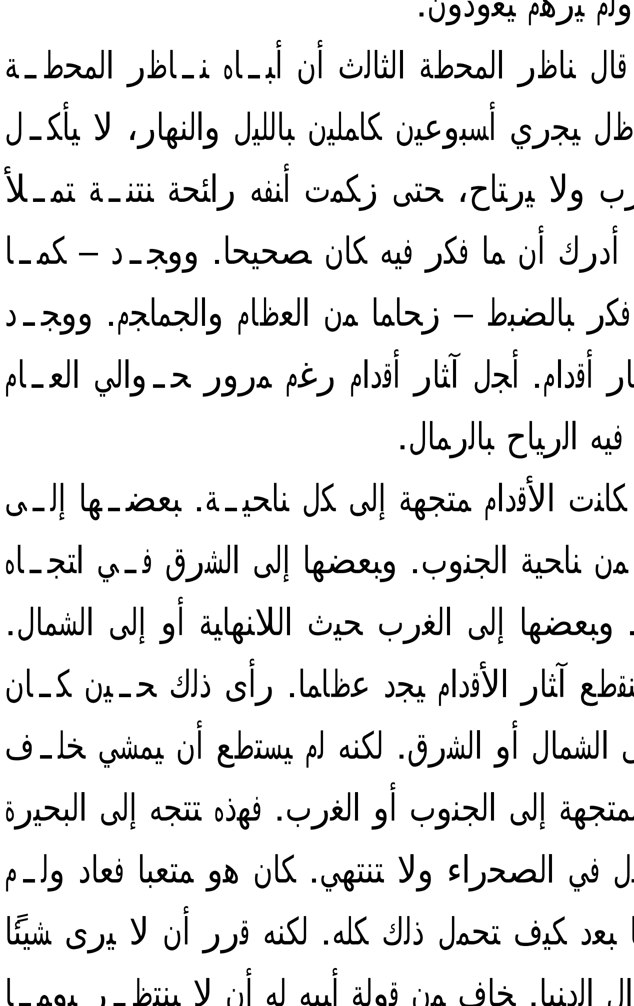
فكر علي في زيدان والبحيرة. عبد ا والصحراء. قال له ناظر المحطة أنه سيأتي ذكرهما بعد قليل. دهش علي من قدرة الرجل على معرفة ما دار في ذهنه. ثم قال الناظر أن هذه البداية لم تكن النهاية. قامت حرب كبرى في الدنيا. وكان أبوه الذي صار ناظر المحطة الثاني، يرى قطارات كثيرة تأتي محملة بالرجال الحفاة ممزقي الثياب من شمال البلاد وجنوبها، وتلقي بهم بعيدا وسط الصحراء في معسكر ضخم أعد لتدريبهم على القتال. رآهم ناظر المحطة الثاني يعودون بعد ذلك وقد ارتدوا البذات العسكرية، وحملوا البنادق التي كانت أطول منهم. لكن سحناتهم ظلت كما هي صفراء، عيونهم كما هي زائغة، عظام وجوههم كما هي يشف عنها الجلد، سيقانهم البارزة أسفل السراويل القصيرة ظلت رفيعة تجري فيها العروق النافرة، التي تتشابك في أكثر من مكان كما تتشابك القضبان عند نقط التحويلات.

ظل ناظر المحطة الثاني وقتًا طويلاً يرى القطارات تأتي بأهل البلاد من شمالها وجنوبها تلقي بهم في المعسكر البعيد ثم تعود بهم جنودا وتأتي بغيرهم. لكنه لم ير أولئك الذين يعودون مرة ثانية.

ذات يوم أتى القطار القديم ذو الثلاث عربات، وفوقه بعض الضباط الإنجليز. لم يكن هناك أتـراك هـذه المـرة. عرف ناظر المحطة الثاني من حديث الضباط وكان يعـرف لغتهم أن الذين يصيرون جنودا يحملون ليحاربوا فـي بـلاد الخواجات البعيدة وراء البحار الواسعة، وأنهم يموتون هناك ويلقون بجثثهم في البحيرات والأنهار، أو يتركونهـا فـوق الجبال وفي الوديان تحت الشمس أو الثلج تلتهمها الطيور.

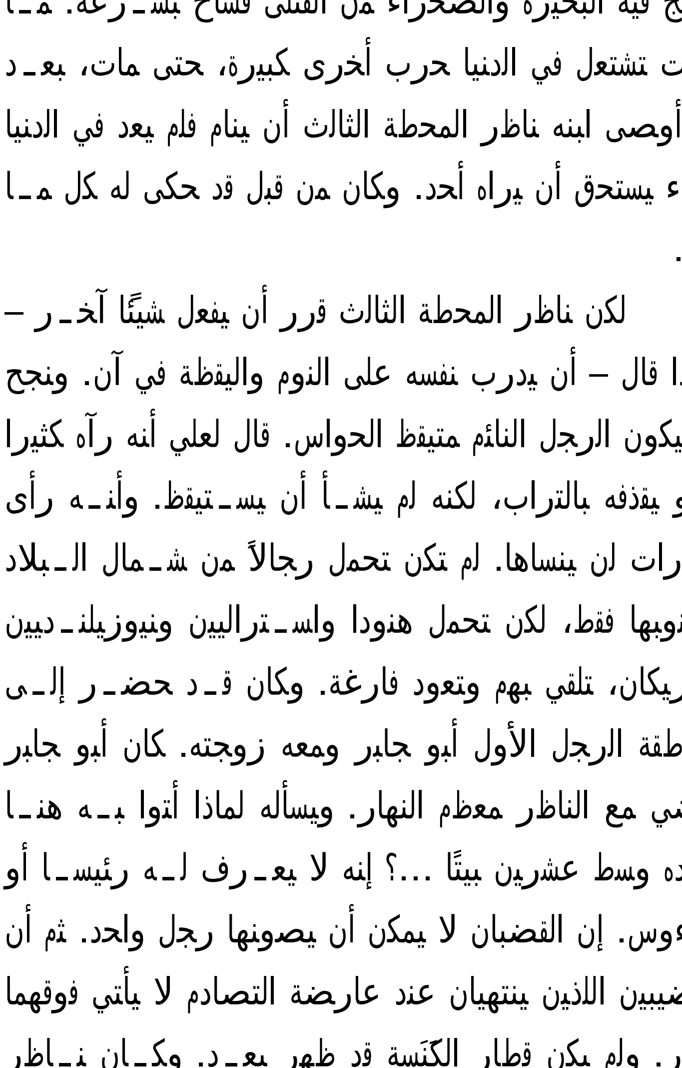
اغتم ناظر المحطة الثاني كثيرا لأنه من كثـرة مـا رأى من عدد ظن أن البلاد ستفرغ من أهلها. لكن الحـرب سرعان ما انتهت وانقطع مجيء القطارات.

في يوم شديد الحرارة، بعد حوالي عام مـن انتهـاء الحرب، قفز ناظر المحطة الثاني من فوق الأريكة – نفـس الأريكة الحالية التي ينام عليها نـاظر المحطـة الثالـث – وضرب جبهته بكفه غاضبا. وترك المحطة مجنونًا وخائفًـا. ظل يجري في قلب الصحراء. لقد تذكر فجأة، وبعـد هـذه الشهور، أنه قبل نهاية الحرب بأيام قليلة، جاء قطـار كبيـر مليء بأهل البلاد من شمالها وجنوبهـا، واتجـه بهـم إلـى


المعسكر وعاد فارغًا بلا جنود، ولم يأت بعد ذلك قطار يحملهم ولم يرهم يعودون.

قال ناظر المحطة الثالث أن أباه ناظر المحطة الثاني، ظل يجري أسبوعين كاملين بالليل والنهار، لا يأكل ولا يشرب ولا يرتاح، حتى زكمت أنفه رائحة نتنة تملأ الفضاء. أدرك أن ما فكر فيه كان صحيحا. ووجد – كما كان قد فكر بالضبط – زحاما من العظام والجماجم. ووجد أيضا آثار أقدام. أجل آثار أقدام رغم مرور حوالي العام تحركت فيه الرياح بالرمال.

كانت الأقدام متجهة إلى كل ناحية. بعضها إلى البحيرة من ناحية الجنوب. وبعضها إلى الشرق في اتجاه المحطة. وبعضها إلى الغرب حيث اللانهاية أو إلى الشمال. وحين تنقطع آثار الأقدام يجد عظاما. رأى ذلك حين كان يتجه إلى الشمال أو الشرق. لكنه لم يستطع أن يمشي خلف الآثار المتجهة إلى الجنوب أو الغرب. فهذه تتجه إلى البحيرة أو تتوغل في الصحراء ولا تنتهي. كان هو متعبا فعاد ولم يقل فيما بعد كيف تحمل ذلك كله. لكنه قرر أن لا يرى شيئًا من أحوال الدنيا. خاف من قولة أبيه له أن لا ينتظر يوما



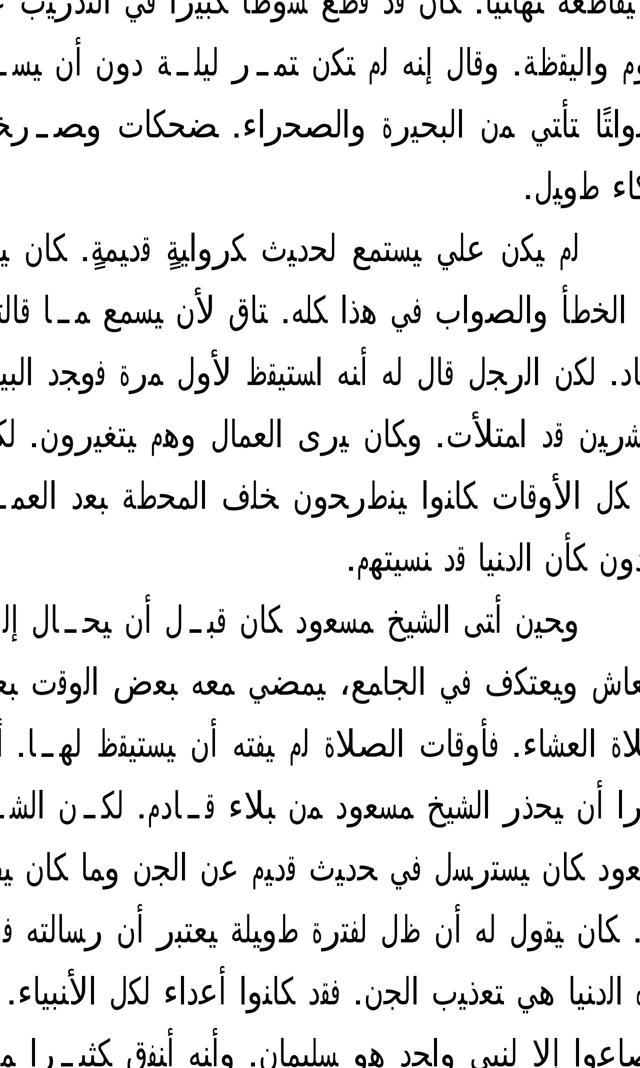
تضج فيه البحيرة والصحراء من القتلى فشاخ بسرعة. ما كادت تشتعل في الدنيا حرب أخرى كبيرة، حتى مات، بعد أن أوصى ابنه ناظر المحطة الثالث أن ينام فلم يعد في الدنيا شيء يستحق أن يراه أحد. وكان من قبل قد حكى له كل ما رآه.

لكن ناظر المحطة الثالث قرر أن يفعل شيئًا آخر – هكذا قال – أن يدرب نفسه على النوم واليقظة في آن. ونجح أن يكون الرجل النائم متيقظ الحواس. قال لعلي أنه رآه كثيرا وهو يقذفه بالتراب، لكنه لم يشأ أن يستيقظ. وأنه رأى قطارات لن ينساها. لم تكن تحمل رجالاً من شمال البلاد وجنوبها فقط، لكن تحمل هنودا واستراليين ونيوزيلنديين وأفريكان، تلقي بهم وتعود فارغة. وكان قد حضر إلى المنطقة الرجل الأول أبو جابر ومعه زوجته. كان أبو جابر يقضي مع الناظر معظم النهار. ويسأله لماذا أتوا به هنا وحده وسط عشرين بيتًا ...؟ إنه لا يعرف له رئيسا أو مرءوس. إن القضبان لا يمكن أن يصونها رجل واحد. ثم أن القضيبين اللذين ينتهيان عند عارضة التصادم لا يأتي فوقهما قطار. ولم يكن قطار الكَنَسة قد ظهر بعد. وكان ناظر

المحطة لم يزل يتدرب على النوم واليقظة فكان يجد متسعا للحديث مع الرجل. لكنه ظل يتساءل أين يذهب هؤلاء الجنود ...؟

وفي ليلة شهدت غارة كثيفة، كان الألمان والطليان يقتربون قادمين من الغرب تسبقهم طائرتهم، شاهد كأن الليل قد ملأته آلاف من أشعة النور تأتي من البحيرة والصحراء. عرف أنها أرواح الموتى الذين تحدث عنهم جده، والذين مشى أبوه وراء آثارهم. لم يصدق قط أن الجنود الذين يأتون من الشرق يعبرون البحر من الجهة الأخرى، فأشعة النور كانت تزداد كل ليلة. وعرف أنهم لابد يلقون بجثثهم في البحيرة من بعيد. أو يتركونها في العراء فوق الرمال.

وحدثه أن أبا جابر قرر، إذ لا رئيس له ولا مرءوس، أن يصطاد السمك. كاد ناظر المحطة أن يحذره من ذلك لكنه تراجع. ثم فوجئ به يأتيه ليحدثه عن سمكة ذهبية تخرج إليه من الماء تكلمه. اعتاد ناظر المحطة في ذلك الوقت أن يسهر مع الرجل في بيته. وحين قال له الرجل أنه يعود من الصيد مرتعشًا بعد كل حديث، وينام طالبا الغطاء من فرط البرد الذي يهز جسمه، قرر ناظر المحطة



أن يقاطعه نهائيا. كان قد قطع شوطًا كبيرا في التدريب على النوم واليقظة. وقال إنه لم تكن تمر ليلة دون أن يسمع أصواتًا تأتي من البحيرة والصحراء. ضحكات وصرخات وبكاء طويل.

لم يكن علي يستمع لحديث كروايةٍ قديمةٍ. كان يفكر أين الخطأ والصواب في هذا كله. تاق لأن يسمع ما قالته سعاد. لكن الرجل قال له أنه استيقظ لأول مرة فوجد البيوت العشرين قد امتلأت. وكان يرى العمال وهم يتغيرون. لكنهم في كل الأوقات كانوا ينطرحون خلف المحطة بعد العمل، فيبدون كأن الدنيا قد نسيتهم.

وحين أتى الشيخ مسعود كان قبل أن يحال إلى المعاش ويعتكف في الجامع، يمضي معه بعض الوقت بعد صلاة العشاء. فأوقات الصلاة لم يفته أن يستيقظ لها. أراد كثيرا أن يحذر الشيخ مسعود من بلاء قادم. لكن الشيخ مسعود كان يسترسل في حديث قديم عن الجن وما كان يفعله بها. كان يقول له أن ظل لفترة طويلة يعتبر أن رسالته في هذه الدنيا هي تعذيب الجن. فقد كانوا أعداء لكل الأنبياء. ولم ينصاعوا إلا لنبي واحد هو سليمان. وأنه أنفق كثيرا من

وقته في معرفة أسرارهم وأختامهم. وصار بعد ذلك يعـذبهم مثلما فعل رجل علمه الأسرار. كـان إذا عـرف أن جنيـة عشقت شابا من البشر، يستحضرها ويأمرها أن تعشـق مـا يختاره لها غير هذا الشاب. ودائما يختار عجوزا. وحين يعلم أن جنيا عشق امرأة من البشر، يستحضره ويجعلـه يعشـق عجوزا بالقوة. عجوزا شمطاء. وكثيرا ما كان يزوج الجني الذكر إلى جني ذكر والجني الأنثى إلى أنثى، ويقـول أنـه سيدمر عواطفهم. لذلك لابد أن الجن هم الذين قتلوه. فـالظلم أمر سيء حتى لو وقع على الجن. ولا يشفع للشيخ مسـعود أنه أقلع عن ذلك كما قال بعد أن تزوج من سعاد.

وتقدم من السلة ينظر داخلها ليرى ما إذا كانت سعاد تسمعه أم لا، فوجدها مبتسمة. فكر أن ينقطع عـن الحـديث لكنه استمر.

قال لعلي أن الأصوات التي كان يسمعها من البحيرة والصحراء لا يسمعها إلا الطيبون والأشراف المنحدرون من نسل الحسين سيد شباب أهل الجنة. لكنه يعرف أن الاستجابة لها موتٌ. وذلك ما لم يكن يعرفه الرجل الطيب زيدان الذي كان جسمه رغم سواده، وآثار البثور التي تغطيه، مقدودا من

نور فائق. لذلك لم يخرج زيدان من البحيرة، وليس معقـولاً أن تكون الجثة التي عثروا عليها هي جثته.

قال علي بدهشة :

- هل مات زيدان ...؟

- عثروا على جثة تشبهه. لكنه لا يموت.

- إذن جثة من ...؟

- لابد أنها لأحد أبناء المدينة قتله سـاكنو الجسـر وألقوها في البحيرة. أو لعلها جثة قديمة لواحد ممن ألقوا بهم في البحيرة.

قال علي وهو يزداد ارتباكًا :

- وهل يمكن أن يحدث ذلك ...؟

قال الناظر في ثقة :

- الطيبون يحدث لهم أكثر من ذلك.

قال علي في نفسه متى يطلع الصباح. لكـن نـاظر المحطة باغتة وقال :

- حتى الجثة التي عثروا عليها في الصحراء ليست لعبد ا .

- هل مات أيضا ...؟

تساءل علي في حزن.

- عثروا على جثة رجل في ظهره حدبة.

قال علي بصوت لا يكاد يسمعه أحد :

- لماذا تقول إذن أنه ليس هو ...؟

- لأني أعرف ماذا كان يريد الرجل. كان يريـد أن يوقف الشمس أو يغير اتجاهها. ولقـد اسـتطاع أن يفعـل ذلك ...؟

قال علي في ألم :

- إني متعب للغاية. أريد أن أنـام الوقـت القليـل الباقي.

قال ناظر المحطة مستنكرا.

- أليس لديك ما تريد أن تسأل عنه ...؟

قال علي باستسلام :

- لا أعرف. يمكن أن تكمل على كل حال.

قال ناظر المحطة :

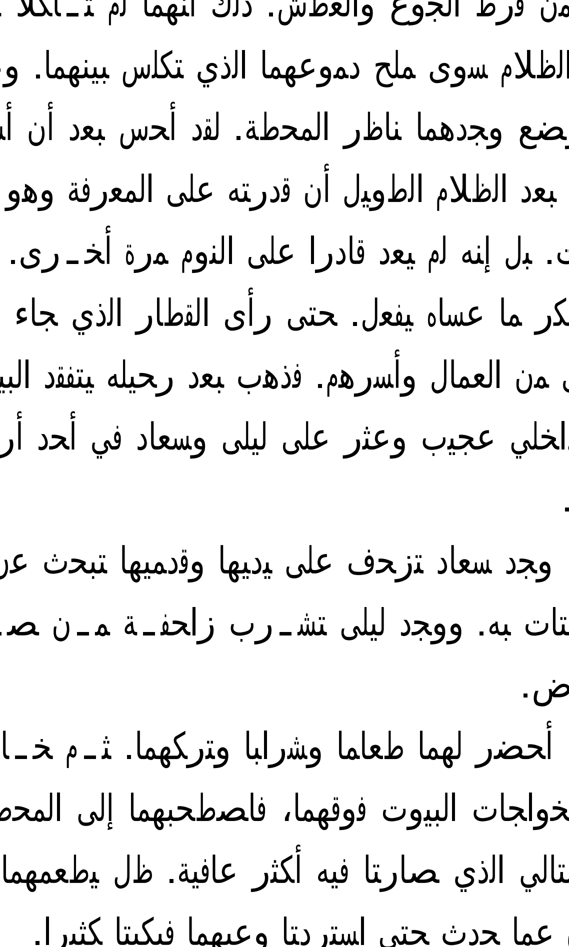
- لقد انقطعت الشمس عن الظهور أياما طويلة. حين عادت منذ شهر، لم يكن قد بقى خلال الظلام غير هـؤلاء –

وكان يعني الخواجات الذين رآهم علي – والمفـتش الجديـد ومن جاء بدلاً من حامد وجابر وزيدان والشيخ مسعود.

تحدث بعد ذلك ناظر المحطة الذي قالته له سـعاد. فبعد أن أشرقت الشمس من جديد، عم الفرح أولئك الذين بقوا أحياء بعد الظلام الطويل. سمعت طلقات الرصاص تأتي من ناحية المبـاني الخشـبية للخواجـات. وأقيمـت السـهرات الصاخبة. قال ناظر المحطة أنه رأى ذلك بالفعل. لكن تساءل الباقون في البيوت العشرين عن سر ما وقع. كيـف اختفـى القُدامى جميعا ولم يبق غير الجدد ...؟ ولـم يكـن هـؤلاء يعرفون أن سعاد وليلى من الذين بقوا.

قالت سعاد أنها ظلت طوال الظلام ملتصقة بليلـى. وكلما استمر الظلام ازداد خوفهما، فازداد التصاقهما وصارتا تبكيان. وأن الدموع الغزيرة التي سالت بينهما، كانت تنسال لزجة تغطي وجهيهما وصـدريهما، وتتحـول إلـى شـيء كالصمغ يزيد التصاقهما.

وقال ناظر المحطة أنه بعد أن أشرقت الشمس، جاء قطار به بعض الشرطة، وحملوا مـن بقـي مـن العمـال وأسرهم، ونقلوهم بالقطار إلى موقع بعيد في الصحراء. وأن



الشرطة لم تنتبه لليلى وسعاد لأنهما صارتا رقيقتين شاحبتين للغاية من فرط الجوع والعطش. ذلك أنهما لم تأكلا شيئًا طوال الظلام سوى ملح دموعهما الذي تكلس بينهما. وعلى هذا الوضع وجدهما ناظر المحطة. لقد أحس بعد أن أشرقت الشمس بعد الظلام الطويل أن قدرته على المعرفة وهو نائم قد نفدت. بل إنه لم يعد قادرا على النوم مرة أخرى. ظل أياما يفكر ما عساه يفعل. حتى رأى القطار الذي جاء ليحمل من بقى من العمال وأسرهم. فذهب بعد رحيله يتفقد البيوت بدافع داخلي عجيب وعثر على ليلى وسعاد في أحد أركان المنزل.

وجد سعاد تزحف على يديها وقدميها تبحث عن خبز عفن تقتات به. ووجد ليلى تشرب زاحفة من صنبور المرحاض.

أحضر لهما طعاما وشرابا وتركهما. ثم خاف أن يهدم الخواجات البيوت فوقهما، فاصطحبهما إلى المحطة في اليوم التالي الذي صارتا فيه أكثر عافية. ظل يطعمهما وهما ذاهلتين عما حدث حتى استردتا وعيهما فبكيتا كثيرا.

بعد ذلك قررت ليلى أن تهبط إلى المدينة تبحث عن علي. فهو الوحيد الآن الذي تعرف أين هـو ...؟ رفضـت سعاد أن تصحبها. قالت : إنه سيعود. وظل ناظر المحطـة يطعمها. صارت تزداد عافية يوما بعد يوم.

بعد أن صارت سعاد في أبهى صورة، فـوجئ بهـا تتغير على عكس ما توقع. صارت تشحب وتتضاءل. ولـم تمض أيام قليلة إلا وصارت على هذه الصورة. وجه جميـل لم يعرفه البشر بلا جسم. وتبرز الساقان رفيعتان في حجـم الأصابع من العنق مباشرة. وكذلك الذراعان الدقيقان كعودي ثقاب. وضعها ناظر المحطة في هذه السلة وغطاها بقطعـة الشاش وهو يسبح بحمد من له الأمر في كل شيء.

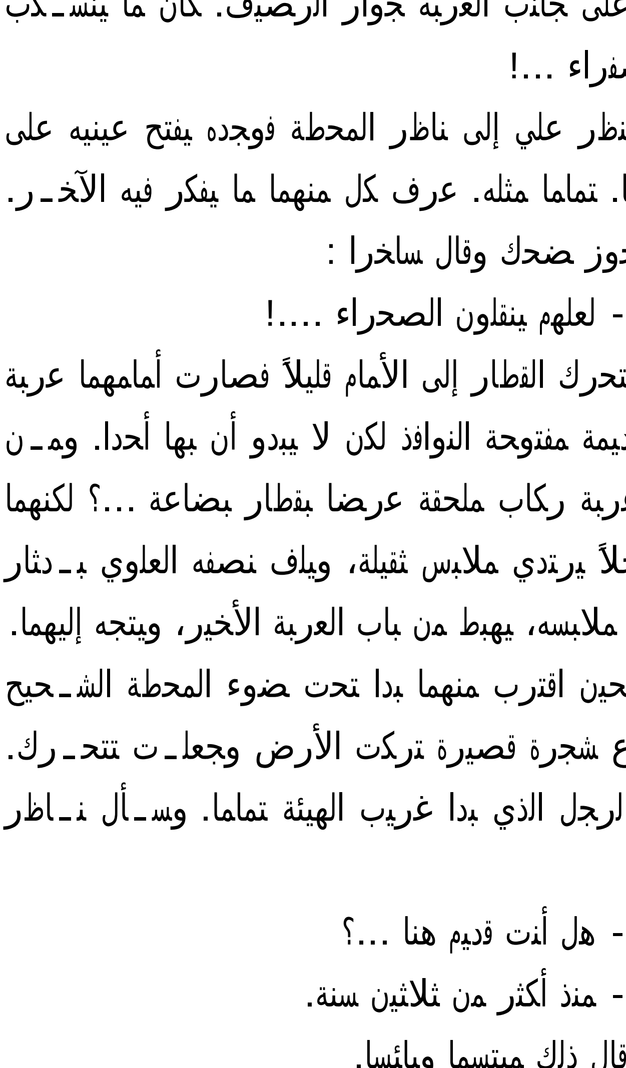
صمت ناظر المحطة بينما شاهد علي الحجـرة لأول مرة. بها أريكة نام عليها الناظر كثيـرا ومكتـب صـغير، ودولاب زجاجي به مفاتيح. في ركن علقت بعـض ثيـاب. تحتها موقد كحولي وبراد وبعض أكواب. في ركـن آخـر تليفون قديم سقطت سماعته على الجانب. وفي ركـن ثالـث كانت السلة التي بها سعاد. قال له ناظر المحطة الـذي رأى علي دمعا يترقرق في عينيه.

- ألا تكون القصة قد انتهت هنا ...؟

كان علي يفكر في ليلى والمدينة المباعة. في أهلـه الذين تاهوا في الظلام. في كابوس انتهى وحلم يبدأ. أو حلـم انتهى وكابوس جديد. أحس أن في أحشائه نـارا. فـالحنين الطاغي لمعرفة الصدق من الكذب قد يقتل بعض الناس. كان دائما يعرف رغم قوته التي ازدادت فجأة، وجسمه الذي نما، إنه لم يزل صغير السن والإدراك. والآن يعرف جيدا أنه قد فقد في اليومين السابقين جزءا كبيرا من جسمه وقوته، فـي وقت هو أحوج ما يكون إليهما فيه. أي إله قادر علـى حـل اللغز ...؟ وأي قوى خفيـة تصـمد أمـام هـذا الطلسـم المجهول ...؟ لكن صوت قطار قادم من ناحيـة الصـحراء قطع عليه تفكيره.

توقف القطار أمام رصيف المحطـة. سـمع علـي صوت احتكاك العجلات بالقضبان واصطدام العربات الخفيف ببعضها. بدا له أنه يسمع لحنًا شجيا طال الزمان بغيبته. لكن الوقت كان ليلاً والقطار جاء في المنتصف.

خرج هو وناظر المحطة ينظران. عربات القطـار محملة بأجولة ضخمة. أحد الأجولة كان ممزقًا. ما بداخلـه



ينسكب على جانب العربة جوار الرصيف. كان ما ينسـكب رمالاً صفراء ...!

نظر علي إلى ناظر المحطة فوجده يفتح عينيه على اتساعهما. تماما مثله. عرف كل منهما ما يفكر فيه الآخـر. لكن العجوز ضحك وقال ساخرا :

- لعلهم ينقلون الصحراء ....!

تحرك القطار إلى الأمام قليلاً فصارت أمامهما عربة ركاب قديمة مفتوحة النوافذ لكن لا يبدو أن بها أحدا. ومـن يركب عربة ركاب ملحقة عرضا بقطار بضاعة ...؟ لكنهما لمحا رجلاً يرتدي ملابس ثقيلة، ويلف نصفه العلوي بـدثار قاتم مثل ملابسه، يهبط من باب العربة الأخير، ويتجه إليهما.

حين اقترب منهما بدا تحت ضوء المحطة الشـحيح كأنه جذع شجرة قصيرة تركت الأرض وجعلـت تتحـرك. حياهما الرجل الذي بدا غريب الهيئة تماما. وسـأل نـاظر المحطة.

- هل أنت قديم هنا ...؟

- منذ أكثر من ثلاثين سنة.

قال ذلك مبتسما ويائسا.

- هل تعرف عمال السكة الحديدي الـذين يعيشـون هناك ...؟

وأشار إلى حيث كانت البيوت التي كانـت حجـرة الناظر تحجب أطلالها. تنبهت حواس علي وكاد يقف علـى أصابع قدميه. قال ناظر المحطة في نبرة تشي بأنه يتكلم عن زمان قديم.

- أجل. عرفتهم جميعا.

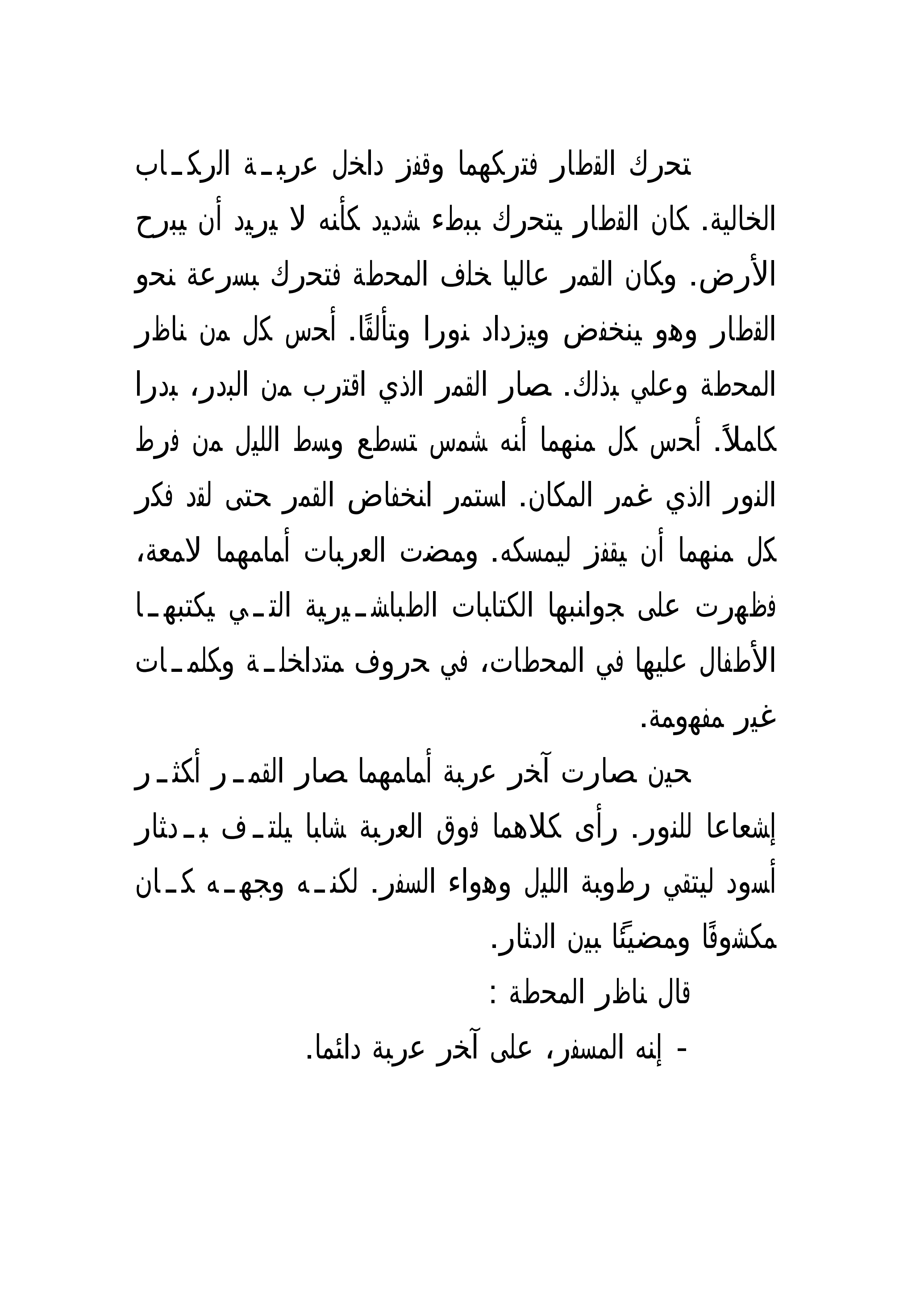
قال الشيخ غريب الهيئة بسرعة.

- القطار لن يقف طويلاً وليس لدي وقـت للـذهاب إليهم. ما أرجوه هو أن تبلغ شخصين، أحدهما يدعى جـابر والثاني حامد، بأني ـ واسمي مسعد ـ انتظرتهمـا طـويلاً حتى مللت.

أحس علي أنه صار كعارضة التصادم الملقـاة فـي العراء وتحت الشمس بينما قال ناظر المحطة بلا مبالاة :

- سأخبرهما.

- وقل لهما إني سأحاول الاتصال بهما فيمـا بعـد. المهم الآن ألا يرحلا إلي فقد عدت كما ترى. وهما يعرفـان كل ما أعنيه.

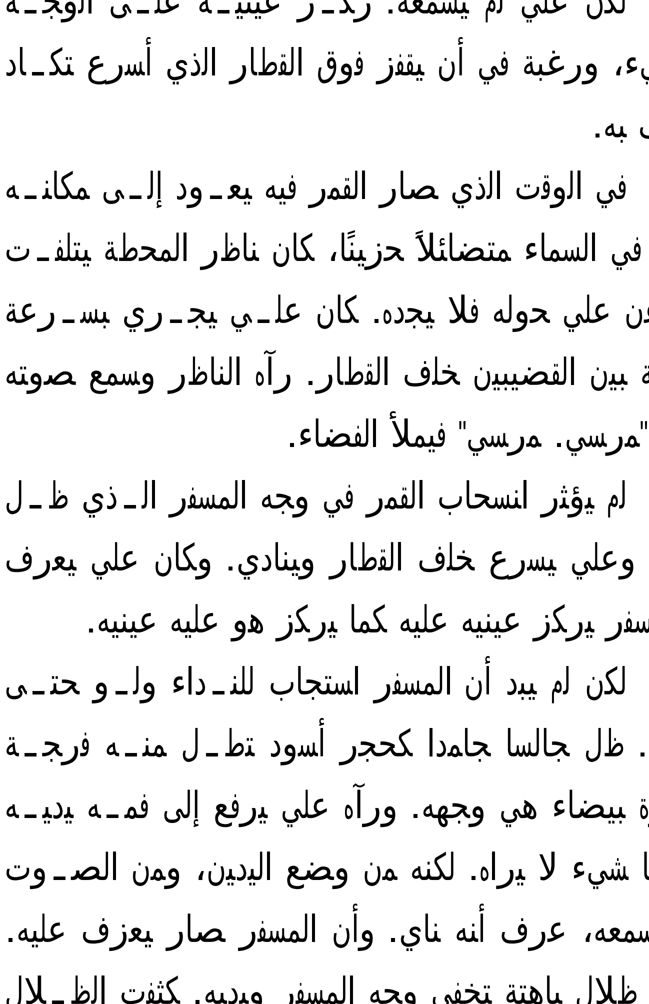


تحرك القطار فتركهما وقفز داخل عربة الركاب الخالية. كان القطار يتحرك ببطء شديد كأنه لا يريد أن يبرح الأرض. وكان القمر عاليا خلف المحطة فتحرك بسرعة نحو القطار وهو ينخفض ويزداد نورا وتألقًا. أحس كل من ناظر المحطة وعلي بذلك. صار القمر الذي اقترب من البدر، بدرا كاملاً. أحس كل منهما أنه شمس تسطع وسط الليل من فرط النور الذي غمر المكان. استمر انخفاض القمر حتى لقد فكر كل منهما أن يقفز ليمسكه. ومضت العربات أمامهما لامعة، فظهرت على جوانبها الكتابات الطباشيرية التي يكتبها الأطفال عليها في المحطات، في حروف متداخلة وكلمات غير مفهومة.

حين صارت آخر عربة أمامهما صار القمر أكثر إشعاعا للنور. رأى كلاهما فوق العربة شابا يلتف بدثار أسود ليتقي رطوبة الليل وهواء السفر. لكنه وجهه كان مكشوفًا ومضيئًا بين الدثار.

قال ناظر المحطة :

- إنه المسفر، على آخر عربة دائما.

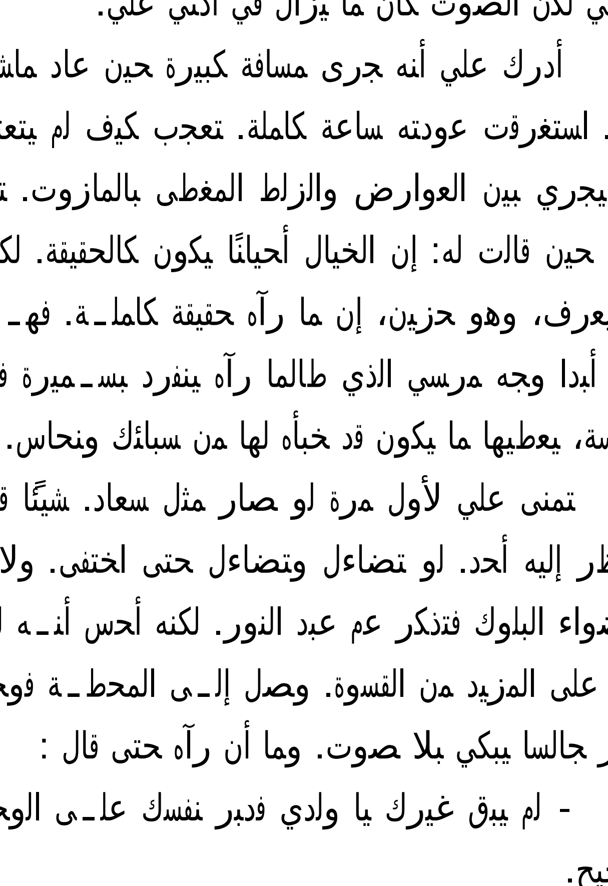


لكن علي لم يسمعه. ركز عينيه على الوجه المضيء، ورغبة في أن يقفز فوق القطار الذي أسرع تكاد تعصف به.

في الوقت الذي صار القمر فيه يعود إلى مكانه العالي في السماء متضائلاً حزينًا، كان ناظر المحطة يتلفت بحثًا عن علي حوله فلا يجده. كان علي يجري بسرعة مجنونة بين القضيبين خلف القطار. رآه الناظر وسمع صوته ينادي "مرسي. مرسي" فيملأ الفضاء.

لم يؤثر انسحاب القمر في وجه المسفر الذي ظل مضيئًا وعلي يسرع خلف القطار وينادي. وكان علي يعرف أن المسفر يركز عينيه عليه كما يركز هو عليه عينيه.

لكن لم يبد أن المسفر استجاب للنداء ولو حتى بإشارة. ظل جالسا جامدا كحجر أسود تطل منه فرجة صغيرة بيضاء هي وجهه. ورآه علي يرفع إلى فمه يديه وبينهما شيء لا يراه. لكنه من وضع اليدين، ومن الصوت الذي سمعه، عرف أنه ناي. وأن المسفر صار يعزف عليه. وبدأت ظلال باهتة تخفي وجه المسفر ويديه. كثفت الظلال

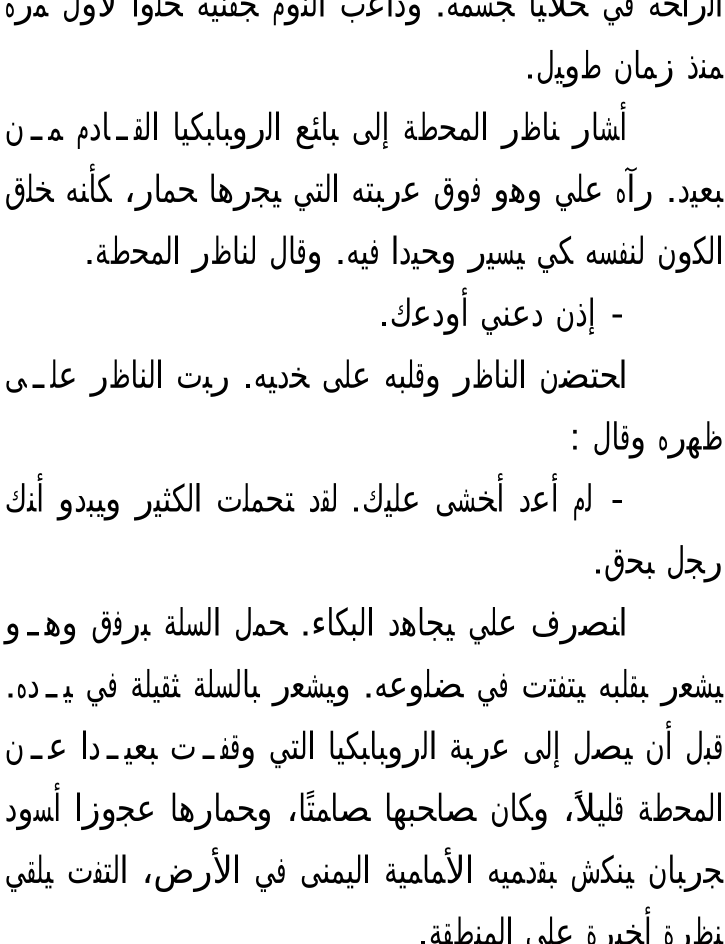


فالتحم الوجه بالدثار الأسود، والتحم الجميع بالعربة، ثم بالليل الساجي لكن الصوت كان ما يزال في أذني علي.

أدرك علي أنه جرى مسافة كبيرة حين عاد ماشيا يلهث. استغرقت عودته ساعة كاملة. تعجب كيف لم يتعثر وهو يجري بين العوارض والزلط المغطى بالمازوت. تذكر زينب حين قالت له: إن الخيال أحيانًا يكون كالحقيقة. لكنه كان يعرف، وهو حزين، إن ما رآه حقيقة كاملة. فهو لا ينسى أبدا وجه مرسي الذي طالما رآه ينفرد بسميرة في السبنسة، يعطيها ما يكون قد خبأه لها من سبائك ونحاس.

تمنى علي لأول مرة لو صار مثل سعاد. شيئًا قبيحا لا ينظر إليه أحد. لو تضاءل وتضاءل حتى اختفى. ولاحت له أضواء البلوك فتذكر عم عبد النور. لكنه أحس أنه لن يقوى على المزيد من القسوة. وصل إلى المحطة فوجد الناظر جالسا يبكي بلا صوت. وما أن رآه حتى قال :

- لم يبق غيرك يا ولدي فدبر نفسك على الوجه الصحيح.



كأنما كان علي في حاجة لمن يقول له ذلك، سرت الراحة في خلايا جسمه. وداعب النوم جفنيه حلوا لأول مرة منذ زمان طويل.

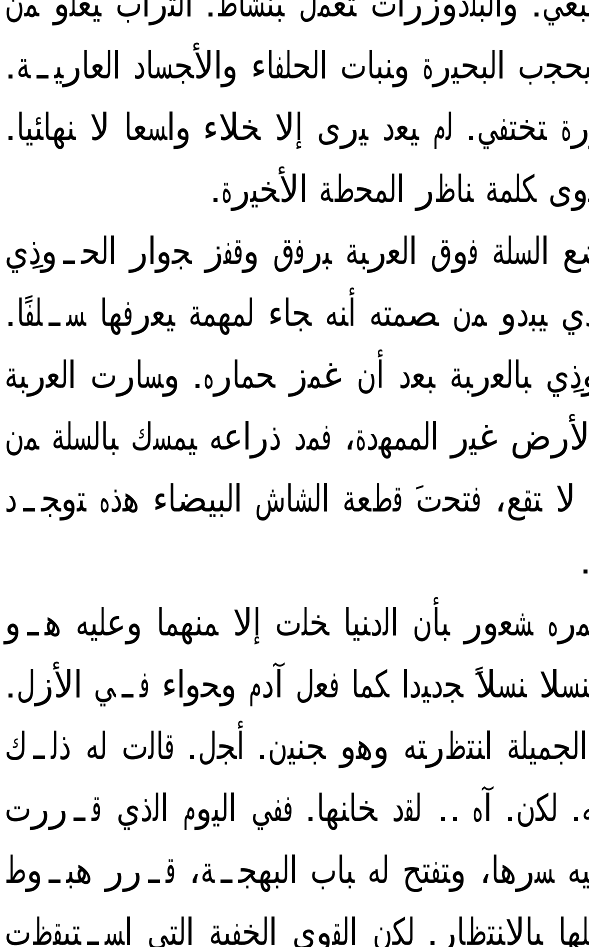
أشار ناظر المحطة إلى بائع الروبابكيا القادم من بعيد. رآه علي وهو فوق عربته التي يجرها حمار، كأنه خلق الكون لنفسه كي يسير وحيدا فيه. وقال لناظر المحطة.

- إذن دعني أودعك.

احتضن الناظر وقلبه على خديه. ربت الناظر على ظهره وقال :

- لم أعد أخشى عليك. لقد تحملت الكثير ويبدو أنك رجل بحق.

انصرف علي يجاهد البكاء. حمل السلة برفق وهو يشعر بقلبه يتفتت في ضلوعه. ويشعر بالسلة ثقيلة في يده. قبل أن يصل إلى عربة الروبابكيا التي وقفت بعيدا عن المحطة قليلاً، وكان صاحبها صامتًا، وحمارها عجوزا أسود جربان ينكش بقدميه الأمامية اليمنى في الأرض، التفت يلقي نظرة أخيرة على المنطقة.



كانت الشمس تتجه إلى منتصف السـماء، صـفراء أكثر مما ينبغي. والبلدوزرات تعمل بنشاط. التراب يعلو من كل ناحية فيحجب البحيرة ونبات الحلفاء والأجساد العاريـة. بدأت الصورة تختفي. لم يعد يرى إلا خلاء واسعا لا نهائيا. ولا يذكر سوى كلمة ناظر المحطة الأخيرة.

وضع السلة فوق العربة برفق وقفز جوار الحـوذِي الصامت الذي يبدو من صمته أنه جاء لمهمة يعرفها سـلفًا. استدار الحوذِي بالعربة بعد أن غمز حماره. وسارت العربة تهتز على الأرض غير الممهدة، فمد ذراعه يمسك بالسلة من جانبها حتى لا تقع، فتحتَ قطعة الشاش البيضاء هذه توجـد أجمل امرأة.

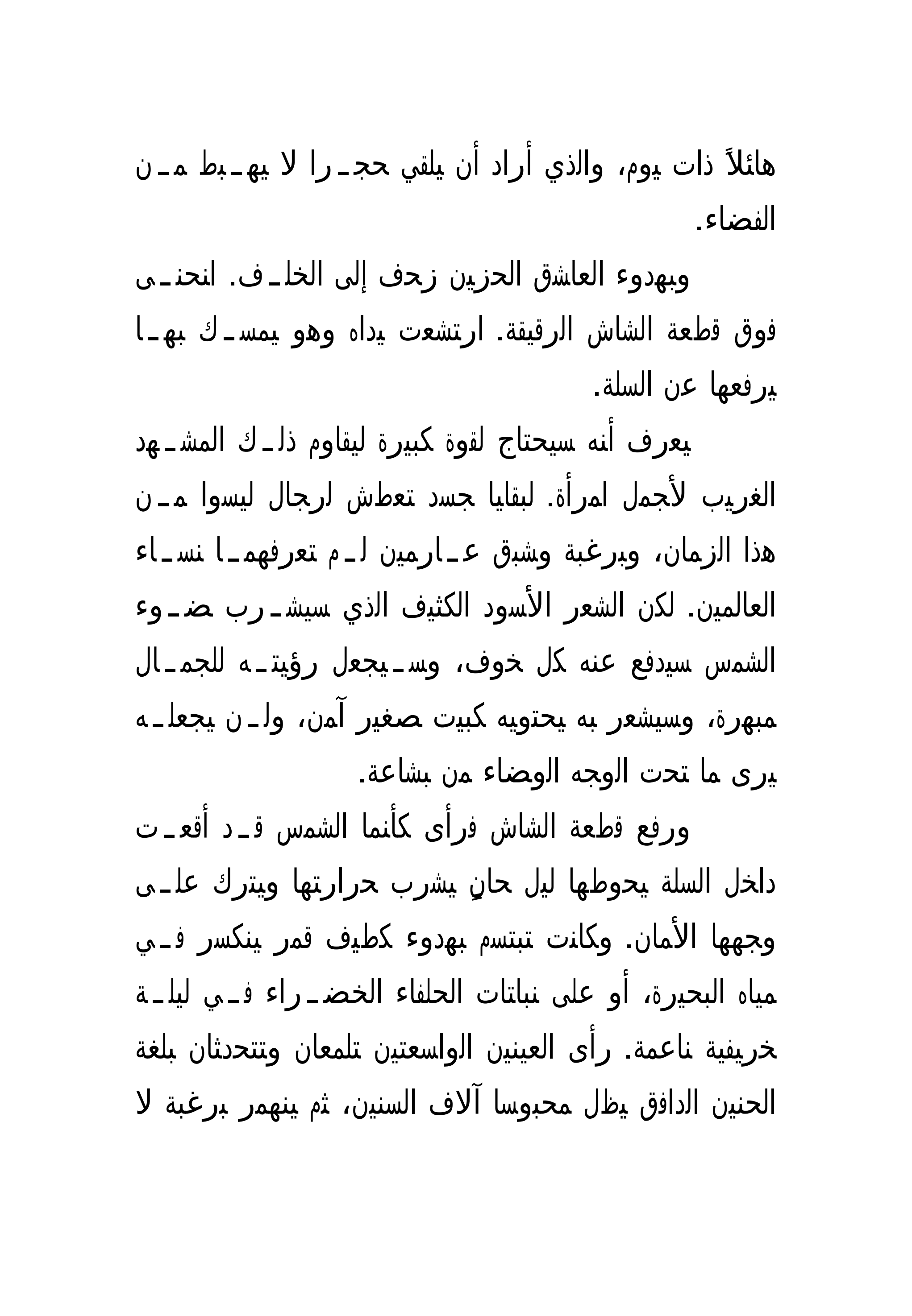
وغمره شعور بأن الدنيا خلت إلا منهما وعليه هـو وسعاد أن ينسلا نسلاً جديدا كما فعل آدم وحواء فـي الأزل. هذه المرأة الجميلة انتظرته وهو جنين. أجل. قالت له ذلـك وهي تودعه. لكن. آه .. لقد خانها. ففي اليوم الذي قـررت فيه أن تعطيه سرها، وتفتح له باب البهجـة، قـرر هبـوط المدينة وعللها بالانتظار. لكن القوى الخفية التي اسـتيقظت

فيه هي التي دفعته. وماذا كان الغـلام الصـغير بقـادر أن يفعل ...؟

أخذه الأسى من كل جانب، وعصفت بقلبه مشـاعر ذنب طاغية كريح الصحراء في يـوم خماسـيني. فتسـاءل معذبا أي ذنب جناه القلب الصغير ...؟

ورأى وجه الرجل الأسود قد صار رفيعا متغضـنًا. والحمار الأجرب يحك نفسه في سرجه أكثر مما يمشي، فقال لنفسه : "لم تكن السنون التي مرت بكثيرة لتفعل هذا كله". ثم أشار للحوذِي أي يقف.

عرق كثير بدأ ينتفض على وجهه. نار حارة تتـدفق من قلبه إلى شفتيه. كان يريد للمرة الأولى، وربما الأخيـرة، أن يرى وجه سعاد. أن يقبلها. فالمرأة التي عاشت تنتظره مذ كان في الأحشاء لم تفز بشيء منه. وهو نفسه يشعر أنه لـو قبلها الآن ستستوي امرأة أجمل مما كانت، وسيبدأ معها عهدا لم يعرفه البشر، وسيعلو بها فوق كل الهموم، سـينزل بهـا المدينة المتخاصمة يعرف ما لم يعرفه. يحذر الناس مما لـم يعرفوه، وما لم يحذرهم منه أحد، وهي معه، لا يطالاها أحد، ولا يقف أمامها أحد إلا هو. ذلك الولد الذي نما جسمه نمـوا



هائلاً ذات يوم، والذي أراد أن يلقي حجرا لا يهبط من الفضاء.

وبهدوء العاشق الحزين زحف إلى الخلف. انحنى فوق قطعة الشاش الرقيقة. ارتشعت يداه وهو يمسك بها يرفعها عن السلة.

يعرف أنه سيحتاج لقوة كبيرة ليقاوم ذلك المشهد الغريب لأجمل امرأة. لبقايا جسد تعطش لرجال ليسوا من هذا الزمان، وبرغبة وشبق عارمين لم تعرفهما نساء العالمين. لكن الشعر الأسود الكثيف الذي سيشرب ضوء الشمس سيدفع عنه كل خوف، وسيجعل رؤيته للجمال مبهرة، وسيشعر به يحتويه كبيت صغير آمن، ولن يجعله يرى ما تحت الوجه الوضاء من بشاعة.

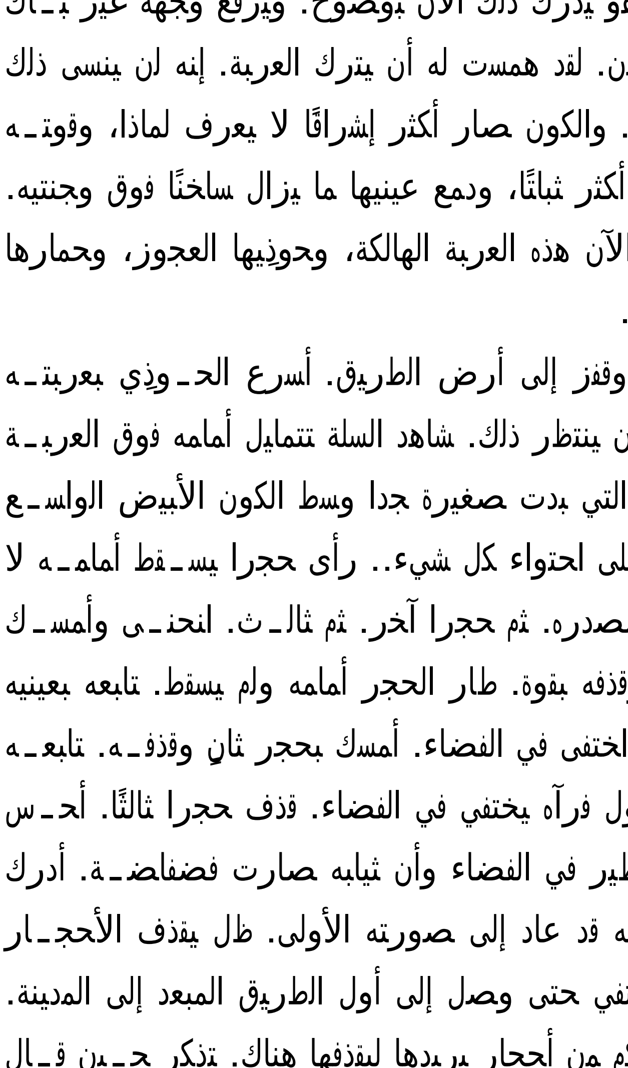
ورفع قطعة الشاش فرأى كأنما الشمس قد أقعت داخل السلة يحوطها ليل حانٍ يشرب حرارتها ويترك على وجهها الأمان. وكانت تبتسم بهدوء كطيف قمر ينكسر في مياه البحيرة، أو على نباتات الحلفاء الخضراء في ليلة خريفية ناعمة. رأى العينين الواسعتين تلمعان وتتحدثان بلغة الحنين الدافق يظل محبوسا آلاف السنين، ثم ينهمر برغبة لا

تتوقف، وخوف لا يعرف أحد مصدره. وكانت الأهداب ترتعش، والدمع البارز كاللؤلؤ ينحدر على الوجنتين صامتًا طيبا، وارتعشت الشفتان وأشعت الابتسامة، وملأت الدعوة عينيه، فملأ رأسه سطح السلة وهو ينحني أكثر. لكن رأسه لم يمنع ضوء الشمس فلم ير ظلاً ينعكس على الوجه المضيء. ظل مشرقًا كما هو كأن أشعة الشمس تنفذ من خلال رأسه. أو كأن رأسه ووجهها صارا أطياف شمس صباح بهية في تلك اللحظة التي خرجت عن الزمان، وأحس فيها بأن الكون كله يتركز منسكبا بالفرح داخل السلة القديمة.

حين اقترب أكثر شعر بالحرارة تصعد إلى وجهه تهدهد الروح والجسد. واقتربت الشفاه ولم يغمض عينيه. لن ينسى ذلك فيما بعد. وحين تلامست الشفاه أحس بدم جديد أبيض يجري في جسده، ولم يغمض عينيه. لن ينسى ذلك فيما بعد. وظلت عيناه تريان أجمل عينين لامرأة، تزوجها عجوز والتاع بها شباب ورجال، ونامت بسببها نساء على النار، وضج منها الكون باغتها كاسرا لأنه لا قبل له أن يكون في وجودها ...! امرأة تعرفها السماء جيدا فطالما صعدت تناجي قطرات مائها، وفتحت لها صدرها. وتعرفها

الشمس التي غابت ثم عادت ذليلة لأنها تتألق من ضوء هذه المرأة، ولا تستطيع أن تغيب أكثر من ذلك ...! امرأة تقـول عيناها بأن ليلى التي ذهبت إلى المدينة ستكون أجمل امـرأة هناك، فقد التصقت بها في ظلام طويل وشربت من دموعها، وعليه الآن أن يلحق بها ينقذها مما يراد لها. وكانت عينـاه مفتوحتين أمام عينيها. إنه لن ينسى ذلك أبـدا ...! وسـيظل يذكره حتى يحتضر ويرى الأحجار الطائرة تسـقط أمامـه. ويقول له الناس هذه الأحجار يا علي هي التي قذفها النـاس حين قلت لهم ذلك في الزمن القديم، قد عادت لتراك قبـل أن تموت، وستطير مرة أخرى فلم يعد هناك سـبيل لإيقافهـا، وأنهم ما يزالون يقذفون أحجارهم الجميلـة، بعيـدة المـدى والصيت، من كل بقعة وفي كل وقت، ويرددون ما قلتـه أن ليس الخيال كالحقيقة وليس الصدق كالكذب!

ورأى عيني أجمل امرأة وأذكاهما بالنار تغمضـان، وأحس أن الشفتين الدافئتين تبردان، وأن ظِل وجهـه يـرين على الوجه الجميل الذي صارت تشيع فيه الصفرة. لم تعـد الشمس تنفذ من رأسه إليه. ولم يعد رأسه ووجهها أطيـاف شمس صباح بهية. امتلأت السلة بالظل وأظلمت فلم يعد بها



شيء وهو يدرك ذلك الآن بوضوح. ويرفع وجهه غير بـاك ولا حزين. لقد همست له أن يترك العربة. إنه لن ينسى ذلك فيما بعد. والكون صار أكثر إشراقًا لا يعرف لماذا، وقوتـه صارت أكثر ثباتًا، ودمع عينيها ما يزال ساخنًا فوق وجنتيه. فليترك الآن هذه العربة الهالكة، وحوذِيها العجوز، وحمارها الأجرب.

وقفز إلى أرض الطريق. أسرع الحـوذِي بعربتـه كأنما كان ينتظر ذلك. شاهد السلة تتمايل أمامه فوق العربـة المهتزة التي بدت صغيرة جدا وسط الكون الأبيض الواسـع القادر على احتواء كل شيء.. رأى حجرا يسـقط أمامـه لا يعرف مصدره. ثم حجرا آخر. ثم ثالـث. انحنـى وأمسـك حجرا وقذفه بقوة. طار الحجر أمامه ولم يسقط. تابعه بعينيه فرآه قد اختفى في الفضاء. أمسك بحجر ثانٍ وقذفـه. تابعـه مثل الأول فرآه يختفي في الفضاء. قذف حجرا ثالثًا. أحـس بنفسه يطير في الفضاء وأن ثيابه صارت فضفاضـة. أدرك أن جسمه قد عاد إلى صورته الأولى. ظل يقذف الأحجـار التي تختفي حتى وصل إلى أول الطريق المبعد إلى المدينة. تساءل كم من أحجار يريدها ليقذفها هناك. تذكر حـين قـال

للشرطي أنه يتيم. وأمسك أول حجر قابلـه علـى الطريـق المعبد. قذفه بقوة فسقط غير بعيد. ضـاعت كـل الصـور القديمة من ذهنه، وهتف من أعماقه، مـن للفتـى الغريـب الآن ...؟ وأدرك أنه قـد ودع إلـى الأبـد، زمـن الحلـم والخيال...........

* * * * * *

- انتهت -

١٩٨٠ - ١٩٧٧